al-MAHĀSIN wa al-ADDĀD

المحاسن والأضداد

تأليف

al-JĀHIZ, ʿAMR ibn BAHR

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري

إمام أهل الأدب المتوفي سنة ٢٥٥ هـ

دار مكتبة العرفان

مطبعة الساحل الجنوبي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه الاعانة

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وآله أجمعين.

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله : اني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والاحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه الى نفسي ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعته ونصاحته ، وأكثر ما يكون هذا منهم اذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه المقدرة على التقديم والتأخير والحط والرفع والترهيب والترغيب فانهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الابل المغتلمة ، فان أمكنتهم الحيلة في اسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي ألف له فهو الذي قصدوه وأرادوه وان كان السيد المؤلف فيه الكتاب نحريرا نقابا ونقريساً بليغاً وحاذقا فطنا وأعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب والفوا من أعراضه وحواشيه كتابا وأهدوه الى ملك آخر ومتوا اليه به وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوبا الي وموسوما بي . وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من

هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته علي ويكتبونه بخطوطهم ويصيرونه إماما يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون بـه ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ويروونه عني لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة يأتم بهم قوم فيـه ، لأنه لم يترجم باسمي ولم ينسب الى تأليفي . وهذا كتاب وسمته (بالمحاسن والاضداد) لم أسبق الى نحلته ولم يسألني أحد صنعه ابتدأته بذكر محاسن الكتابة والكتب وختمته في ذكر شيء من محاسن الموت والله يكلؤه من حاسد اذا حسد

١ ـ محاسن الكتابة والكتب

كانت العجم تقيد مآثرها بالبنيان والمدن والحصون مثـل بناء أزدشير وبناء اصطخر وبناء المدائن والسدير والمدن والحصون ، ثم إن العرب شاركت العجم في البنيان وتفردت بالكتب والأخبار والشعر والآثار ، فلها من البنيان غمدان وكعبة نجران وقصر مأرب وقصر مارد وقصر شعوب والأبلق الفرد وغير ذلك من البنيان ، وتصنيف الكتب أشد تقييدا للمآثر على مر الايام والدهور من البنيان ، لان البنـاء لا محالة يدرس وتعفى رسومه والكتاب باق يقع من قرن الى قرن ومن أمة الى أمة فهو أبداً جديد والناظر فيه مستفيد وهو أبلغ في تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير. وكانت العجم تجعل الكتاب في الصخور ونقشا في الحجارة وخلقة مركبة في البنيان ، فربما كان الكتاب هو الناتىء وربما كان هـو المحفور اذا كان ذلك تاريخاً لامر جسيم أو عهداً لامر عظيم أو موعظة يرتجى نفعها أو احياء شرف يريدون تخليد ذكره كما كتبوا على قبة غمدان وعلى باب القيروان وعلى باب سمرقند وعلى عمود مأرب وعلى ركن المشقر وعلى الابلق الفرد وعلى باب الرها . يعمدون الى المواضع المشهورة والاماكن المذكورة

فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور وأمنعها مـن الدروس وأجدر أن يراه من مر به ولا ينسى على وجه الدهور . ولولا الحكم المحفوظة والكتب المدونة لبطل أكثر العلم ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ، ولما كان للناس مفزع الى موضع استذكار ولو لم يتم ذلـك لحرمنا أكثر النفع ، ولولا ما رسمت لنا الاوائل في كتبها ، وخلدت مـن عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنا بها كل مستغلق فجمعنا الى قليلنا كثيرهم وأدركنا ما لم نكن ندركه الا بهم لقد بخس حظنا منه وأهل العلم والنظر وأصحاب الفكر والعبر والعلمـاء بمخارج الملل وأرباب النحل وورثة الانبياء وأعوان الخلفاء يكتبون كتب الظرفاء والصلحاء وكتب الملاهي وكتب أعوان الصلحاء وكتب أصحـاب المراء والخصومات وكتب السخفاء وحمية الجاهلية ، ومنهم مـن يفرط في العلم أيام خموله وترك ذكره وحداثة سنه ، ولولا جياد الكتب وحسانها لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ونازعت الى حب الكتب وألفت مـن حال الجهل وان يكونوا في غمار الوحش ولدخل عليهم من الضرر والمشقة وسوء الحال ما عسى أن يكون لا يمكن الاخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير ، وسمعت محمد بن الجهم يقول اذا غشيني النعاس في غـير وقت النوم تناولت كتابا فاجد اهتزازي للفوائد الاريحية التي تعتريني من سرور الاستنباه وعز التبين أشد إيقاظا من نهيق الحمار وهـدة الهـدم فاني اذا استحسنت كتابا واستجدته ورجوت فائدته لم أوثر عليه عوضا ولم أبغ به بدلا فلا أزال أنظر فيه ساعة بعد ساعة كم بقي من ورقه مخافـة استنفاده وانقطاع المادة من قبله . وقال ابن داحة كان عبدالله بن عبد العزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس فنزل مقبرة من المقابر وكان لا يزال في يده كتاب يقرؤه فسئل عن ذلك فقال لم أر أوعظ من قـبر ولا آنس من كتاب ولا أسلم مـن الوحدة . وأهدى بعض الكتاب الى صديق له دفترا وكتب معه : هديتي هذه أعزك الله تزكو عـلى الانفاق

وتربو على الكد لا تفسدها العواري ولا تخلقها كثرة التقليب وهـي إنس في الليل والنهار والسفر والحضر تصلح للدنيا والآخرة تؤنس في الخلـوة وتمنع من الوحدة مسامر مساعد ومحدث مطواع ونديم صدق ، وقـال بعض الحكماء الكتب بساتين العلماء ، وقال آخـر . الكتاب جليس لا مؤنة له ، وقال آخر : الكتاب جليس بلا مؤنة ، وقال آخـر : ذهبت المكارم إلا من الكتب .

قال الجاحظ : وأنا أحفظ واقول : الكتاب نعم الذخر والعقـدة والجليس والعمدة ونعم النشرة ونعم النزهة ونعم المشتغل والحرفـة ونعم الأنيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل والزميل ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء ملىء علما وظرف حشى ظرفا واناء شحن مزاحا إن شئت كان أعيا من باقل ، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل ، وان شئت سرتك نوادره وشجتك مواعظه ومن لك بواعظ مـلـه وبناسك فاتك وناطق أخرس ، ومن لك بطبيب اعرابي ورومي هندي وفارسي يوناني ونديم مولد ونجيب ممتع ، ومن لك بشيء يجمـع الأول والآخر والناقص والوافر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والغث والسمين والشكل وخلافه والجنس وضده . وبعد فما رأيت بستانا يحمـل في ردن وروضة تنقل في حجر ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لـك بمؤنس لا ينام الا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى آمن من الأرض وأكتم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة ولا أعلم جاراً آمن ولا خليطا أنصف ولا رفيقاً أطوع ولا معلما أخضع ولا صاحبـاً أظـهر كفاية وعناية ولا أقل إملالا ولا ابراما ولا أبعد مـن مراء ولا أترك لشغب ولا أزهد في جدال ولا أكف عن قتال من كتاب ، ولا أعـم بياناً ولا أحسن مؤاتاة ولا أعجل مكافأة ولا شجرة أطول عمرا ولا أطيب ثمرا ولا أقرب مجتنى ولا أسرع إدراكا ولا أوجد في كل إبان مـن

كتاب ، ولا أعلم نتاجا في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وإمكان وجوده يجمع من السير العجيبة والعلوم الغريبة وآثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والاخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمعه كتاب . ومن الك بزائر إن شئت كانت زيارته غبا وورده خمسا وإن شئت لزمك لزوم ظلك وكان منك كبعضك . والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك والصديق الذي لا يقليك والرفيق الذي لا يملك والمستمع الذي لا يستزيدك والجار الذي لا يستبطئك والصاحب الذي لا يريـد استخراج ما عندك بالملق ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق . والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال امتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجود بيانك وفخم ألفاظك وبجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك يطيعك بالليل طاعته بالنهار وفي السفر طاعته في الحضر وهو المعلم إن افتقرت اليه لم يحقرك وان قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة وان عزلت لم يدع طاعتك وان هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت متعلقا منه بادنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة الى جليس السوء وإن أمثل ما يقطع به الفراغ نهارهم وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم نظر في كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد في تجربة وعقـل ومروءة وصون عـرض وإصلاح دين وتثمير مال ورب صنيعة وابتداء إنعـام . ولو لم يكـن من فضله عليك وإحسانه اليك الا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر الى المارة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس ومن حضور الفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الردية وجهالتهم المذمومة لكان في ذلك السلامة والغنيمة واحراز الأصل مع استفادة الفرع ولو لم يكن في ذلك الا أنه يشغلك عن سخف المنى واعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما تشتهيه لقد كان له في ذلك على صاحبه أسبغ النعم وأعظم المنة . وجملة الكتاب وان كثر ورقه فليس مما

جل لأنه وان كان كتابا واحداً فانه كتب كثيرة في خطابه والعلم بالشريعة والأحكام والمعرفة بالسياسة والتدبير ، وقال مصعب بن الزبير : ان الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون ويحفظون أحسن ما يكتبون ويكتبون أحسن ما يسمعون ، واذا أخذت الأدب فخذه من أفواه الرجال فانك لا ترى ولا تسمع الا مختارا ولؤلؤاً منظوما ، وقال لقمان لابنه : يا بني نافس في طلب العلم فانه ميراث غير مسلوب ، وقرين غير مغلوب ، ونفيس حظ من الناس وفي الناس مطلوب ، وقال الزهري : الأدب ذكر لا يحبه الا الذكور من الرجال ولا يبغضه الا مؤنثهم ، وقال : اذا سمعت أدبا فاكتبه ولو في حائط ، وقال منصور بن المهدي للمأمون : أيحسن بنا طلب العلم والأدب قال : والله لأن أموت طالبا للأدب خير لي من أن أعيش قانعا بالجهل قال : فالى متى يحسن بي ذلك قال : ما حسنت الحياة بك .

(ضده)

الحديث المرفوع (رحم الله عبداً أصلح من لسانه) . وكان الوليد بن عبد الملك لحنة فدخل عليه اعرابي يوما فقال : أنصفني من ختني يا أمير المؤمنين فقال ومن ختنك ؟ قال رجل من الحي لا أعرف اسمه فقال عمر بن عبد العزيز : إن أمير المؤمنين يقول الك من ختنك ؟ فقال هو ذا بالباب فقال الوليد لعمر ما هذا ؟ قال النحو الذي كنت أخبرتك عنه ، قال لا جرم فاني لا أصلي بالناس حتى أتعلمه ، قال وسمع أعرابي مؤذنا يقول : أشهد أن محمداً رسول الله فقال يفعل ماذا ؟ قال وقال رجل لزياد : أيها الامير ان أبينا هلك وان أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا فقال زياد ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضاع من ميراث أبيك فلا رحم الله أباك حيث ترك ابنا مثلك . وقال مولى لزياد : أيها الأمير أحذوا لنا همار

وهش ، فقال : ما تقول ، فقال : أحذوا لنا إيراً ، فقال زياد الاول خير من الثاني . قال واختصم رجلان الى عمر بن عبد العزيز فجعلا يلحنان فقال الحاجب : قما فقد أوذيتما أمير المؤمنين ، فقال عمر للحاجب : أنت والله أشد إذاء منهما . ، قال وقال بشر المريسي وكان كثـير اللحن : قضى لكم الامير على أحسن الوجوه وأهنؤها ، فقال القاسم التمار : هذا على قوله

إنَّ سُلَيمى واللهِ يَكلَؤُها ضَنتْ بشَيْءٍ ما كانَ يَرْزَؤُها

فكان احتجاج القاسم أطيب من لحن بشر ، قال وكان زياد النبطـي شديد اللكنة وكان نحويا فدعا غلامه ثلاثاً فلما أجابه قال . من لدن دأوتك الى أن ديتني ما كنت تصنأ ، يريد دعوتك وجئتني وتصنع ، ومر ماسرجويه الطبيب بمعاذ بن مسلم فقال : يا ماسر جويه اني لاجـد في حلقي بححا قال هو من عمل بلغم . فلما جاوزه قال : تراني لا أحسن أن أقول بلغم ولكنه قال بالعربية فأجبته بضدها .

٢ ـ محاسن المخاطبات

حكوا عن ابن القرية ، انه دخل على عبد الملك بن مروان فبينا هو عنده إذ دخل بنو عبد الملك عليه فقال : من هؤلاء الفتية يا أمير المؤمنين ؟ قال: ولد أمير المؤمنين ، قال : بارك الله لك فيهم كما بارك لابيك فيك وبارك لهم فيك كما بارك لك في أبيك ، قال : فشحن فاه دراً ، قـال وقال عمارة بن حمزة لابي العباس وقد أمر له بجوهر نفيس : وصلـك الله يا أمير المؤمنين وبرك فوالله لئن أردنا شكرك عـلى انعامك ليقصرن شكرنا

عن نعمتك كما قصر الله بنا عن منزلتك . قيل ودخل اسحاق بن ابراهيم الموصلي على الرشيد فقال : ما لك ؟ قال :

سَوامي سَوامُ المُكثِرِينَ تَجَمُّلًا
ومالي كَما قَدْ تعلَمينَ قليلُ
وآمِرَةٍ بالبُخلِ قُلْتُ لَها اقْصِرِي
فَذلِكَ شَيْءٌ ما إِلَيهِ سَبيلُ
وكَيْفَ أخافُ الفقرَ أوْ أحرَمُ الغِنى
ورأيُ أميرِ المُؤْمِنينَ جَميلُ
أرى النَّاسَ خُلاَّنَ الجَوادِ ولاَ أرى
بَخِيلًا لَهُ في العالَمينَ خَليلُ

فقال الرشيد : هذا والله الشعر الذي صحت معانيه وقويت أركانه ومبانيه ولذ على أفواه القائلين وأسماع السامعين يا غلام احمل اليه خمسين الف درهم ، قال اسحاق يا أمير المؤمنين كيف أقبل صلتك وقد مدحت شعري بأكثر مما مدحتك به ؟ قال الاصمعي : فعلمت انه أصيد للدراهم مني . قال ودخل المأمون ذات يوم الديوان فنظر الى غلام جميل على أذنه قلم فقال : من أنت ؟ قال : أنا الناشىء في دولتك المتقلب في نعمتك المؤمل لخدمتك الحسن بن رجاء ، فقال المأمون : بالاحسان في البديهة تتفاضل العقول يرفع عن مرتبة الديوان الى مراتب الخاصة ويعطى مائة ألف درهم تقوية له ، قال : ووصف يحيى بن خالد الفضل بن سهل وهو غلام على المجوسية للرشيد وذكر أدبه وحسن معرفته فعمل على ضمه الى

المأمون فقال ليحيى يوماً أدخل الى هذا الغلام المجوسي حتى أنظر اليه فاوصله فلما مثل بين يديه ووقف تحير فاراد الكلام فارتج عليه فادركته كبوة فنظر الرشيد الى يحيى نظرة منكرة لما كان تقدم من تقريظه اياه فانبعث الفضل بن سهل فقال : يا أمير المؤمنين ان من أبين الدلائل على فراهة المملوك شدة افراط هيبته لسيده فقال له الرشيد : أحسنت والله لئن كان سكوتك لتقول هذا انه لحسن ولئن كان شيئاً أدركك عند انقطاعك انه لأحسن وأحسن ثم جعل لا يسأله عن شيء الا رآه فيه مقدما فضمه الى المأمون ، قال : وقال الفضل بن سهل المأمون وقد سأله حاجة لبعض أهل بيوتات دهاقين سمرقند كان وعده تعجيل انفاذها فتأخر ذلك : هب لوعدك مذكرا من نفسك وهنيء سائلك حلاوة نعمتك واجعل ميالك الى ذلك في الكرم حثاً على اصطفاء شكر الطالبين تشهد لك القلوب بحقائق الكرم والالسن بنهاية الجود ، فقال : قد جعلت اليك اجابة سؤالي عني بما ترى فيهم وآخذك في التقصير فيما يلزم لهم من غير استئمار أو معاودة في اخراج الصكاك من أحضر الاموال متناولا قال اذاً لا تجدي معرفتي بما يجب لامير المؤمنين اغناء به بما يديم له منهم حسن الثناء ويستمد بدعائهم طول البقاء. وقال الفضل بن سهل المأمون . يا أمير المؤمنين اجعل نعمتك صائنة لوجوه خدمك عن اراقة مائها في غضاضة السؤال فقال والله لا كان ذلك الا كذلك. قال ودخل العتابي على المأمون فقال : خبرت بوفاتك فغمتني ثم جاءتني وفادتك فسرتني فقال يا أمير المؤمنين كيف أمدحك أم بماذا أصفك ولا دين الا بك ولا دنيا الا معك ؟ قال سلني ما بدا لك قال يداك بالعطية أطلق من لساني بالمسالة . قال وقدم السعدي ابو وجزة على المهلب بن ابي صفرة فقال : أصلح الله الامير اني قد قطعت اليك الدهناء وضربت اليك آباط الابل من يثرب قال فهل أتيتنا بوسيلة أو عشرة أو قرابة ؟ قال لا ولكني رأيتك لحاجتي أهلا فان قمت بها فأهل ذلك وان يحل دونها حائل لم اذمم يومك ولم أيأس من غدك فقال المهلب يعطى ما في بيت المال فوجد مائة ألف درهم فدفعت

اليه فاخذها وقال :

يا مَنْ عَلى الْجُودِ صاغَ اللهُ راحَتَهُ
فَلَيْسَ يُحْسِنُ غَيْرَ الْبَذْلِ والْجُودِ
عَمَّتْ عَطاياكَ مَنْ بالشَّرْقِ قاطِبَةً
فأَنْتَ والْجُودُ مَنْحوتانِ مِنْ عودِ

وقد يجب على العاقل الراغب في الادب أن يحفظ هذه المخاطبات ويدمن قراءتها ، وقد قال الأصمعي :

أما لَوْ أعي كُلَّ ما أسْمعُ — وأحفَظُ مِنْ ذاكَ ما أجْمَعُ
ولَمْ أسْتَفِدْ غيرَ ما قَدْ جَمَعْتُ — لقيلَ أنا الْعالِمُ المُقنِعُ
ولكِنَّ نَفْسِي إلى كُلِّ شَيْءٍ — مِنَ العلْمِ تسْمَعُهُ تَنْزِعُ
فلاَ أنا أحفَظُ ما قَدْ جَمَعْتُ — ولاَ أنا مِنْ جَمْعِهِ أشْبَعُ
وأقْعُدُ لِلْجَهْلِ في مَجْلِسٍ — وعِلْمِيَ في الْكُتْبِ مُسْتَوْدَعُ
ومَنْ يَكُ في عِلْمِهِ هكَذا — يَكُنْ دَهْرَهُ الْقَهْقَرى يَرْجعُ
يَضيعُ مِنَ المالِ ما قَدْ جَمَعْتَ — وعِلْمُكَ في الْكُتْبِ مُسْتَوْدَعُ
إذا لَمْ تَكُنْ حافِظاً واعِياً — فَجَمْعُكَ لِلْكُتْبِ ما يَنْفَعُ

وقال بعضهم : الحفظ مع الاقلال أمكن وهو مع الاكثار أبعد وتغيير الطبائع زمن رطوبة الغصن أقبل ، وفيها قال الشاعر :

أتاني هَواها قبْلَ أنْ أعْرِفَ الْهوَى
فصادَفَ قَلْباً خالِياً فتمَكَّنا

وقيل : العلم في الصغر كالنقش في الحجر والعلم في الكبر كالعلامة على المدر .. فسمع ذلك الاحنف فقال الكبير أكثر عقلا ولكنه أكثر شغلا كما قال :

وإنَّ مَنْ أدَّبتَهُ في الصِّبي — كالْعودِ يُسقى المَاءَ في غَرْسِهِ
حَتّى تَراهُ مورِقاً ناضِراً — بَعْدَ الذي أبصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

والصبي عن الصبي أفهم وهو له آلف ، واليه أنزع . وكذلك العالم عن العالم والجاهل عن الجاهل ، وقال الله تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلًا) لان الانسان عن الانسان أفهم وطباعه بطباعه آنس

(ضده)

قال : دخل أبو علقمة النحوي على أعين الطبيب فقال : اني أكلت من لحوم الجوازيء وطسئت طسأة فأصابني وجع بين الوابلة إلى دأية العنق فلم يزل يربو وينمو حتى خالط الشراسيف فهل عندك دواء ؟ قال نعم خذ خوفقا وسربقا ورقرقا فاغسله واشربه بماء فقال لا أدري ما تقول قال ولا أنا دريت ما قلت . قال وقال يوما آخر اني أجد معمعة في قلبي وقرقرة في صدري فقال له أما المعمعة فلا أعرفها وأما القرقرة فهي ضراط غير نضيج . قال وأتى رجل الهيثم بن العريان بغريم له قد مطله حقه فقال أصلح الله الأمير ان لي على هذا حقا قد غلبني عليه فقال له الآخر

أصلحك الله ان هذا باعني عنجدا واستنسأته حولا وشرطت عليه أن أعطيه مياومة فهو لا يلقاني في لقم الا اقتضاني ذهبا فقال له الهيثم أمن بني أمية أنت ؟ قال لا قال أفمن بني هاشم أنت ؟ قال لا قال أفمن أكفائهم من العرب ؟ قال لا قال ويلي عليك أنزعوا ثيابه فلما أرادوا أن ينزعوا ثيابه قال أصلحك الله ان إزاري مرعبل قال دعوه فلو ترك الغريب في موضع لتركه في هذا الموضع . قال ومر أبو علقمة ببعض الطرق فهاجت بـــه مرة فوثب عليه قوم فجعلوا يعصرون ابهامه ثم يؤذنون في أذنه فأفلت من أيديهم فقال ما لكم تتكأكأون على تكأكؤكم على ذي جنة افرنقعوا عني فقال رجل منهم دعوه فان شيطانه يتكلم بالهندية . قال وقـــال لحجام يحجمه اشدد قصب الملازم وارهف ظبة المشارط وخفف الوضع وعجـــل النزع وليكن شرطك وخزا ومصك نهزا ولا تكرهن أبيا ولا تردن أتيا فوضع الحجام محاجمه في جونته وانصرف .

٣ ـ محاسن المكاتبات

قال كعب العبسي لعروة بن الزبير . . قد أذنبت ذنبا الى الوليد بن عبد الملك وليس يزيل غضبه شيء فاكتب لي اليه فكتب اليـــه . لو لم يكن لكعب من قديم حرمته ما يغفر له عظيم جريرته لوجب أن لا تحرمه التفيؤ بظل عفوك الذي تأمله القلوب ولا تعلق به الذنوب وقد استشفع بي اليك فوثقت له منك بعفو لا يخالطه سخط فحقق أمله وصدق ثقتي بـــك تجد الشكر وافيا بالنعمة . فكتب اليه الوليد . . قد شكرت رغبته اليك وعفوت عنه لمعوله عليك وله عندي ما يحب فلا تقطع كتبك عني في أمثاله وفي سائر أمورك . وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الى بعض اخوانه . أما بعد فقد عاقني الشك عن عزيمة الرأي ابتدأتني بلطف

من غير خبرة ثم أعقبتني جفاء من غير ذنب فاطمعني أولـك في احسانك وأيأسني آخرك من وفائك فلا أنا في غير الرجاء مجمع لك اطراحا ولا في غد أنتظره منك على ثقة فسبحان من لو شاء كشف لإيضاح الرأي فيك فأقمنا على ائتلاف أو افترقنا على اختلاف . قال وسخط مسلمة بن عبد الملك على العريان بن الهيثم فعزله عن شرطة الكوفة فشكا ذلك الى عمـر بن عبد العزيز فكتب اليه : ان من حفظ أنعم الله رعاية ذوي الاسنان ومن اظهار شكر الموهوب صفح القادر عن الذنب ومن تمام السودد حفظ الودائـع واستتمام الصنائع وقد كنت أودعت العريان نعمة من أنعمك فسلبتها عجلة سخطك وما أنصفته غصبته ، على أن وليته ثم عزلته وخليته وأنا شفيعـه فاحب أن تجعل له من قلبك نصيبه ولا تخرجه من حسن رأيك فتضيع ما أودعته وتتوى (١) ما أفسدته : فعفا عنه ورده الى عمله : قـال وغضب سليمان بن عبد الملك على ابن عبيد مولاه فشكا الى سعيد بن المسيب ذلـك فكتب اليه : أما بعد فان أمير المؤمنين في الموضع الذي يرتفع قدره مما تقتضيه رعيته وفي عفو أمير المؤمنين سعة للمسيئين : فرضي عنه . قال وطلب العتابي من رجل حاجة فقضى له بعضها ومطله ببعض فكتب اليه : أمـا بعد فقد تركتني منتظراً لوعدك منتجزاً لرفدك وصاحب الحاجـة محتاج الى نعم هنيئة أو لا مريحة والعذر الجميل أحسن من المطل الطويل . وقد قلت بيتي شعر :

بَسَطْتَ لِسانِي ثُمَّ أَوْثَقْتَ نِصْفَهُ
فَنِصْفُ لِسانِي بامْتِداحِكَ مُطلَقُ

فإنْ أنتَ لَمْ تُنجِزْ عِداتِي تَرَكْتَني
وباقي لِسانِ الشُّكْرِ باليأسِ موثَق

(١) التواء الهلاك

قال : وكتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون في رجل من بني ضبة يستشفع له بالزيادة في منزلته وجعل كتابه تعريضاً : أما بعد فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين لتطولك علي في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام . فكتب اليه المأمون قد عرفنا تصريحك له وتعريضك لنفسك وأجبناك اليهما ووقفناك عليهما : قال وكتب عمرو ابن مسعدة إلى المأمون كتابا يستعطفه على الجند : كتابي الى أمير المؤمنين ومن قبلي من أجناده وقواده في الطاعة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم ، فقال المأمون : والله لأقضين حق هذا الكلام وأمر باعطائهم لثمانية أشهر . قال وقدم رجل من أبناء دهاقين قريش على المأمون لعدة سلفت منه فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون فقال لعمرو بن مسعدة توصل في رقعة مني إلى أمير المؤمنين تكون أنت الذي تكتبها تكون لك علي نعمتان فكتب : ان رأي أمير المؤمنين أن يفك أسر عبده من ربقة المطل بقضاء حاجته ويأذن له في الانصراف إلى بلده فعل إن شاء الله ، فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمراً فجعل يعجبه من حسن لفظها وايجاز المراد فقال عمرو فما نتيجتها يا أمير المؤمنين قال الكتاب له في هذا الوقت بما وعدناه لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه وبجائزة مائة ألف درهم صلة عن دناءة المطل وسماجة الاغفال ففعل ذلك له . وحدثنا اسماعيل بن أبي شاكر قال : لما أصاب أهل مكة السيل الذي شارف الحجر ومات تحته خلق كثير كتب عبيد الله بن الحسن العلوي وهو والي الحرمين إلى المأمون : ان أهل حرم الله وجيران بيته وألاف مسجده وعمرة بلاده قد استجاروا بعز معروفك من سيل تراكمت أخرياته في هدم البنيان وقتل الرجال والنسوان واجتياح الاصول وجرف الابقال حتى ما ترك طارفا ولا تالداً للراجع اليهما في مطعم ولا ملبس فقد شغلهم طلب الغذاء عن الاستراحة إلى البكاء على الامهات والاولاد والآباء

والاجداد فأجرهم يا أمير المؤمنين بعطفك عليهم واحسانك اليهم تجد الله مكافئك عنهم ومثيبك عز الشكر منهم . قال فوجه اليهم المأمون بالاموال الكثيرة وكتب الى عبيد الله أما بعد فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله أمير المؤمنين فبكاهم بقلب رحمته وانجدهم بسبب نعمته وهو متبع ما أسلف اليهم بما يخلفه عليهم عاجلا وآجلا ان أذن الله في تثبيت عزمه على صحة نيته . قال فصار كتابه هذا آنس لأهل مكة من الأموال التي أنفذها اليهم . قال وكتب جعفر بن محمد بن الاشعث الى يحيى بن خالد يستعفيه من العمل : شكري لك على ما أريد الخروج منه شكر من سأل الدخول فيه : قال وكتب علي بن هشام الى اسحاق بن ابراهيم الموصلي : ما أدري كيف أصنع أغيب فاشتاق وألتقي ولا أشتفي ثم يحدث لي اللقاء الذي طلبت منه الشفاء نوعا من الحرقة للوعة الفرقة : قال وكتب معقل إلى أبي دلف فلان جميل الحال عند الكرام فان أنت لم ترتبطه بفضلك عليه فعل غيرك . وكتب أبو هاشم الحربي إلى بعض الامراء : غرضي من الامير معوز والصبر على الحرمان معجز : وكتب آخر الى صديق له : أما بعد فقد أصبح لنا من فضل الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه وما ندري ما نشكر أجميل ما نشر أم كثير ما ستر أم عظيم ما أبلى أم كثير ما عفا غير انه يلزمنا في كل الامور شكره ويجب علينا حمده فاستزد الله في حسن بلائه كشكرك على حسن آلائه .

(ضده)

(قال الجاحظ) كتب ابن المراكبي إلى بعض ملوك بغداد : جعلت فداك برحمته : قال وقرأت على عنوان كتاب لابي الحسن الشمري :

للموت لنا قبلة : وقرأت أيضاً على عنوان كتاب : الى الذي كتب إلي

٤ ـ محاسن الجواب

قال : دخل رجل على كسرى أبرويز ، فشكا اليه عاملا غصبه على ضيعة له ، فقال له كسرى : منذ كم هي في يدك ؟ قال منذ أربعين سنة قال : فانت تأكلها اربعين سنة ما عليك أن يأكل عاملي منها سنة واحدة فقال : وما كان على الملك أن يأكل بهرام جور الملك سنة واحدة ؟ فقال : ادفعوا في قفاه فأخرجوه فلما خرج أمكنته التفاتة فقال : دخلت بمظلمة وخرجت بمظلمتين فقال كسرى : ردوه وأمر برد ضيعته وصيره في خاصته. ويقال : ان سعيد بن مرة الكندي حين أتى معاوية قال له : أنت سعيد قال : أمير المؤمنين سعيد ، وأنا ابن مرة . قال : ودخل السيد بن أنس الازدي على المأمون ، فقال : أنت السيد ؟ فقال : انت السيد يا أمير المؤمنين ، وأنا ابن أنس . قال : وقيل للعباس ابن عبد المطلب أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال هو عليه الصلاة والسلام أكبر مني وأنا ولدت قبله . قال : وقال الحجاج للمهلب أنا أطول أم أنت ؟ قال : الامير أطول وأنا أبسط قامة منه . قيل : ووقف المهدي على امرأة من بني ثعل فقال لها : ممن العجوز ؟ قالت من طيء ؟ قال ، ما منع طيئا أن يكون فيها آخر مثل حاتم قالت : الذي منع العرب أن يكون فيها آخر مثلك وأعجب بقولها ووصلها ، قيل : ولما استوثق أمر العراق لعبدالله بن الزبير وجه مصعب اليه وفداً فلما قدموا عليه قال لهم وددت أن لي بكل خمسة منكم رجلا من أهل الشام ، فقال رجل من أهل العراق : يا امير المؤمنين علقناك وعلقت بأهل الشام وعلق أهل الشام بآل مروان ، فما أعرف لنا مثلا إلا قول الأعشى :

عُلِّقتُها عَرَضاً وعُلِّقَتْ رَجُلاً غيري وعُلِّقَ أخرى غيرَها الرَّجلُ

فما وجدنا جوابا أحسن من هذا . قال : وقال مسلمة بن عبد الملك : ما شيء يؤتى العبد بعد الايمان بالله تعالى أحب إلي من جواب حاضر فان الجواب إذا انعقب لم يكن شيئاً .

(ضده)

قال اجتمع عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبرقان بن بدر وعمرو ابن الأهتم فذكر عمرو الزبرقان قال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله انه لمطعام جواد الكف مطاع في أدانيه شديد العارضة مانع لما وراء ظهره فقال الزبرقان : بأبي أنت وأمي يا رسول الله انه ليعرف مني أكثر من هذا ولكنه يحسدني ، فقال عمرو : والله يا نبي الله ان هذا لزمر المروءة ضيق العطن لئيم العم أحمق الخال ، فرأى الكراهية في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اختلف قوله ، فقال : يا رسول الله ما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الأخرى ولكني رضيت فقلت أحسن ما علمت وسخطت فقلت أسوأ ما أعلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكما) ، وذكروا أن الوليد بن عقبة قال لعقيل بن أبي طالب : غلبك علي الثروة والعدد . قال : وسبقني وإياك الى الجنة . قال الوليد : أما والله إن شدقيك لمتضمخان من دم عثمان ، قال عقيل : ما لك ولقريش ؟ وإنما أنت فيهم كمنيح الميسر ، فقال الوليد : والله إني لأرى لو أن أهل الأرض اشتركوا في قتله لوردوا صعودا ، فقال له عقيل : كلا أما ترغب عن صحبة أبيك . قال وقال رجل من قريش لخالد بن صفوان ما اسمك ؟ قال خالد بن صفوان ابن الاهتم ، قال : ان اسمك لكذب ما أنت بخالد وان أباك لصفوان

وهو حجر وان جدك لأهتم والصحيح خير من الأهتم ، قـال له خالد : من أي قريش أنت ؟ قال من عبـد الدار بن قصي بن كلاب ، قال : لقد هشمتك هاشم وأمتك أمية وجمحت بك جمح وخزمتك مخزوم وأقصتك قصي فجعلتك عبد دارها تفتح إذا دخلوا وتغلق اذا خرجـوا . قيـل : ومر الفرزدق فرأى خليفة الشاعر فقال له : يا أبا فراس من القائـل :

هُوَ القينُ وابْنُ القينِ لاقَينَ مِثْلَهُ
لِفطْـحِ المَساحِي أوْ لِجَذلِ الأداهِمِ

قال الفرزدق : الذي يقول :

هوَ اللِّصُّ وابْنُ اللِّصِّ لاَ لِصَّ مِثْلُهُ
لِنَقْبِ جِـدارٍ أوْ لِطَـرِّ الدَّراهِمِ

٥ـ محاسن حفظ اللسان

قال أكثم بن صيفي : مقتل الرجل بين فكيه ـ يعني لسانه ـ وقال : رب قول أشد من صول ، وقال : لكل ساقطة لاقطة ، وقال المهلب لبنيه : اتقوا زلة اللسان فاني وجدت الرجل تعثر قدمه فيقوم من عثرته ويزل لسانه فيكون فيه هلاكه . قال يونس بن عبيد : ليست خلة من خلال الخير تكون في الرجل هي أحرى أن تكون جامعـة لانواع الخير كلها من حفظ اللسان . وقال قسامة بن زهير : يا معشر الناس ان كلامكم أكثر من صمتكم فاستعينوا على الكلام بالصمت وعلى الصواب بالفكر . وكان يقال : ينبغي للعاقل أن يحفظ لسانه كما يحفظ موضع قدمه ومن لم

يحفظ لسانه فقد سلطه على هلاكه ، وقال الشاعر :

عَلَيكَ حِفظَ اللِّسانِ مُجتَهِداً   فإنّ جُلَّ الهَلاكِ في زَلَلِه

غـيره

وجُرحُ السَّيفِ تأسوه فيَبْرا   وجُرحُ الدَّهر ما جَرحَ اللِّسانُ

جِراحاتُ الطِّعان لَهَا التِئامٌ   ولاَ يَلتَامُ مـا جَرَحَ اللِّسانُ

غـيره

احفَظْ لِسانكَ لاَ تَقولُ فتبتَلي   إنّ البَلاءَ مُوَكَّلٌ بالمَنْطِقِ

غـيره

لَعَمْرُكَ ما شيءٌ عَلِمتُ مكانهُ   أحقُّ بِسِجْنٍ مِنْ لِسانٍ مُذَلَّلِ

عَلى فيكَ مِمّا لَيسَ يَعنيكَ قَولُهُ   بِقُفلٍ شَديدٍ حَيثُ ما كُنتَ فاَقفِلِ

قيل : تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأنما رميت عن قوس واحد : قال كسرى : أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت ، وقال ملك الهند : اذا تكلمت بكلمة ملكتني وإن كنت أملكها ، وقال قيصر : لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت ، وقال ملك الصين : عاقبة ما قد جرى به القول أشد من الندم على ترك القـول ، وقال بعضهم : من حماقة الانسان أن يكون الاستماع أحب اليه من النطق اذا وجد من يكفيه فانه لن يعدم الصمت والاستماع سلامة وزيادة في العلم ، وقال بعض الحكماء : من قدر على أن يقول فيحسن فانه قادر

على أن يصمت يحسن ، وقال بعضهم : كان ابن عبيدة الريحاني المتكلم الفصيح صاحب التصانيف يقول : الصمت أمان من تحريف اللفظ وعصمة من زيغ المنطق وسلامة من فضول القول ، وقال أبو عبيد الله كاتب المهدي : كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام ، وكان يقال : من سكت فسلم كان كمن قال فغنم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى يكره الانبعاق في الكلام يرحم الله امرأ أوجز في كلامه واقتصر على حاجته) ، قيل : وكلم رجل سقراط عند قتله بكلام أطاله فقال : أنساني أول كلامك طول عهده وفارق آخره فهمي لتفاوته ، ولما قدم ليقتل بكت امرأته فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت تقتل ظلماً قال : وكنت تحبين أن أقتل حقاً أو أقتل ظالماً . وشتم رجل المهلب فلم يجبه فقيل له : حلمت عنه فقال : ما أعرف مساويه وكرهت أن أبهته بما ليس فيه ، وقال سلمة بن القاسم عن الزبير قال : حملت الى المتوكل وأدخلت عليه فقال : يا أبا عبدالله الزم أبا عبدالله — يعني المعتز — حتى تعلمه من فقه المدنيين ، فأدخلت حجرة فاذا أنا بالمعتز قد أتى في رجله نعل من ذهب وقد عثر به فسال دمه فجعل يغسل الدم ، ويقول :

يُصابُ الْفَتَى مِنْ عثْرَةٍ بِلِسانِهِ
وَلَيْسَ يُصابُ المرءُ مِنْ عثْرَةِ الرِّجلِ

فعثْرَتُهُ مِنْ فيهِ تَرْمي بِرَأْسِهِ   وعثْرَتُهُ بالرِّجلِ تَبْرَا عَلى مَهْلِ

فقلت في نفسي : ضممت الى من أريد أن أتعلم منه .

(ضده)

سئل بعض الحكماء عن المنطق فقال : انك تمدح الصمت بالمنطق

ولا تمدح المنطق بالصمت وما عبر به عن شيء فهو أفضل منه ، وسئل آخر عنها فقال : أخزى الله الساكتة ما أفسدها للسان وأجلبها للعي وواله للمماراة في استخراج حق أهدم للعي من النار في يابس العرفج ، فقيل له : قد عرفت ما في المماراة من الذم ، فقال : ما فيها أقل ضرراً من السكتة التي تورث عللا وتولد داء أيسره العي ، وقال بعض الحكماء : اللسان عضو فان مرنته مرن وإن تركته حرن ، وممن أفرط في قوله فاستقيل بالحلم ، ما حكي عن شهرام المروزي فانه جرى بينه وبين أبي مسلم صاحب الدولة كلام فما زال أبو مسلم يحاوره الى أن قال له شهرام : يا لقطة فصمت أبو مسلم وندم شهرام على ما سبق به لسانه وأقبل معتذراً خاضعاً ومتنصلا ، فلما رأى ذلك أبو مسلم قال : لسان سبق ووهم أخطأ وانما الغضب شيطان والذنب لي ، لأني جرأتك على نفسي بطول احتمالي منك ، فان كنت معتمداً للذنب فقد شركتك فيه وان كنت مغلوبا فالعذر يسعك ، وقد غفرنا لك على كل حال ، قال شهرام : أيها الملك عفو مثلك لا يكون غروراً قال : أجل ، قال : وان عظيم ذنبي لن يدع قلبي يسكن ولج في الاعتذار ، فقال أبو مسلم : يا عجباً كنت تسيء وأنا أحسن ، فاذا أحسنت أسأت .

٦ ـ محاسن كتمان السر

قال : كان المنصور يقول : الملك يحتمل كل شيء من أصحابه الا ثلاثاً إفشاء السر والتعرض للحرم والقدح في الملك ، وكان يقول : سرك من دمك فانظر من تملكه ، وكان يقول : سرك لا تطلع عليه غيرك وإن من انفذ البصائر كتمان السر حتى يبرم المبروم ، وقيل لأبي مسلم : بأي شيء أدركت هذا الامر ؟ قال : ارتديت بالكتمان واتزرت بالحزم

وحالفت الصبر وساعدت المقادير فأدركت طلبتي وحزت بغيتي ، وأنشد في ذلك :

أدْرَكْتُ بالحَزْمِ والكِتْمانِ ما عَجَزَتْ
عَنْهُ مُلوكُ بَني مَرْوانَ إذْ حَشَدوا
ما زِلْتُ أسْعَى عَلَيْهِمْ في دِيارِهِمُ
والقَوْمُ في مُلْكِهِمْ بالشّامِ قَدْ رَقَدُوا
حتّى ضَرَبْتُهُمُ بالسَّيْفِ فانْتَبَهوا مِنْ نَوْمَةٍ لَمْ يَنَمْها قَبلَهُمْ أحَدُ
وَمَنْ رَعَى غَنَماً في أرْضِ مَسْبَعَةٍ ونامَ عَنْها تَوَلَّى رَعْيَها الأسَدُ

قال : وقال عبد الملك بن مروان للشعبي لما دخل عليه : جنبني خصالا أربعاً : لا تطريني في وجهي ولا تجرين على كذبة ولا تغتابن عندي أحداً ولا تفشين لي سراً . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (استعينوا على إنجاح حوائجكم بكتمان السر فان كل ذي نعمة محسود) وانشد اليزيدي في ذلك :

النَّجْمُ أقْرَبُ مِنْ سِرٍّ إذا اشْتَمَلَتْ
مِنّي عَلَى السِّرِّ أضْلاعٌ وأحْشاءُ

غيره

ونَفْسَكَ فاحفظْها ولاَ تُفْشِ لِلْعِدَى
مِنَ السِّرِّ ما يَطْوِي عَلَيْهِ ضَميرُهـا

فَما يَحفَظُ المَكتومَ مِنْ سرٍّ أهلِهِ
إذا عُقَدُ الأسرارِ ضاع كثيرُها
مِنَ القَوْمِ إلاَّ ذو عَفافٍ يُعينُهُ
عَلى ذاكَ مِنْهُ صِدْقُ نَفسٍ وخيرُها

قال معاوية بن أبي سفيان : أعنت على علي بن أبي طالب بأربع خصال : كان رجلا ظهرة علنة لا يكتم سرا وكنت كتوماً لسري وكان لا يسعى حتى يفاجئه الامر مفاجأة وكنت ابادر الى ذلك وكان في أخبث جند وأشدهم خلافا وكنت في أطوع جند واقلهم خلافاً وكنت احب الى قريش منه فنلت ما شئت فلله من جامع إلي ومفرق عنه . وكان يقال : لكاتم سره من كتمانه إحدى فضيلتين : الظفر بحاجته والسلامة من شره ، فمن احسن فليحمد الله وله المنة عليه ، ومن أساء فليستغفر الله . وقال بعضهم : كتمانك سرك يعقبك السلامة وإفشاؤك سرك يعقبك الندامة والصبر على كتمان السر أيسر من الندم على افشائه . وقال بعضهم : ما أقبح بالانسان أن يخاف على ما في يده من اللصوص فيخفيه ويمكن عدوه من نفسه باظهاره ما في قلبه من سر نفسه وسر أخيه ، ومن عجز عن تقويم أمره فلا يلومن إلا نفسه ان لم يستقم له . وقال معاوية : ما أفشيت سري الى أحد الا أعقبني طول الندم وشدة الأسف ولا أودعته جوانح صدري فحكمته بين أضلاعي إلا أكسبني مجداً وذكرا وسناء ورفعة فقيل : ولا ابن العاص قال : ولا ابن العاص . وكان يقول : ما كنت كاتمه من عدوك فلا تظهر عليه صديقك . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كتم سره كانت الخيرة في يده ومن عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن وضع أمر اخيك على احسنه ولا تظن بكلمة خرجت منه

سوءا ما كنت واجداً لها في الخير مذهبا وما كافأت من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله جل اسمه فيه وعليك باخوان الصدق فانهم زينة عند الرخاء وعصمة عند البلاء) . وحدث ابراهيم بن عيسى قال : ذاكرت المنصور ذات يوم في أبي مسلم وصونه السر وكتمه حتى فعل ما فعل ، فأنشد :

تقسَّمَني أمْرانِ لَمْ أفْتَتِحْهُما بحَزْمٍ ولَمْ تَعْرُكْهُما لِي الْكَراكِرُ
وما ساوَرَ الأحْشاءَ مِثْلُ دَفِينَةٍ مِنَ الهَمِّ رَدَّتْها إلَيكَ المَعاذِرُ
وَقَدْ عَلِمَتْ أفْناءُ عَدْنانَ أنَّني عَلى مِثْلِها مِقْدامَةٌ مُتَجاسِرُ

وقال آخر :

صُنِ السِّرَّ بالكِتْمانِ يُرْضِكَ غِبُّهُ فَقَدْ يَظْهَرُ السِّرُّ المُضِيعُ فَيَنْدَمُ
ولاَ تُفْشِيَنْ سِرّاً إلى غَيْرِ أهْلِهِ فَيَظْهَرُ خَرْقُ الشَّرِّ مِنْ حَيْثُ يُكْتَمُ
وما زِلْتُ في الكِتْمانِ حَتَّى كَأنَّني
بِرَجْعِ جَوابِ السَّائِلي عَنْهُ أعْجَمُ
لِتَسْلَمَ مِنْ قَوْلِ الوُشاةِ وَتَسْلَمِي
سَلِمْتِ وَهَلْ حَيٌّ عَلَى الدَّهْرِ يَسْلَمُ

وقال آخر :

أمِنِّي تَخافُ انْتِشارَ الحَديثِ وَحَظِّيَ في سَتْرِهِ أوْفَرُ
وَلَوْ لَمْ أصُنْهُ لِبُقْيا عَلَيكَ نَظَرْتُ لِنَفْسي كَما تَنْظُرُ

وقال أبو نواس :

لَا تُفْشِ أَسْرارَكَ لِلنّاسِ ... وداوِ أَحزانَكَ بالكاسِ
فإنَّ إبليسَ على ما بِهِ ... أَرْأَفُ بالنّاسِ مِنَ النّاسِ

وقال المبرد : أحسن ما سمعت في حفظ اللسان والسر ما روى لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

لَعَمْرُكَ إنَّ وُشاةَ الرِّجا ... لِ لا يَتْرُكونَ أَديماً صَحيحا
فلا تُبدِ سِرَّكَ إلاّ إليكَ ... فإنَّ لِكُلِّ نَصيحٍ نَصيحا

وقال العتبي :

ولي صاحبٌ سِرِّي المُكَتَّمُ عِنْدَهُ ... مَحاريقُ نيرانٍ بليلٍ تُحَرَّقُ
غَدَوْتُ على أسرارِهِ فكَسَوْتُها ... ثياباً مِنَ الكِتْمانِ ما تَتَخَرَّقُ
فمَنْ كانتِ الأسرارُ تَطْفو بِصَدْرِهِ ... فأسرارُ صَدْري بالأحاديثِ تُغْرَقُ
فَلا تودِعَنَّ الدَّهرَ سِرَّكَ أحمقاً ... فإنَّك إنْ أودَعْتَهُ مِنْهُ أَحْمَقُ
وحَسْبُكَ في سَتْرِ الأحاديثِ واعِظاً ... مِنَ القَوْلِ ما قالَ الأديبُ المُوَفَّقُ
إذا ضاقَ صَدْرُ المَرْءِ عَنْ سِرِّ نَفْسِهِ ... فَصَدْرُ الذي يُسْتَوْدَعُ السِّرَّ أَضْيَقُ

وقال آخر :

لا يَكْتُمُ السِّرَّ إلاّ كُلُّ ذي خَطَرٍ ... فالسِّرُّ عِنْدَ كِرامِ النّاسِ مَكْتومُ

وَالسِّرُّ عِنْدِي فِي بَيْتٍ لَهُ غَلَقٌ قَدْ ضَاعَ مِفْتَاحُهُ وَالبَابُ مَرْدُومُ

قيل : دخل أبو العتاهية على المهدي وقد ذاع شعره في عتبة ، فقال : ما أحسنت في حبك ولا اجملت في إذاعة سرك ، فقال :

مَنْ كَانَ يَزْعُمُ أَنْ سَيَكْتُمُ حُبَّهُ

أَوْ يَسْتَطِيعُ السِّتْرَ فَهُوَ كَذُوبُ

الْحُبُّ أَغْلَبُ لِلرِّجَالِ بِقَهْرِهِ مِنْ أَنْ يُرَى لِلسِّرِّ فِيهِ نَصِيبُ

وَإِذَا بَدَا سِرُّ اللَّبِيبِ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْدُ إِلاَّ وَالْفَتَى مَغْلُوبُ

إِنِّي لأَحْسُدُ ذَا هَوًى مُسْتَحْفِظًا لَمْ تَتَّهِمْهُ أَعْيُنٌ وَقُلُوبُ

فاستحسن المهدي شعره وقال : قد عذرناك على إذاعة سرك ووصلناك على حسن عذرك ان كتمان السر أحسن من إذاعته . وقال زياد : لكل مستشير ثقة وان الناس قد ابتدعت بهم خصلتان : اذاعة السر ، وترك النصيحة ، وليس للسر موضع إلا أحد رجلين : إما أخروي يرجو ثواب الله ، أو دنياوي له شرف في نفسه وعقل يصون به حسبه وهما معدومان في هذا الدهر . وقال المهلب : ما ضاقت صدور الرجال عن شيء كما تضيق عن السر ، كما قال الشاعر :

وَلَرُبَّمَا كَتَمَ الْوَقُورُ فَصَرَّحَتْ حَرَكَاتُهُ لِلنَّاسِ عَنْ كِتْمَانِهِ

وَلَرُبَّمَا رُزِقَ الْفَتَى بِسُكُوتِهِ وَلَرُبَّمَا حُرِمَ الْفَتَى بِبَيَانِهِ

وقال آخر :

إذا أنتَ لمْ تحفظْ لِنفسِكَ سِرَّها فسِرُّكَ عِنْدَ الناسِ أفشى وأضيعُ

وقال آخر :

لِساني كَتومٌ لأسرارِكُمْ ودَمعي نَمومٌ لِسرِّي مُذيعُ
فلولاَ الدُّموعُ كَتَمْتُ الهوى
ولولا الهوى لمْ تكُنْ لي دُموعُ

٧ ـ محاسن المشورة

يقال : اذا استخار الرجل ربه واستشار نصيحه واجتهد فقد قضى ما عليه ويقضي الله في أمره ما يحب . وقال آخر : حسن المشورة من المشير قضاء حق النعمة . وقيل : اذا استشرت فانصح ، واذا قدرت فاصفح . وقيل : من وعظ أخاه سراً زانه ومن وعظه جهراً شانه . وقال آخر : الاعتصام بالمشورة نجاة . وقال آخر : نصف عقلك مع أخيك فاستشره . وقال آخر : اذا أراد الله لعبد هلاكا أهلكه برأيه . وقال آخر : المشورة تقوم اعوجاج الرأي . وقال : إياك ومشورة النساء فان رأيهن الى أفن وعزمهن الى وهن .

(ضده)

قال بعض أهل العلم : لو لم يكن في المشورة الا استضعاف صاحبك لك وظهور فقرك اليه لوجب اطراح ما تفيده المشورة والقاء ما يكسبه الامتنان ، وما استشرت أحداً إلا كنت عند نفسي ضعيفاً وكان عندي

قوياً ، وتصاغرت له ودخلته العزة ، فاياك والمشورة وان ضاقت بـك المذاهب واختلفت عليك المسالك وأداك الاستبهام الى الخطأ الفادح ، فان صاحبها أبدا مستذل مستضعف ، وعليك بالاستبداد فان صاحبه أبداً جليل في العيون مهيب في الصدور ، ولن تزال كذلك ما استغنيت عن ذوي العقول فاذا افتقرت اليها حقرتك العيون ورجفت بك أركانك وتضعضع بنيانك وفسد تدبيرك واستحقرك الصغير واستخف بك الكبير وعرفت بالحاجة اليهم . وقيل : نعم المستشار العلم ونعم الوزير العقل . وممن اقتصر على رأيه دون المشورة الشعبي فانه خرج مع ابن الأشعث فقدم به على الحجاج فلقيه يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج فقال له : أشر علي فقال : لا أدري بما أشير ولكن اعتذر بما قدرت عليه وأشار بذلك عليه كافة أصحابه ، قال الشعبي : فلما دخلت خالفت مشورتهم ورأيت والله غير الذي قالوا فسلمت عليه بالامرة ثم قلت : أيد الله الأمير ان الناس قد أمروني أن أعتذر بغير ما يعلم الله انه الحق والك الله ان لا أقول في مقامي هذا إلا الحق قد جهدنا وحرضنا فما كنا بالاقوياء الفجرة ولا الأتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وإن عفوت فبحلمك والحجة لك علينا ، فقال الحجاج : أنت والله أحب الينا قولا ممن يدخل علينا وسيفه يقطر من دمائنا ويقول والله ما فعلت ولا شهدت أنت آمن يا شعبي ، فقلت : أيها الامير اكتحلت والله بعدك السهر واستحلست الخوف وقطعت صالح الاخوان ولم أجد من الامير خلفا قال : صدقت ، وانصرفت .

٨ ـ محاسن الشكر

قال بعض الحكماء : صن شكرك عمن لا يستحقه واسترماء وجهك بالقناعة . وقال الفضل بن سهل : من أحب الازدياد من النعم فليشكر ومن

أحب المنزلة فليكف ومن أحب بقاء عزه فليسقط دالته ومكره . ومن ذلك قول رجل لرجل شكره في معروف :

لَقَدْ ثَبَتَتْ في الْقَلْبِ مِنْـك مَوَدَّةٌ

كَـما ثَبَتَتْ في الرَّاحَتَيْنِ الأَصابعُ

قال : واصطنع رجل رجلا فسأله يوماً أتحبني يا فلان قال : نعم أحبك حبا لو كان فوقك لأظلك أو كان تحتك لأقلك . وقال كسرى أنوشروان : المنعم أفضل من الشاكر لأنه جعل له السبيل الى الشكر . واختصر حبيب ابن أوس هذا في مصراع واحد فقال :

لهـانَ عَلَـيْنا أنْ نَقولَ و تَفْعَلا

الباهلي عن أبي فروة قال : مكتوب في التوراة : اشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك فانه لا زوال للنعم اذا شكرت ولا اقامة لها اذا كفرت والشكر زيادة في النعم وأمان من الغير ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خمس تعاجل صاحبهن بالعقوبة : (البغي والغدر وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم ومعروف لا يشكر) ، وأنشد الحطيئة عمر وكعب الاحبار عنده :

مَنْ يفْعَـلِ الْخيْرَ لاَ يَعْدَمْ جَوازِيَهُ

لا يذْهَبُ العُرْفُ بيْنَ اللهِ والنّـاسِ

فقال كعب : يا أمير المؤمنين من هذا الذي قال هذا هو مكتوب في التوراة ؟ فقال عمر : كيف ذلك ؟ قال في التوراة مكتوب : من يصنع

الخير لا يضيع عندي لا يذهب العرف بيني وبين عبدي . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا الاجتهاد ، فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً . وفي الحديث (ان رجلا قال في الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اللهم ربنا لك الحمد حمداً مباركاً طيباً زكياً فلما انصرف صلى الله عليه وسلم قال أيكم صاحب الكلمة قال أحدهم أنا يا رسول الله فقال لقد رأيت سبعة وثلاثين ملكا يبتدرون أيهم يكتبها أولا) وقيل : نسيان النعمة أول درجات الكفر ، وقال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : المعروف يكفر من كفره لانه يشكرك عليه أشكر الشاكرين ، وقد قيل في ذلك :

يدُ المَعروفِ غَنمٌ حيثُ كانَت ... تحمَّلَها كَفورٌ أمْ شكورُ
فعِندَ الشاكِرينَ لهَا جزاءٌ ... وعِندَ اللهِ ما كَفرَ الكَفورُ

وقال بعض الحكماء : ما أنعم الله على عبد نعمة فشكر عليها الا ترك حسابه عليها ، وقال بعض الحكماء : عند التراخي عن شكر النعم تحل عظائم النقم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول لعائشة ما فعل بيتك فتنشده

يَجزيكَ أوْ يُثني عَليكَ وإنْ مَن
أثنى عَليْكَ بِما فعلتَ كَمنْ جزَى

فيقول صلى الله عليه وسلم : صدق القائل يا عائشة إن الله إذا أجرى على يد رجل خيراً فلم يشكره فليس لله بشاكر ، وقيل لذي الرمة : لم خصصت بلال بن أبي بردة بمدحك ؟ قال : لأنه وطأ مضجعي وأكرم مجلسي وأحسن صلتي فحق لكثير معروفه عندي ان يستولي على شكري .

ومنهم من يقدم ترك مطالبة الشكر وينسبه الى مكارم الاخلاق ، من ذلك ما قاله بزرجمهر . من انتظر بمعروفه شكرك عاجل المكافأة ، وقال بعض الحكماء : إن الكفر يقطع مادة الانعام فكذلك الاستطالة بالصنيعة تمحق الأجر ، وقال علي بن عبيدة : من المكارم الظاهرة وسنن النفس الشريفة ترك طلب الشكر على الاحسان ورفع الهمة عن طلب المكافأة واستكثار القليل من الشكر واستقلال الكثير مما يبذل من نفسه . وفصل من كتاب ولست أقابل اياديك ولا أستديم احسانك إلا بالشكر الذي جعله الله للنعم حارساً وللحق مؤديا وللمزيد سبباً .

(ضده)

قال بعض الحكماء : المعروف الى الكرام يعقب خيراً والى اللئام يعقب شراً ومثل ذلك مثل المطر يشرب منه الصدف فيعقب لؤلؤا وتشرب منه الافاعي فيعقب سماً . وقال سفيان : وجدنا اصل كل عداوة اصطناع المعروف الى اللئام . وقال : أثار جماعة من الاعراب ضبعا فدخلت خباء شيخ منهم فقالوا أخرجها ، فقال : ما كنت لأفعل وقد استجارت بي فانصرفوا وقد كانت هزيلا فأحضر لها لقاحا وجعل يسقيها حتى عاشت فنام الشيخ ذات يوم فوثبت عليه فقتلته . فقال شاعرهم في ذلك :

وَمَنْ يَصْنَعِ المَعروفَ في غيْرِ أهْلِهِ
يُلاقي الذي لاقىٰ مُجيرُ أمِّ عامِرِ
أقامَ لهَا لمَّا أناخَتْ ببابِهِ ... لِتَسْمَنَ ألبانَ اللِّقاحِ الدَّرائِرِ
فأسْمَنَها حتَّى إذا ما تَمكَّنَتْ ... فَرَتْهُ بِأنيابٍ لهَا وأظافِرِ

فقُلْ لِذوِي المَعْروفِ هذا جَزاءُ مَنْ ... يَجُودُ بإحسانٍ إلى غيرِ شاكِرِ

قيل : وأصاب أعرابي جرو ذئب فاحتمله الى خبائه وقرب له شاة فلم يزل يمتص من لبنها حتى سمن و كبر ثم شد على الشاة فقتلها . فقال الاعرابي يذكر ذلك :

غَذَتْكَ شُوَيْهَتِي و نشأْتَ عِنْدي ... فمَنْ أدْراكَ أنَّ أباكَ ذِيبُ
فَجَعْتَ نُسَيَّةً وصِغارَ قَومٍ ... بشاتِهمُ وأنْتَ لَها رَبيبُ
إذَا كانَ الطِّباعُ طِباعَ سَوْءٍ ... فلَيْسَ بنافِعٍ أدَبُ الأديبُ

وفي المثل — سمن كلبك يا كلك — وأنشد :

هُمُ سَمَّنُوا كَلْباً لِيأْكُلَ بَعْضَهُمْ ... ولَوْ عَلِموا بالحَزْمِ ما سَمَّنُوا كَلْبا

وقال آخر :

وإنّي وقَيْساً كالمُسَمِّنِ كَلْبَهُ ... فَخَدَّشَهُ أنيابُهُ وأظافِرُه

ويضرب المثل بسنمار ، وكان بنى للنعمان بن المنذر الخورنق فأعجبه وكره أن يبني لغيره مثله فرمى به من أعلاه فمات ، فقيل فيه :

جزَيْنا بَني سَعْدٍ بِحُسْنِ بَلائِهِمْ ... جَزاءَ سِنِمَّارٍ وما كانَ ذا ذَنْب

وقال بشار : (١)

أُثْنِي عَلَيْكَ ولي حالٌ تُكَذِّبُني ... فِيما أقولُ فأسْتَحْيِي مِنَ النّاسِ

(١) — المشهور أن الابيات لابي العتاهية . وأولها :

يا ابن العلاء ويا ابن القرم مرداس ... اني أتيتك في صحي وجلاسي

قَدْ قُلتُ إنَّ أَبا حفصٍ لأكْرَمُ مَنْ
يَمْشي فَخاصمَني في ذاكَ إفلاسِي
حتَّى إذا قيلَ ما أعطاكَ مِنْ صَفَدٍ
طأطأتُ مِنْ سوءِ حالي عِندَها راسِي

ولابي الهول :

كأنّي إذْ مَدَحْتُكَ يا ابْنَ مَعْنٍ
رَآني النّاسُ في رَمَضانَ أزْني
فإنْ أكُ رُحْتُ عَنْكَ بِغيْرِ شَيْءٍ
فلا تَفرحْ كَذلكَ كانَ ظَنّي

وقال آخر :

لَحَى اللهُ قوماً أعجبتْهُمْ مَدائحِي
فقالوا مَقالاً في مَلامٍ وفي عَتْبِ
أبا حازمٍ تَمْدحْ، فقُلْتُ مُعَذِّراً
هَبوني امْرأً جرَّبْتُ سَيفي عَلَى كَلبِ

وقال آخر :

عُثْمانُ يَعلَمُ أنَّ الحَمْدَ ذو ثَمَنٍ
لَكِنَّهُ يَشْتَهي حَمْداً بِمَجّانِ
والنَّاسُ أكْيَسُ مِنْ أنْ يَمْدَحوا رَجُلاً
حَتَّى يَرَوْا عِنْدَهُ آثارَ إحْسانِ

وقال آخر :

يُحِبُّ المَديحَ أبو خالدٍ
ويَغضَبُ مِنْ صِلةِ المادِحِ

كَبِكْرٍ تُحِبُّ لذيذَ النكاحِ وتَجزَعُ مِنْ صَولةِ النَّاكِحِ

وقال آخر :

ولو كانَ يستغني عنِ الشُّكرِ سيِّدٌ لِعزَّةِ مُلْكٍ أوْ عُلُوٌّ مَكانِ
لمَا أمَرَ اللهُ العِبادَ بشُكْرِهِ فقالَ أشكُرُوني أيُّها الثَّقْلانِ

٩ ـ محاسن الصدق

قال بعض الحكماء : عليك بالصدق فما السيف القاطع في كف الرجل الشجاع بأعز من الصدق ، والصدق عز وإن كان فيه ما تكره ، والكذب ذل وإن كان فيه ما تحب ، ومن عرف بالكذب اتهم في الصدق . وقيل : الصدق ميزان الله الذي يدور عليه العدل ، والكذب مكيال الشيطان الذي يدور عليه الجور . وقال ابن السماك : ما أحسبني أوجر على ترك الكذب لأني أتركه أنفة . وقال آخر : لو لم يترك العاقل الكذب إلا مروءة لكان بذلك حقيقاً ، فكيف وفيه المأثم والعار . وقال الشعبي : عليك بالصدق حيث ترى أنه يضرك فانه ينفعك ، واجتنب الكذب حيث ترى أنه ينفعك فانه يضرك . وقال بعضهم : الصدق عز والكذب خضوع . ومدح قوم بالصدق منهم أبو ذر رضي الله عنه فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء ، ولا طلعت الشمس على ذي لهجة أصدق من أبي ذر) . ومنهم العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فانه روى أنه اطلع على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده جبريل فقال له جبريل : هذا عمك العباس قال : نعم ، قال ان الله تعالى : يأمرك أن تقرأ عليه السلام وتعلمه أن اسمه عند الله الصادق وأن له شفاعة يوم القيامة ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فتبسم

فقال : ان شئت أخبرتك مما به تبسمت ، وان شئت أن تقول نقــل ، فقال : بل تعلمني يا رسول الله ، فقال : لأنك لم تحلف يمينا في جاهليـــة ولا اسلام برة ولا فاجرة ، ولم تقل لسائل : لا قـــال : والذي بعثك بالحق نبياً ما تبسمت إلا لذلك . ويروى أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ، اني أستسر بخلال الزنا والسرقة وشرب الخمر والكذب فأيهن أحببت تركته ، قال : دع الكذب فمضى الرجل فهم بالزنا ، فقال : يسألني رسول الله ﷺ ، فان جحدت نقضت ما جعلته له ، وان أقررت حددت فلم يزن ، فهم بالسرقة وشرب الخمر ، ففكر في ذلك فرجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : قد تركتهن أجمع . فأما مـــن رخص له في الكذب فيروى عن رسول الله ﷺ أنه قـــال : (لا يصلح الكذب إلا في ثلاث : كذب الرجل لاهله ليرضيها وكذب في إصلاح ما بين الناس وكذب في حرب) . وروى عن المغيرة بن ابراهيم أنه قال : لم يرخص لأحد في الكذب إلا للحجاج بن علاط فانه لما فتحت خيبر قال يا رسول الله : ان لي عند امرأة من قريش وديعة فأذن لي يا رسول الله أن أكذب عليك كذبة لعلي أستل وديعتي فرخص له في ذلك فقدم مكة فأخبرهم أنه ترك رسول الله ﷺ أسيراً في أيديهم يأتمرون فيه فقائل يقول : يقتل وقائل يقول : لا بل يبعث به إلى قومه فتكون منـــة ، فجعـــل المشركون يتباشرون بذلك ويؤنسون العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم والعباس يريهم التجمل ، وأخذ الرجل وديعته فاستقبله العباس وقال : ويحك ما الذي أخبرت به ؟ فأعلمه السبب ، ثم أخـــبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فتح خيبر ونكح صفية بنت حيي بن أخطب وقتل زوجها وأباها ، ثم قال : أكتم علي اليوم وغداً حتى أمضي نفعل ذلك : فلما مضى يومان أخبرهم العباس بالذي أخبره ، فقالوا : من أخبرك بهذا ؟ قال من أخبركم بضده .

(ضده)

قيل : وجد في بعض كتب الهند ليس لكذوب مروءة ، ولا لضجور رياسة ، ولا لملول وفاء ، ولا لبخيل صديق . وقال قتيبة بن مسلم : لا تطلبن الحوائج من كذوب ، فانه يقربها وإن كانت بعيدة ، ويبعدها وإن كانت قريبة ، ولا الى رجل قد جعل المسألة مأكلة فانه يقدم حاجته قبلها ويجعل حاجتك وقاية لها ، ولا إلى أحمق فانه يريد نفعك فيضرك . وقيل : أمران لا ينفكان من كذب : كثرة المواعيد وشدة الاعتذار . وقيل : كفاك موبخاً على الكذب علمك بانك كاذب . وقال رجل لأبي حنيفة : ما كذبت قط قال : أما هذه فواحدة . وفي المثل هو أكذب من أخيذ السند ، وذلك أنه يؤخذ الخسيس منهم فيزعم أنه ابن الملك . وكذلك يقال : أكذب من سياح خراسان ، لأنهم يجتازون في كل بلد ، ويكذبون للسؤال والمسأله . ويقال : هو أكذب من الشيخ الغريب ، وذلك أنه يتزوج في الغربة وهو ابن سبعين سنة فيزعم أنه ابن أربعين . ويقال : هو أكذب من مسيلمة وبه يضرب المثل . ومما قيل في ذلك من الشعر :

حَسْبُ الْكَذوبِ مِنَ الْبَلِيَّةِ   بَعْضُ ما يُحْكَى عَلَيْهِ
ما إنْ سَمِعْتُ بِكَذْبَةٍ   مِنْ غَيْرِهِ نُسِبَتْ إلَيْهِ

وقال آخر :

لَقدْ أخْلَفْتَني وحَلَفْتَ حَتّى   إخالُكَ قَدْ كَذَبْتَ وإنْ صَدَقْتا
ألاَ لاَ تَحْلِفَنَّ على كَلامٍ   فأكْذَبُ ما تكونُ إذا حَلَفْتا

وقال آخر :

قَدْ كُنْتُ أُنجِزُ دَهراً ما وَعَدْتُ الى
أنْ أتلَفَ الوَعْدُ ما جَمَّعْتُ مِنْ نَشَبِ
فإنْ أكن صِرْتُ في وَعدِي أخا كذِبِ
فَنُصْرَةُ الصِّدْقِ أفضَتْ بِي إلى الكَذِبِ

قال الاصمعي : قال الخليل بن سهل : يا أبا سعيد أعلمت أن طول رمح رستم كان سبعين ذراعا من حديد مصمت في غلظ الراقود ، فقلت ها هنا أعرابي له معرفة فاذهب بنا اليه نحدثه بهذا ، فذهبت به إلى الأعرابي فحدثه ، فقال الأعرابي : قد سمعت بذلك ، وبلغنا أن رستم هذا كان هو واسفنديار أتيا لقمان بن عاد بالبادية فوجداه نائما ورأسه في حجر أمه فقالت لهما : ما شأنكما ، فقالا : بلغنا شدة هذا الرجل فأتيناه فانتبه فزعا من كلامهما فنفخهما فألقاهما إلى أصبهان فقبرهما اليوم بها ، فقال الخليل: قبحك الله ما أكذبك قال : يابن أخي ما بيننا شيئاً إلا وهو دون الراقود . قيل : وقدم بعض العمال من عمل فدعا قوما الى طعامه وجعل يحدثهم بالكذب ، فقال بعضهم : نحن كما قال الله عز وجل « سماعون للكذب أكالون للسحت » . قيل : وكان رجال من أهل المدينة من بين فقيه وراوية وشاعر يأتون بغداد فيرجعون بحظوة وحال حسنة فاجتمع عدة منهم فقالوا لصديق لهم لم يكن عنده شيء من الأدب : لو أتيت العراق فلعلك أن تصيب شيئاً ، قال : أنتم أصحاب آداب تلتمسون بها ، فقالوا : نحن نحتال لك فأخرجوه ، فلما قدم بغداد طلب الاتصال بعلي ابن يقطين وشكا اليه الحاجة فقال : ما عندك من الأدب ؟ فقال : ليس عندي من الأدب شيء غير اني أكذب الكذبة وأخيل الى من يسمعها اني صادق ، وكان ظريفا مليحا فأعجب به وعرض عليه مالا فابى أن يقبله

وقال ما أريد منك الا أن تسهل أذني وتدني مجلسي قال : ذاك لك ، وكان من أقرب الناس اليه مجلسا حتى عرف بذلك . وكان المهدي قد غضب على رجل من القواد واستصفى ماله ، وكان يختلف الى علي بن يقطين رجاء أن يكلم له المهدي ، وكان يرى قرب المديني ومكانه من علي فأتى المديني القائد عشياً فقال : ما البشرى قال : لك البشرى وحكمك قال : أرسلني علي بن يقطين اليك وهو يقرئك السلام ويقول : قد كلمت أمير المؤمنين في أمرك ورضي عنك وأمر برد مالك وضياعك ويأمرك بالغدو اليه لتغدو معه الى أمير المؤمنين متشكراً ، فدعا له الرجل بألف دينار وكسوة وحملان وغدا على علي مع جماعة من وجوه العسكر متشكرا، فقال له علي : وما ذاك ؟ قال : أخبرني ابو فلان – وهو الى جنبه – كلامك امير المؤمنين في أمري ورضاه عني فالتفت الى المديني وقال : ما هذا ؟ فقال : أصلحك الله هذا بعض ذلك المتاع نشرناه فضحك علي وقال: علي بدابتي وركب الى المهدي وحدثه الحديث فضحك المهدي وقال : إنا قد رضينا عن الرجل ورددنا عليه ماله ، وأجرى على المديني رزقا واسعاً واستوصى به خيراً ثم وصله ، وكان يعرف بكذاب أمير المؤمنين .

١٠ – محاسن العفو

قيل : أسر مصعب بن الزبير رجلا من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه فقال : أيها الامير ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة الى صورتك هذه الحسنة فأتعلق بأطرافك وأقول : رب سل مصعبا فيم قتلني فقال : أطلقوه، فقال : أيها الامير اجعل ما وهبت لي من عمري في خفض عيش ، فقال : اعطوه مائة ألف درهم . قال : بأبي أنت وأمي أشهدك أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفا قال : لم ؟ قال : لقوله فيك :

إنَّما مُصْعَبٌ شِهابٌ مِنَ اللّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْماءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ رَأْفَةٍ لَيْسَ فيهِ جَبَروتٌ ولا لَهُ كِبْرِياءُ

فضحك مصعب وقال : لقد تلطفت وان فيك لموضعا للصنيعة ، وأمر له بالمائة ألف ، ولابن قيس الرقيات بخمسين ألف درهم . قيل : وأمر الرشيد يحيى بن خالد بحبس رجل جنى جناية فحبسه ، ثم سأل عنه الرشيد فقيل : هو كثير الصلاة والدعاء ، فقال الموكل به : عرض له بان تكلمني وتسألني اطلاقه فقال له الموكل ذلك ، فقال : قل لأمير المؤمنين إن كل يوم يمضي من نعمتك ينقص من محنتي ، والامر قريب ، والموعد الصراط ، والحاكم الله فخر الرشيد مغشياً عليه ثم أفاق وأمر باطلاقه . وقيل ظفر المأمون برجل كان يطلبه ، فلما دخل عليه قال : يا عدو الله أنت الذي تفسد في الأرض بغير الحق يا غلام خذه اليك فاسقه كاس المنية ، فقال : يا أمير المؤمنين ان رأيت ان تستبقيني حتى أؤيدك بمال قال لا سبيل الى ذلك فقال : يا أمير المؤمنين فدعني أنشدك أبياتاً قال هات فانشده :

زَعَموا بأَنَّ البازَ عَلَّقَ مَرَّةً عُصْفورَ بَرٍّ ساقَهُ المَقْدورُ
فَتَكَلَّمَ العُصْفورُ تَحْتَ جَناحِهِ والبازُ مُنْقَضٌّ عَلَيْهِ يَطيرُ
ما بي لِمَا يُغْني لِمِثْلِكَ شَبْعَةً وَلَئِنْ أُكِلْتُ فَإِنَّني لَحَقيرُ
فَتَبَسَّمَ البازُ المُدِلُّ بِنَفْسِهِ كَرَماً وأَطْلَقَ ذلِكَ العُصْفورُ

فقال له المأمون : أحسنت ما جرى ذلك على لسانك الا لبقية بقيت من عمرك فأطلقه وخلع عليه ووصله . وعن بعضهم أن والياً أتى برجل جني جناية فأمر بضربه فلما مد قال : بحق رأس أمك الا ما عفوت عني ؟ قال : أوجع فقال : بحق خديها ونحرها قال : اضرب قال بحق ثدييها

قال : اضرب قال : بحق سرتها قال : ويلكم دعوه لا ينحدر قليلا . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (إن الرجل اذا ظلم فلم ينتصر ولم يجد من ينصره فرفع طرفه إلى السماء ودعا قال الله له لبيك عبدي أنصرك عاجلا وآجلا) . وقال صلى الله عليه وسلم في قولهم : أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، وقد سئل عن ذلك فقيل : أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً ؟ فقال : تمنعه من الظلم فذلك نصرك اياه ، وقال فضيل بن عياض : بكى أبي فقلت : ما يبكيك ؟ فقال : أبكي على ظالمي ومن أخذ مالي أرحمه غداً اذا وقف بين يدي الله عز وجل وسأله فلا تكون له حجة . وقال الحسن البصري : أيها المتصدق على السائل يرحمه ارحم أولا من ظلمت . وروى عن عبدالله بن سلام قال : قرأت في بعض الكتب : قال الله عز وجل «إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني» . قال خالد بن صفوان : إياكم ومجانيق الضعفاء (يعني الدعاء) .

(ضده)

قيل : لما قالت التغلبية للجحاف بن حكيم السلمي في وقعته بالبشر قوض الله عمادك وأطال سهادك وأقل رقادك فوالله ان قتلت الا نساء أسافلهن دمي وأعاليهن ندي ، قال لمن حوله : لولا ان تلد مثلها لخليت سبيلها فبلغ ذلك الحسن البصري فقال : أما الجحاف فجذوة من نار جهنم. قال ولما بنى زياد بناء البصرة أمر أصحابه أن يسمعوا من أفواه الناس فأتى برجل تلا آية «أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ» قال : وما دعاك الى هذا ؟ قال : آية من كتاب الله عز وجل خطرت على بالي فتلوتها والله لأعملن فيك بالآية الثانية «وإذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ» ثم أمر به فبنى عليه ركن من أركان القصر . قال وبعث زياد الى رجل من بني تميم فقال : أخبروني بصلحاء

كل ناحية فأخبروه فاختار منهم رجالا فضمنهم الطريق ، وقـال لو ضاع بيني وبين خراسان حبل لعلمت من لقطه . وكان يدفن الناس أحياء وينزع أضلاع اللصوص . قال : وقال عبد الملك للحجاج كيف تسير في الناس ؟ قال : انظر الى عجوز أدركت زيادا فاسألها عن سيرته فاعمل بها ، فاخذ والله بسنته حتى ما ترك منها شيئاً . وذكروا أن الحجاج لما أتى المدينة ارسل الى الحسن بن الحسن رضي الله عنه : فقال هات سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه قال : لا افعل قال : فجـاء الحجاج بالسيف والسوط فقال : والله لأضربنك بهذا السوط حتى أقطعه ، ثم لأضربنك بهذا السيف حتى تبرد أو تأتيني بهما ؛ فقال الناس : يا أبا محمد لا تعرض لهذا الجبار قال : فجاء الحسن بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه فوضعهما بين يدي الحجاج ، فأرسل الحجاج الى رجل من بني أبي رافـع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : هل تعرف سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، فخلطه بين اسيافه ثم قال : أخرجه ، ثم جاء بالدرع فنظر اليها ، ثم قال : هناك علامة كانت عـلى الفضل بن العباس يوم اليرموك فطعن بحربة فخرقت الدرع فعرفناها ، فوجد الدرع على ما قال فقال الحجاج : أما والله لو لم تجئني به وجئت بغيره لضربت به رأسك . وذكروا أن الحجاج قال ذات ليلة لحاجبه : أعسس بنفسك فمن وجدته فجئني به فلما أصبح أتاه بثلاثة فقال : أصلح الله الأمير مـا وجدت إلا هؤلاء الثلاثة ، فقال الحجاج لواحد منهم : مـا كان سبب خروجك بالليل وقد نادى المنادي أن لا يخرج أحد بالليل قال : أصلح الله الأمير كنت سكران فغلبني السكر فخرجت ولا أعقل ، ففكر ساعة ثم قال : سكران غلبه سكره خلوا عنه لا تعودن ، ثم قال للآخر : فأنت ما كان سبب خروجك ؟ قال : أصلح الله الأمير كنت مع قوم في مجلس يشربون فوقعت بينهم عربدة فخفت على نفسي فخرجت ، ففكر الحجاج ساعة فقال : رجل أحب المسالمة خلوا عنه ، ثم قال للآخر ما كان سبب

خروجك ؟ فقال : لي والدة عجوز وأنا رجـــل حمـــال فرجعت الى بيتي فقالت والدتي : ما ذقت الى هذا الوقت طعاما ولا ذواقا فخرجت ألتمس لها ذلك فأخذني العسس ، ففكر ساعة ثم قال : يا غلام أضرب عنقه فاذا رأسه بين رجليه .

١١ ـ محاسن الصبر على الحبس

قال الكسروي : وقع كسرى بن هرمز الى بعض المحبسين : من صبر على النازلة كان كمن لم تنزل به ، ومن طول في الحبل كان فيه عطبه ، ومن أكل بلا مقدار تلفت نفسه . قيل ودخل ابن الزيات على الافشين وهو محبوس فقال يخاطبه :

اصبِرْ لهَـا صَبْرَ أقْوامٍ نُفوسُهُمُ　　　لا تَستَريحُ إلى عَقْلٍ ولا قَوَدِ

فقال الافشين : من صحب الزمان لم ينج مـن خيره أو شره ووجد الكرامة والهوان ، ثم قال :

لَمْ يَنْجُ مِنْ خيْرِها أوْ شَرِّها أحـدٌ
فـاذْكُرْ شَوائِبَها إنْ كُنْتَ مِنْ أحَدِ
خاضَتْ بِـكَ المَنِيَّةُ الحَمْقاء غَمْرَتَـها
فتِلْكَ أمْواجُها تَرْميكَ بالزبـدِ

ولعلي بن الجهم لما حبسه المتوكل :

قالَتْ حُبِسْتَ فَقُلْتُ لَيسَ بِضائِري　　　حَبْسي وأيُّ مُهَنَّدٍ لا يُغْمَدُ

أوَ ما رَأيتِ اللَّيْثَ يألفُ غِيلَهُ — كِبْراً وأوْباشُ السِّباعِ تَرَدَّدُ
والنّارُ في أحجارها مَخبوءَةٌ — لا تُصطَلى إنْ لمْ تُثِرْها الأزْنُد
والبَدْرُ يُدرِكُه الظَّلامُ فتَنجَلي — أيّامُه وكأنّـهُ مُتَجَدِّدُ
والزّاعِبِيَّةُ لا يُقيمُ كُعوبَها — إلاّ الثِّقافُ وجِذْوَةٌ تَتَوَقَّدُ
غيرُ اللَّيالي بادِئاتٌ عُوَّدٌ — والمالُ عارِيَةٌ يُفادُ ويَنفَدُ
لا يُؤيِسَنَّكَ مِنْ تَفرُّجِ كُرْبَةٍ — خَطْبٌ أتاكَ بهِ الزَّمانُ الأنْكَدُ
فلِكُلِّ حالٍ مُعقِبٌ ولرُبَّما — أجلى لكَ المكْروهُ عمّا تحْمَدُ
كَمْ مِنْ عَليلٍ قَدْ تَخَطّاه الرَّدى — فنَجا وماتَ طَبيبُه والعُوَّدُ
صَبْراً فإنَّ اليَوْمَ يَعقُبه غَدٌ — ويَدُ الخِلافةِ لا تُطاوِلُها يَدُ
والحَبْسُ ما لَمْ تَغْشَه لِدَنِيَّةٍ — شَنْعاءَ نِعْمَ المَنزِلُ المُتَوَرَّدُ
لَوْ لَمْ يَكُنْ في الحَبْسِ إلاّ أنّه — لا يَستَذِلُّكَ بالحِجابِ الأعْبُدُ
بيتٌ يُجَدِّدُ لِلكَريمِ كرامَةً — ويُزارُ فيهِ ولا يَزورُ ويُحمَدُ
أبلِغْ أميرَ المُؤمنينَ ودونَه — خَوْفُ العِدا ومَخاوِفٌ لا تَنفَدُ
أنتمْ بَنو عَمِّ النَّبيِّ محمّدٍ — أوْلى بما شَرَعَ النَّبيُّ محمّدُ
ما كانَ مِنْ حُسْنٍ فأنتمْ أهلُه — كَرُمَتْ مَغارِسُكمْ وطابَ المَحْتِدُ
أمِنَ السَّوِيّةِ يا ابْنَ عَمِّ محمّدٍ — خَصْمٌ تُقَرِّبُه وآخَرُ يُبْعَدُ

يا أَحْمَدَ ٱبْنَ أَبي دؤَادٍ إنَّما ... تُدْعى لِكلِّ كَريهَـةٍ يا أَحْمَدُ
إِنَّ الذينَ سَعوْا إِلَيكَ بباطلٍ ... أَعْداءُ نِعْمَتِكَ الَّتي لاَ تُجْحَدُ
شَهِدوا وغِبْنا عَنْهُمُ فَتَحَكَّموا ... فينا ولَيْسَ كَغائِبٍ مَنْ يَشْهَدُ
لَوْ يَجْمَعُ الْخُصَماءَ عِنْدَكَ مَنْزِلٌ ... يَوْماً لَبانَ لَكَ الطَريقُ الأَرْشَدُ
والشَّمْسُ لَوْلاَ أَنَّها مَحْجوبَةٌ ... عَنْ ناظِرَيْكَ لَما أَضاءَ الْفَرْقَدُ

(ضده)

أنشدنا عاصم بن محمد الكاتب لنفسه لما حبسه أحمد بن عبد العزيز ابن أبي دلف قوله :

قالَتْ حُبِسْتَ فقُلْتُ خَطْبٌ أَنكَدُ
أَنْحى عَليَّ بِهِ الزَّمانُ المُرْصَدُ
لَوْ كُنْتُ حُرًّا كانَ سَرْبِي مُطْلَقاً
ما كُنْتُ أُحْبَسُ عَنْوَةً وأُقَيَّدُ
لَوْ كُنْتُ كالسَّيْفِ المُهَنَّدِ لمْ يَكنْ
وَقْتَ الْكَريهَةِ والشَّدائِدِ يُغْمَدُ
لَوْ كُنْتُ كاللَيْثِ الْهَصورِ لمَا رَعَتْ
فِيَّ الذِّئابُ وجَذْوَتِي تَتَوَقَّدُ

مَنْ قال إنَّ الحَبْسَ بَيْتُ كَرامَةٍ ... فَمُكاثِرٌ في قَوْلِهِ مُتَجَلِّدُ

ما الحَبْسُ إلاَّ بَيْتُ كُلِّ مَهانَةٍ ... ومَذَلَّةٍ ومَكارِهٍ لا تَنفَدُ

إنْ زارَني فيهِ العَدُوُّ فشامتٌ ... يُبْدِي التَّوَجُّعَ تارَةً ويُفَنِّدُ

أوْ زارَني فيهِ المُحِبُّ فموجَعٌ ... يَذْري الدُّموعَ بِزَفْرَةٍ تَتَرَدَّدُ

يَكفيكَ أنَّ الحَبْسَ بَيْتٌ لا يُرى ... أحَدٌ عَليْهِ مِنَ الخَلائِقِ يُحْسَدُ

تَمْضي اللَّيالي لا أذوقُ لِرَقْدَةٍ ... طَعْماً وكيفَ يَذوقُ مَنْ لا يَرْقُدُ

في مُطْبَقٍ فيهِ النَّهارُ مُشاكِلٌ ... لِلَّيْلِ والظُّلُماتُ فيه سَرْمَدُ

فإلى مَتى هَذا الشَّقاءُ مُؤَكَّدٌ ... وإلى مَتى هذا البَلاءُ مُجَدَّدُ

مالي مُجِيرٌ غَيْرُ سَيِّدِيَ الذي ... ما زالَ يَكْفُلُني فَنِعْمَ السَّيِّدُ

غُذِيَتْ حُشاشَةُ مُهْجَتي بِنَوافِلٍ ... مِنْ سَيْبِهِ وصَنائِعٍ لا تُجْحَدُ

عِشْرينَ حَوْلاً عِشْتُ تَحْتَ جَناحِهِ ... عَيْشَ المُلوكِ وحالَتي تَتَزَيَّدُ

فَخَلا العَدُوُّ بِمَوْضِعي مِنْ قَلْبِهِ ... فَحَشاهُ جَمْراً نارُهُ تَتَوَقَّدُ

فاغْفِرْ لِعَبْدِكَ ذَنْبَهُ مُتَطَوِّلاً ... فالحِقْدُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ لا تُعْهَدُ

واذْكُرْ خَصائِصَ خِدْمَتي ومَقاوِمي ... أيَّامَ كُنْتَ جَميعَ أمْري تَحْمَدُ

وقال عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم :

خَرَجْنا مِنَ الدُّنْيا ونَحْنُ مِنَ اهْلِها ... فَلَسْنا مِنَ الأمْواتِ فيها ولا الأحْيا

إذا دَخلَ السَّجّانُ يوماً لِحاجةٍ عَجِبْنا وقُلْنا جاءَ هذا مِنَ الدُّنيا
ونَفرَحُ بالرُّؤيا فَجُلُّ حديثِنا
إذا نَحنُ أصبَحْنا الحديثُ عنِ الرُّؤيا
فإنْ حَسُنَتْ كانتْ بَطيئاً مَجيئُها
وإنْ قَبُحَتْ لمْ تَنْتَظِرْ وأتتْ سَعْيا

وقال آخر :

ألا أحدٌ يدعو لِأهلِ محلةٍ مُقيمينَ في الدُّنيا وقدْ فارَقوا الدُّنيا
كأنَّهُمُ لمْ يَعرِفوا غيرَ دارِهِم ولمْ يَعْرِفوا غيرَ الشَّدائدِ والبَلْوى

وقال ابن المعتز :

تَعَلَّمْتُ في السِّجْنِ نَسجَ التِّكَكْ وكُنْتُ امْرَأً قَبلَ حَبْسي مَلِكْ
وقُيِّدْتُ بَعْدَ رُكوبِ الجِيادِ وما ذاكَ إلّا بِدَوْرِ الفَلَكْ
ألَمْ تُبصِرِ الطيرَ في جَوِّها تَكادُ تُلاصِقُ ذاتَ الحُبُكْ
إذا أبصَرَتْهُ خُطوبُ الزَّمانِ أوقَعنَهُ في حِبالِ الشَّرَكْ
فهذاكَ مِنْ حالِكٍ قدْ يُصادُ ومِنْ قَعْرِ بَحْرٍ يُصادُ السَّمَكْ

ووجد في البيت الذي قتل فيه مكتوب بخطه على الأرض :

يا نفسُ صبراً لَعلَّ الخيرَ عُقباكِ خانَتْكِ بَعدَ طوالِ الأمْنِ دُنياكِ
مَرَّتْ بنا سَحَراً طيرٌ فقلْتُ لها طوباكِ يا لَيتَني إيّاكِ طوباكِ

وقال أعرابي :

وَلَمَّا دَخَلْتُ السِّجْنَ كَبَّرَ أَهْلُهُ   وقالوا أبو لَيْلى الغَداةَ حَزِينُ
وفي البابِ مَكْتوبٌ على صَفَحاتِهِ   بأنَّكَ تَنْزو ثُمَّ سَوْفَ تَلِينُ

وفي الحديث المرفوع (ان يوسف عليه السلام شكا إلى الله تعالى طول الحبس فأوحى اليه أنت حبست نفسك حين قلت : رَبِّ السِّجْنُ أحبُّ إليَّ مِمَّا يَدْعُونَني إليه) ولو قلت العافية أحب إلي لعوفيت . قال: وكتب يوسف عليه السلام على باب السجن : هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء .

١٢ - محاسن المودة

قال بعض الحكماء : ليس للانسان نعم الا بمودات الاخوان . وقال آخر : الازدياد من الاخوان زيادة في الآجال وتوفير لحسن الحال . وقيل: عاشروا الناس معاشرة ان عشتم حنوا اليكم وإن متم بكوا عليكم . وقال :

قد يَمْسِكُ النَّاسُ حِيناً لَيْسَ بَيْنَهُمُ   وُدٌّ فَيَزْرَعُهُ التَّسْلِيمُ واللُّطْفُ
يُسْلِي الشَّقِيقَيْنِ طُولُ النَّأْيِ بَيْنَهُما   وَتَلْتَقِي شُعَبٌ شَتَّى فَتأْتَلِفُ

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لابنه الحسين : ابذل لصديقك كل المودة ولا تطمئن اليه كل الطمأنينة واعطه كل المواساة ولا تفش اليه كل الأسرار . وقال العباس بن جرير : المودة تعاطف القلوب وائتلاف الأرواح وأنس النفوس ووحشة الاشخاص عند تنائي اللقاء وظهور السرور بكثرة التزاور وعلى حسب مشاكلة الجواهر يكون الاتفاق في الخصال .

وقال بعضهم : من لم يواخ من الاخوان الا من لا عيب فيه قل صديقه ومن لم يرض من صديقه الا بايثاره اياه على نفسه دام سخطه ومن عاتب على غير ذنب كثر عدوه . وكان يقال : أعجز الناس من فرط في طلب الاخوان . وقال الشاعر في مثله :

لَعَمْرُكَ ما مالُ الفَتى بِذَخيرَةٍ ولكِنَّ إخوانَ الثِّقاتِ الذَخائِرُ

(ضده)

قال المأمون : الاخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يستغني عنه وطبقة كالدواء يحتاج اليه أحيانا وطبقة كالداء الذي لا يحتاج اليه . وكتب بعض الكتاب ان فلانا أولاني جميلا من البشر مقرونا بلطيف من الخطاب في بسط وجه ولين كنف ، فلما كشفه الامتحان بيسير الحاجة كان كالتابوت المطلي عليه بالذهب المملوء بالعذرة أعجبك حسنه ما دام مطبقاً فلما فتح آذاك نتنه فلا أبعد الله غيره ، ومما قيل في ذلك :

واللهِ لوْ كَرِهَتْ كَفِّي مُنادَمَتي لقلتُ للكَفِّ بيني إذْ كَرِهْتِيني

وقال آخر :

ولَوْ أنّي تُخالِفُني شِمَالِي لَمَا أتبَعْتُها أبَداً يَميني
إذاً لَقَطَعْتُها ولَقلْتُ بِيني كَذلِكَ أجتَوي مَنْ يَجْتَويني

وقال آخر

مَنْ لَمْ يُرِدْكَ فَلا تُرِدْهُ لِيَكُنْ كَمَنْ لَمْ تَسْتَفِدْهُ
باعِدْ أخاكَ بِبُعْدِهِ فإذا نَأى شِبْراً فزِدْهُ

وقال آخر :

تَوَدُّ عدُوِّي ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّنِي ... أَوَدُّكَ إِنَّ الرَّأْيَ مِنْكَ لَعازِبُ
وَلَيْسَ أَخِي مَنْ وَدَّنِي رَأْيَ عَيْنِهِ ... وَلٰكِنْ أَخِي مَنْ وَدَّنِي وَهُوَ غَائِبُ

وقال آخر :

إِنَّ ٱخْتِيارَكَ لا عَنْ خِبْرَةٍ سَلَفَتْ ... إِلَّا الرَّجاءَ وَمِمَّا يُخْطِئُ النَّظَرُ
كَالْمُسْتَغِيثِ بِبَطْنِ السَّيْلِ يَحْسَبُهُ ... حِرْزاً يُبادِرُهُ إِذْ بَلَّهُ المَطَرُ

وقال آخر :

وَصاحِبٍ كانَ لِي وَكُنْتُ لَهُ ... أَشْفَقَ مِنْ والِدٍ عَلى وَلَدِ
وَكانَ لِي مُؤْنِساً وَكُنْتُ لَهُ ... لَيْسَتْ بِنا وَحْشَةٌ إِلى أَحَدِ
كُنَّا كَساقٍ مَشَتْ بِها قَدَمٌ ... أَوْ كَذِراعٍ نِيطَتْ إِلى عَضُدِ
حَتَّى إِذا أَمْكَنَ الحَوادِثُ مِنْ ... حَظِّي وَحَلَّ الزَّمانُ مِنْ عُقَدِي
إِزْوَرَّ عَنِّي وَكانَ يَنْظُرُ مِنْ ... عَيْنِي وَيَرْمِي بِساعِدِي وَيَدِي
حَتَّى إِذا ٱسْتَرْفَدَتْ يَدِي يَدَهُ ... كُنْتُ كَمُسْتَرْفِدٍ يَدَ الأَسَدِ

وقال آخر :

فَيا عَجَباً لِمَنْ رَبَّيْتُ طِفْلاً ... أُلَقِّمُهُ بِأَطْرافِ البَنانِ
أُعَلِّمُهُ الرِّمايَةَ كُلَّ يَوْمٍ ... فَلَمَّا ٱشْتَدَّ ساعِدُهُ رَمانِي
أُعَلِّمُهُ الفُتُوَّةَ كُلَّ حِينٍ ... فَلَمَّا طَرَّ شارِبُهُ جَفانِي
أُعَلِّمُهُ الرِّوايَةَ كُلَّ وَقْتٍ ... فَلَمَّا صارَ شاعِرَها هَجانِي

١٣ ـ محاسن الولايات

سئل عمار بن ياسر رضي الله عنه عن الولاية فقال : هي حلوة الرضاع مرة الفطام . وذكروا أنه كان سبب عزل الحجاج بن يوسف عن المدينة ، وقد وفد من أهل المدينة منهم عيسى بن طلحة بن عبيد الله على عبد الملك ابن مروان ، فأثنوا على الحجاج وعيسى ساكت ، فلما قاموا ثبت عيسى حتى خلا له وجه عبد الملك ، فقام فجلس بين يديه فقال : يا أمير المؤمنين من أنا ؟ قال عيسى بن طلحة بن عبيد قال فمن أنت ؟ قال عبد الملك بن مروان قال أفجهلتنا أو تغيرت بعدنا ؟ قال : وما ذاك ؟ قال وليت علينا الحجاج بن يوسف يسير بالباطل ويحملنا على أن نثني عليه بغير الحق والله لئن أعدته علينا لنعصينك وان قاتلتنا وغلبتنا وأسأت الينا قطعت أرحامنا ، ولئن قوينا عليك لنغصبنك ملكك فقال له عبد الملك : انصرف والزم بيتك ولا تذكرن من هذا شيئاً قال : فقام الى منزله وأصبح الحجاج غادياً الى عيسى بن طلحة فقال : جزاك الله عن خلوتك بأمير المؤمنين خيراً فقد أبدلني بكم خيراً وأبدلكم بي غيري وولاني العراق . وعن معمر بن وهيب قال : كان عبد الملك عندما استعفى أهل العراق من الحجاج قال لهم : اختاروا أي هذين شئتم ـ يعني أخاه محمد بن مروان وابنه عبدالله بن عبد الملك ـ مكان الحجاج ؟ فكتب اليه الحجاج : يا أمير المؤمنين ان أهل العراق استعفوا عثمان بن عفان من سعيد بن العاص فأعفاهم منه فساروا اليه من قابل وقتلوه ، فقال : صدق ورب الكعبة وكتب الى محمد وعبدالله بالسمع والطاعة له .

(ضـده)

كتب عبد الصمد بن المعذل الى صديق له ولي النفاطات ماظهر تيهاً :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَظْهَرْتَ تِيهاً كَأَنَّمَا ... تَوَلَّيْتَ لِلْفَضْلِ بْنِ مَرْوَانَ عُكْبَرَا
دَعِ الْكِبْرَ وَاسْتَبْقِ التَّوَاضُعَ إِنَّهُ ... قَبِيحٌ بِوَالِي النَّفْطِ أَنْ يَتَغَيَّرَا
لِحِفْظِ عُيُونِ النَّفْطِ أَحْدَثْتَ نَخْوَةً ... فَكَيْفَ بِهِ لَوْ كَانَ مِسْكاً وَعَنْبَرَا

وقال ابن المعتز :

كَمْ تَائِهٍ بِوِلَايَةٍ ... وَبِعَزْلِهِ يَعْدُو الْبَرِيدُ
سُكْرُ الْوِلَايَةِ طَيِّبٌ ... وَخُمَارُهُ صَعْبٌ شَدِيدُ

وقال آخر :

لَا تَفْرَحَنَّ فَكُلُّ وَالٍ يُعْزَلُ ... وَكَمَا عُزِلْتَ فَعَنْ قَرِيبٍ تُقْتَلُ
وَكَذَا الزَّمَانُ بِمَا يَسُرُّكَ تَارَةً ... وَبِمَا يَسُوءُكَ تَارَةً يَتَنَقَّلُ

١٤ ـ محاسن الصحبة

قيل : قال علقمة بن ليث لابنه : يا بني ان نازعتك نفسك الى الرجال يوماً لحاجتك اليهم فاصحب من إن صحبته زانك وإن تخففت له صانك وإن نزلت بك مؤونة مانك ، وان قلت صدق قولك وان صلت شدد صولك اصحب من اذا مددت اليه يدك لفضل مدها ، وان رأى منك حسنة عدها ، وان بدت منك ثلمة سدها واصحب مـــن لا تأتيك منه البوائـــق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق ولا يخذلك عند الحقائق . وقال آخر اصحب من خولك نفسه وملكك خدمته وتخيرك لزمانه فقد وجب عليك حقه وذمامه . وكان يقال : من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك عزه . وقال بعضهم لصاحبه : أنا أطوع لك من اليد وأذل من النعل . وقال بعضهم : اذا رأيت كلبا ترك صاحبه وتبعك فارجمه فانه تاركك كما ترك صاحبه .

وقال ابن أبي دؤاد لرجل انقطع الى محمد بن عبد الملك الزيات : ما خبرك مع صاحبك ؟ فقال لا يقصر في الاحسان الي فقال : يا هذا ان لسان حالك يكذب لسان مقالك .

(ضده)

قال : كان يوسف بن عمر الثقفي يتولى العراقين لهشام بن عبد الملك وكان مذموما في عمله فخبرني المدائني قال : وزن يوسف بن عمر درهما فنقص حبة فكتب الى دور الضرب بالعراق يضرب أهلها مائة . قيل وخطب في مسجد الكوفة فتكلم انسان مجنون فقال : يأهل الكوفة ألم أنهكم أن تدخلوا مساجدكم المجانين اضربوا عنقه فضربت عنقه . قال : وقال لهمام ابن يحي وكان عاملا له : يا فاسق خربت مهرجا نقذق قال : اني لم أكن عليها انما كنت على ماه دينار وعمرت البلاد فأعاد ذلك عليه مراراً فقال همام قد أخبرتك اني كنت على ماه دينار وتقول : خربت مهرجا نقذق فلم يزل يعذبه حتى مات . قال : وقال لكاتبه وقد احتبس عن ديوانه يوما : ما حبسك؟ قال : اشتكيت ضرسي قال : تشتكي ضرسك وتقعد عن الديوان ودعا الحجام وأمره أن يقلع ضرسين من أضراسه . وعن المدائني قال : حدثني رضيع كان ليوسف بن عمر من بني عبس قال : كنت لا أحجب عنه وعن خدمته فدعا ذات يوم بجوار له ثلاث ودعا بخصي له يقال له حديج فقرب اليه واحدة فقال لها : اني أريد الشخوص أفأخلفك أو أشخصك معي ؟ فقالت : صحبة الامير أحب الي ولكني أحسب أن مقامي وتخلفي أعفى وأخف على قلبه فقال : أحببت التخلف للفجور يا حديج أضرب فضربها حتى أوجعها ثم أمره أن يأتيه بالثانية وقد رأت ما لقيت صاحبتها فقال لها : اني أريد الشخوص أفأخلفك أم أخرجك ؟ فقالت : ما أعدل بصحبة الأمير شيئا بل تخرجني قال : أحببت الجماع ما تريدين أن يفوتك ليلة يا حديج أضرب فضربها حتى

أوجعها ثم أمره أن يأتيه بالثالثة وقد رأت ما لقيت المتقدمتان فقال لها : اني أريد الشخوص أفأخلفك أم أخرجك : قالت ؟ الأمير أعلم لينظر أخف الأمرين عليه فليفعله قال اختاري لنفسك قالت مـــا عندي اختيار فليختر الأمر قال : قد فرغت من كل عمل فلم يبق لي الا أن اختار لك أوجعها يا حديج فضربها حتى أوجعها قـال الرجل فكأنما أوجعني من شدة غيظي عليه فولت الجارية فتبعها الخادم ، فلما بعدت قالت : الخيرة والله في فراقك ما تقرعين أحد بصحبتك فلم يفهم يوسف كلامها فقال ؟ ما تقول يا حديج قال : قالت كذا وكذا فقال يا بن الحبيثة من أمرك أن تعلمني يا غلام خـذ السوط من يده فاوجع رأسه فما زال يضربه حتى اشتفى فتعرف من الغلام الآخر كم ضربت ؟ قال لا أدرى قـال : عدو الله أتخرج حاصلي من بيت مالي من غير حساب اقتلوه فقتلوه (١)

١٥ ــ محاسن التطير

عن عكرمة قال : كنا جلوساً عند ابن العباس وابن عمر فطار غراب يصيح فقال رجل من القوم : خير خير ، فقال ابن العباس : لا خير ولا شر والذي حضرنا من الشعر في مثله لأبي الشيص :

مَا فَرَّقَ الأَحبابَ بَعْـدَ اللهِ إلاَّ الإِبِـلُ
والنَّاسُ يَلْحونَ غُرا ب َالْـبيْنِ لَمَّا جهِلوا
ومـا عَلى ظَهْرِ غُرا بِ الْـبيْنِ تُطْوَى الرُّحَلُ

(١) ــ هكذا في الاصل مسندة الى يوسف بن عمر ، ولعلها من أخبار الحجاج كما في غير هذا الكتاب .

ولا إذا صاحَ غُرا ... بٌ في الدّيار ارْتحلوا
وما غُرابُ البيْنِ إِ ... لاّ ناقةٌ أوْ جَمَلُ

وقال آخر :

أترْحلُ عمّنْ أنتَ صبٌّ بمثلهِ ... وتَلحى غُرابَ البيْنِ إنّكَ تظلِمُ
أقِمْ فغُرابُ البيْنِ غيرُ مُفرِّقٍ ... ولا يأتلي إلاّ على الفصْلِ يحْكُمُ

وقال آخر :

غَلطَ الذينَ رَأيْتهمْ بجهالةٍ ... يَلحوْنَ كُلُّهُمُ غُراباً ينعَقُ
ما الذّنْبُ إلاّ للجِمالِ فإنّها ... ممّا يُشتِّتُ شمْلَهُمْ ويُفرّقُ
إنّ الغُرابَ بيُمْنِهِ يُدْني النّوىَ ... وتُشتِّتُ الشّمْلَ الجميعَ الأيْنُقُ

وقال آخر :

لا يَعْلَمُ المرْءُ ليْلاً ما يُصبّحُهُ ... إلاّ كواذبُ ممّا يُخْبِرُ الفالُ
والفالُ والزّجْرُ والكُهّانُ كُلُّهُمُ ... مُضلّلونَ ودونَ الغيْبِ أقفالُ

(ضده)

حكي عن النعمان بن المنذر أنه خرج متصيدا ومعه عدي بن زيد العبادي فمر بآرام — وهي القبور — فقال عدي : أبيت اللعن أتدري ما تقول هذه الآرام ؟ قال : لا ، قال : انها تقول :

أيّها الرّكْبُ المُخِفّو ... نَ على الأرضِ تمُرّونَ
لكما كنتمْ فكُنّا ... وكما كُنّا تكونونَ

فقال : أعد فأعادها فترك صيده ورجع كئيباً . وخرج معه مرة أخرى فوقف على آرام بظهر الحيرة فقال عدي : أبيت اللعن أتدري ما تقول هذه الآرام ؟ قال لا قال انها تقول :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَناخوا عِندَنا يَشرَبونَ الخَمْرَ بِالماءِ الزلالِ
ثُمَّ أَضحَوْا عَصَفَ الدَّهْرُ بِهِمْ وكَذاكَ الدَّهْرُ حالاً بَعْدَ حالِ

فانصرف وترك صيده . قال ولما خرج خالد بن الوليد الى أهل الردة انتهى الى حي من تغلب فأغار عليهم وقتلهم ، وكان رجل منهم جالساً على شراب له وهو يغني بهذا البيت :

ألا عَلِلاَني قَبْلَ جَيْشِ أَبي بَكْرِ لَعَلَّ مَنايانا قَريبٌ وما نَدْرِي

فوقف عليه رجل من أصحاب خالد فضرب عنقه فاذا رأسه في الجفنة التي كان يشرب منها . وهذا كقولهم :

إنَّ البَلاءَ مُوَكَّلٌ بِالمَنطِقِ

١٦ ـ محاسن الوفاء

قيل في المثل . أوفى من فكيهة ، وهي امرأة من بني قيس بن ثعلبة كان من وفائها أن السليك بن سلكه غزا بكر بن وائل فلم يجد غفلة يلتمسها ، فخرج جماعة من بكر فوجدوا أثر قدم على الماء فقالوا : ان هذا الاثر قدم ورد الماء ، فقعدوا له فلما وافى حملوا عليه فعدا حتى ولج قبة فكيهة فاستجار بها فأدخلته تحت درعها فانتزعوا خمارها فنادت إخوتها فجاءوا عشرة فمنعوهم منها قال : وكان سليك يقول : كأني أجد خشونة شعر

استها على ظهري حين أدخلتني تحت درعها : وقال

لَعَمْرُ أبيكَ والأنباءُ تَنْمِي ... لَنِعْمَ الجارُ أختُ بني عُوارا
مِنَ الخَفِراتِ لمْ تَفْضَحْ أخاها ... ولمْ تَرْفَعْ لِوالِدِها شَنارَا
عَنيتُ بِهِ فُكَيْهَةَ حِينَ قامَتْ ... لِنَصْلِ السَّيْفِ فَانْتَزَعوا الخِمارا

ويقال أيضاً : هو أوفى من أم جميل ، وهي من رهط ابن ابي بردة من دوس ، وكان من وفائها أن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي قتل رجلا من الازد فبلغ ذلك قومه بالسراة فوثبوا على ضرار بن الخطاب الفهري ليقتلوه فعدا حتى دخل بيت أم جميل وعاذ بها ، فقامت في وجوههم ودعت قومها فمنعوه لها ، فلما ولي عمر بن الخطاب ظنت أنه أخوه فأتته بالمدينة فلما انتسبت له عرف القصة فقال : إني لست بأخيه إلا في الاسلام وهو غاز وقد عرفنا منتك عليه وأعطاها على أنهـا ابنة سبيل ويقال : أوفى من السموءل بن عاديا ، وكان من وفائه أن امرأ القيس بن حجر لما اراد الخروج الى قيصر استودع السموءل دروعاً له فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام فتحرز منه السموءل فأخذ الملك ابناً لـه خارج الحصن وصاح يا سموءل هذا ابنك في يدي وقد علمت ان امرأ القيس ابن عمي وأنا أحق بميراثه فان دفعت إلي الدروع وإلا ذبحت ابنك فقال : أجلني فأجله ، فجمع أهل بيته فشاورهم فكلهم أشاروا بـدفع الدروع وأن يستنقذ ابنه ، فلما أصبح اشرف عليه وقال : ليس لي الى دفع الدروع سبيل فاصنع ما أنت صانع فذبح الملك ابنه وهو ينظر اليه وكان يهوديا ، وانصرف الملك ووافى السموءل بالدروع الموسم فدفعها الى ورثة امرىء القيس : وقال في ذلك:

وَفيتُ بِأدرعِ الكِنْدِيِّ إني ... إذا مـا خانَ أقوامٌ وَفيتُ

وقالوا عنـدَهُ كَنزٌ رَهيبٌ　　فَلا وأبيكَ أغدِرُ مـا مَشيتُ
بَنى لي عادِياً حِصناً حَصينـاً　　وبِئراً كُلَّما شِئتُ استَقيتُ

وفي ذلك يقول الاعشى :

كُنْ كالسَّموءَلِ إذْ طافَ الهُمامُ بِهِ　　في جَحْفَلٍ كَسوادِ اللَّيلِ جرّارِ
بالأبلَقِ الفَرْدِ مِنْ تيماءَ مَنزِلُـهُ　　حِصْنٌ حَصينٌ وجارٌ غيرُ غدّارِ
خَيَّرهُ خُطَّتَي خَسْفٍ فقالَ لهُ　　مَهما تَقولَنْ فإنِّي سامِعٌ حارِ
فقالَ ثُكْلٌ وغدْرٌ أنتْ بينَهما　　فاختَر فما فيهما حَظٌّ لِمُختارِ
فشَكَّ غيرَ طَويلٍ ثمَّ قالَ لَهُ　　أقتُلْ أسيرَكَ إنِّي مانِعٌ جاري

ويقال : أوفى من الحارث بن عباد ، وكان من وفائه أنـه أسر عدي ابن ربيعة ولم يعرفه فقال له : دلني على عدي بن ربيعة ولك الامان فقال : انا آمن إن دللتك عليه ، قال : نعم قال فانا عدي بن ربيعة فخلاه ، وفي ذلك يقول الشاعر :

لَهفَ نَفسِي على عَدِيٍّ وقَدْ شا　　رَفَه المَوتُ واحتَوَتهُ المَنونُ

ويقال : هو أوفى من عوف بن محلم ، وكان من وفائـه أن مروان القرظ غزا بكر بن وائل ففضوا جيشه وأسره رجل منهم وهو لا يعرفه فأتى به أمـه فقالت : انك تختال باسيرك كأنك جئت بمروان القرظ فقال لها مروان : وما ترجين من مروان ؟ قالت : عظم فدائه قال : وكم ترجين من فدائه ؟ قالت : مائة بعير قال مروان : لك ذلك على ان تؤديني الى خماعة بنت عوف بن محلم قالت : ومن لي بالمائة فأخذ عوداً من الارض وقال هذا لك فمضت به الى بيت عوف ، فاستجار بخماعة ابنته فبعثت به

الى عوف ثم أن عمرو بن هند بعث الى عوف أن يأتيه بمروان وكان واجداً عليه في شيء فقال عوف لرسوله : ان خماعة ابنتي قد اجارته ، فقال : إن الملك قد آلى أن يعفو عنه أو يضع كفه في كفه ، فقال عوف : يفعل ذلك على أن تكون كفي بين أيديهما ، فأجابه عمرو الى ذلك فجاء عوف بمروان فأدخله عليه فوضع يده في يده ووضع يـــده بين أيديهما فعفا عنه . ومنهم الطائي صاحب النعمان ابن المنذر ، وكان من وفائه أن النعمان ركب في يوم بؤسه وكان له يومان يوم بؤس ويوم نعيم لم يلقه أحد في يوم بؤسه إلا قتله ولا في يوم نعيمه إلا أحياه وحباه وأعطاه ، فاستقبله في يوم بؤسه اعرابي من طيىء فقال : حيا الله الملك ان لي صبية صغاراً لم أوص بهم أحداً فان رأى الملك أن يأذن لي في اتيانهم وأعطيه عهد الله ان ارجع اليه اذا اوصيت بهم حتى اضع يدي في يده ، فرق له النعمان وقال له : لا إلا ان يضمنك رجل ممن معنا فان لم تأت قتلناه ، وكان مع النعمان شريك بن عمرو بن شراحيل فنظر اليه الطائي وقال :

يا شَريكَ ٱبْنَ عَمْرٍو هَلْ مِنَ المَوْتِ مَحالَهْ
يا أخا كلِّ مُضافٍ يا أخا مَنْ لا أخالَهْ
يا أخا النُّعْمانِ فُكَّ الْـيَوْمَ عَنْ شَيْخٍ غلالَهْ
ابْنُ شَيْبانَ قَبيلٌ أصلَحَ اللهُ فعالَهْ

فقال شريك : هو علي اصلح الله الملك ، فمضى الطائي واجل له اجلا يأتي فيه فلما كان ذلك اليوم أحضر النعمان شريكاً وجعل يقول له : ان صدر هذا اليوم قد ولى وشريك يقول : ليس لك عـــلي سبيل حتى تمسي فلما امسوا أقبل شخص والنعـــمان ينظر إلى شريك ، فقال شريك : ليس لك علي سبيل حتى يدنو الشخص فلعله صاحبي ، فبينما هما كذلك إذ أقبل

الطائي فقال النعمان : والله ما رأت أكرم منكما وما ادري أيكما أكرم أهذا الذي ضمنك وهو الموت أم انت وقد رجعت الى القتل ؟ والله لا أكون ألأم الثلاثة فأطلقه وأمر برفع يوم بؤسه ، وأنشد الطائي :

وَلَقَدْ دَعَتْني لِلْخِلافِ عَشِيرَتي فَأَبيتُ عِنْدَ تَجَهُّمِ الأَقْوالِ
إِنِّي أمْرُؤٌ مِنِّي الْوَفاءُ سَجِيَّةٌ وفِعالُ كُلِّ مُهَذَّبٍ بَذَّالِ

فقال النعمان : ما حملك على الوفاء قال : ديني قال : وما دينك ؟ قال : النصرانية قال : اعرضها علي فعرضها عليه فتنصر النعمان .

(ضده)

قيل : كتب صاحب بريد همذان الى المأمون وهو بخراسان يعلمه أن كاتب صاحب البريد المعزول أخبره ان صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطآ على اخراج مائتي الف درهم من بيت المال واقسماها بينهما ، فوقع المأمون : إنا نرى قبول السعاية شراً من السعاية لأن السعايـــة دلالة والقبول اجازة وليس من دل على شيء كمن قبله وأجازه ، فأنف الساعي عند ذلك وقال : يا امير المؤمنين رضي الله عنك المعـــذرة فان الساعي وإن كان في سعايته صادقا لقد كان في صدقه لئيما ، اذ لم يحفظ الحرمة ولم يف لصاحبه . قال : ودخل رجل على سليمان بن عبدالملك فقال : يا أمير المؤمنين عندي نصيحة قال : وما نصيحتك هذه ؟ قال : فلان كان عاملا ليزيد بن معاوية وعبد الملك والوليد فخانهم فيما تولاه ثم اقتطع اموالا كثيرة جليلة فمر باستخراجها منه ، قال : أنت شر منه وأخون حيث اطلعت على أمره وأظهرته ولولا أني أنفر النصاح لعاقبتك ولكن اختر مني خصلة من ثلاث ، قال : اعرضهن يا امير المؤمنين ، قال : ان شئت فتشنا عما ذكرت ، فان كنت صادقاً مقتناك ، وان كنت كاذباً عاقبناك ، وان استقلت أقلناك ، فاستقاله الرجل .

١٧ ـ محاسن السخاء

روي عن نافع قال : لقي يحيى بن زكريا عليه السلام ابليس لعنه الله فقال : أخبرني بأحب الناس اليك وأبغضهم اليك . قال : أحبهم إلي كل مؤمن بخيل وأبغضهم إلي كل منافق سخي قال : ولم ذاك ؟ قال : لان السخاء خلق الله الاعظم فأخشى ان يطلع عليه في بعض سخائه فيغفر له . وقال النبي صلى الله عليه وسلم (السخي قريب من الله قريب من الناس بعيد من النار والبخل بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار ، والجاهل سخي احب الى الله عز وجل من عابد بخيل وأدوأ الداء البخل) وقال صلى الله عليه وسلم (ما أشرقت شمس إلا ومعها ملكان يناديان يسمعان الخلائق غير الجن والإنس وهما الثقلان : اللهم عجل لمنفق خلفاً ولممسك تلفاً وملكان يناديان : أيها الناس هلموا الى ربكم فان ما قل وكفى خير مما كثر وألهى) وعن الشعبي قال : قالت ام البنين ابنة عبدالعزيز اخت عمر بن عبدالعزيز وكانت تحت الوليد بن عبدالملك : لو كان البخل قميصاً ما لبسته او طريقاً ما سلكتها ، وكانت تعتق في كل يوم رقبة ، وتحمل على فرس في سبيل الله ، وكانت تقول : البخل كل البخل من بخل على نفسه بالجنة . وقيل اعتقت هند بنت عبدالمطلب في يوم واحد اربعين رقبة : وقال بعض الحكماء : ثواب الجود خلف ومحبة ومكافأة ، وثواب البخل حرمان واتلاف ومذمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه (يا علي كن شجاعا فان الله يحب الشجاع ، وكن سخيا فان الله يحب السخي ، وكن غيوراً فان الله يحب الغيور يا علي وان إنسان سألك حاجة ليس لها بأهل فكن أنت أهلاها) ، وقال النبي ﷺ : (السخاء شجرة في الجنة من أخذ منها بغصن مد به الى الجنة) ، وقال عبد العزيز بن مروان : لو لم يدخل على البخلاء في لؤمهم الاسوء ظنهم بالله عز وجل لكان عظيما ، وقال ﷺ (تجافوا عن ذنب السخي فان الله

آخــذ بيده كلما عثر) . وقــال بهرام جور : من أحب أن يعرف فضل الجود على سائر الاشياء فلينظر الى ما جــاد الله به على الخلق من المواهب الجليلة والرغائب النفيسة والنسيم والريح كما وعدهم الله في الجنان فانه لولا رضــاه الجود لم يصطفه لنفسه وقال الموبذ ان لأبرويز : أكنتم تمنون أنتم وآباؤكم بالمعروف وتترصدون عليه المكافأة ؟ قــال لا : ولا نستحسن ذلك لخولنا وعبيدنا فكيف نرى ذلك وفي كتاب ديننا من فعل معروفا خفياً واظهره ليتطول به على المنعم عليه فقد نبذ الدين وراء ظهره واستوجب أن لا نعــده من الابرار ولا نذكره في الاتقياء والصالحين ؟ قيل : وسئل الاسكندر ما اكبر ما شيدت به ملكك ؟ قال : ابتداري الى اصطناع الرجال والاحسان اليهم . قـال : وكتب ارسطاطا ليس في رسالته الى الاسكندر : واعلم ان الايام تأتي على كل شيء فتخلقه وتخلق آثاره وتميت الافعال الا مــا رسخ في قلوب الناس فاودع قلوبهم محبة آبدة تبقى بها حسن ذكرك وكريم فعالك وشرف آثارك . قال : ولما قدم بزرجمهر الى القتل قيل له : انك في آخر وقت من اوقات الدنيا وأول وقت من أوقات الآخرة فتكلم بكلام تذكر به فقال : أي شيء أقول ؟ الكلام كثير ولكن ان أمكنك أن يكون حديثاً حسناً فافعل . قيل : وتنازع رجلان أحدهما من أبناء العجم والآخر أعرابي في الضيافة فقال الأعرابي : نحن أقرى للضيف . قال : وكيف ذلك ؟ قــال : لأن أحدنا ربما لا يملك إلا بعيراً فـاذا حل به ضيف نحره له ، فقال له الأعجمي : فنحن أحسن مذهبا في القرى منكم ، قـال : ومـا ذاك ؟ قـال : نحن نسمي الضيف مهمان ومعناه انه أكبر من في المنزل وأملكنا به ؟ وقال بعض الحكماء : بلغ الجود من قـام بالمجهود . وقيل : الجواد من لم يضن بالموجود . وقـال المأمون : الجود بذل الموجود والبخل سوء الظن بالمعبود . قيل : وشكا رجل الى إياس بن معاوية كثرة مـا يهب ويصل الناس وينفق . قــال : ان النفقة داعية الرزق وكان جالسا على

باب فقال للرجل : أغلق هذا الباب فأغلقه فقال : هل تدخل فيه الريح ؟ قال : لا . قال : فافتحه ففتحه فجعلت الريح تخترق في البيت فقال : هكذا الرزق أغلقت فلم تدخل الريح فكذلك اذا أمسكت لم يأتك الرزق. قيل : ووصل المأمون محمد بن عباد المهلبي بمائة ألف دينار ففرقها على إخوانه فبلغ ذلك المأمون فقال : يا أبا عبدالله ان بيوت الأموال لا تقوم بهذا . فقال : يا أمير المؤمنين البخل بالموجود سوء الظن بالمعبود . وعن أمية ابن يزيد الأموي قال : كنا عند عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية فجاءه رجل من أهل بيته فسأله المعونة على تزويج ، فقال له قولا ضعيفاً فيه وعد وقلة اطماع ، فلما قام من عنده ومضى دعا صاحب خزانته فقال : أعطه أربعمائة دينار فاستكثرناها وقلنا : كنت رددت عليه رداً ظننا أنك تعطيه شيئا قليلا فاذا أنت أعطيته أكثر مما أمل ، فقال : إني أحب أن يكون فعلي أحسن من قولي . وبحاتم يضرب المثل في السخاء ، فحدثنا عن بعض حالات حاتم قيل : كان حاتم جواداً شاعراً وكان حيثما نزل عرف منزله وكان ظفراً إذا قاتل غلب واذا غنم نهب واذا سئل وهب واذا ضرب بالقداح سبق واذا أسر أطلق ، وكان أقسم أن لا يقتل واحد امه ، قيل : ولما بلغ حاتماً قول المتلمس الضبعي .

قَليلُ المالِ تُصْلِحُهُ فَيَبْقَى ... ولا يَبْقى الْكَثيرُ مَعَ الْفَسادِ
وحِفْظُ المالِ أَيْسَرُ مِنْ بُغاهُ ... وضَرْبٍ في الْبِلادِ بِغَيْرِ زادِ

فقال : ماله قطع الله لسانه يحرض الناس على البخل أفلا قال :

فلا الْجُودُ يُفْني المالَ قَبْلَ فَنائِهِ ... ولا الْبُخْلُ في مالِ الشَّحيحِ يَزيدُ
فلا تَلْتَمِسْ رِزْقاً بِعَيْشٍ مُقَتَّرٍ ... لِكُلِّ غَدٍ رِزْقاً يَعودُ جَديدُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الرِّزْقَ غادٍ ورائِحٌ ... وأَنَّ الذي أَعْطاكَ سَوْفَ يُعيدُ

قيل : ونزل على حاتم ضيف ولم يحضره القرى فنحر ناقة الضيف وعشاه وغداه وقال : إنك قد أقرضتني ناقتك فاحتكم علي قال : راحلتين قال : لك عشرون أرضيت ؟ قال : نعم وفوق الرضى . قال : لك اربعون . ثم قال لمن بحضرته من قومه ، من أتانا بناقة فله ناقتان بعد الغارة ، فأتوه بأربعين فدفعها الى الضيف . وحكوا عن حاتم انه خرج في الشهر الحرام يطلب حاجة فلما كان بأرض عنزة ناداه أسير فيهم . يا ابا سفانة قد أكلني الاسار والقمل قال : والله ما أنا في بلادي ولا معي شيء وقد أسأت الي أن نوهت باسمي فذهب الى العنزيين فساومهم فيه واشتراه منهم وقال : خلوا عنه وانا اقيم مكانه في قيده حتى أؤدي فداه ، ففعلوا فأتاهم بفداء . قيل : ولما مات حاتم خرج رجل من بني اسد يعرف بابي الخيبري في نفر من قومه وذلك قبل أن يعلم كثير من العرب بموتـــه فأناخوا بقبره فقال : والله لأحلفن للعرب اني نزلت بحاتم وسألته القرى فلم يفعل وجعل يضرب القبر برجله ويقول :

عَجِّلْ أبا سَفّانَـةٍ قِراكا ... فَسَوْفَ أُنْبي سائِلي ثَناكا

فقال بعضهم : مالك تنادي رمة وباتوا مـــكانهم فقام صاحب القول من نومه مذعوراً فقال : ياقوم عليكم مطاياكم فان حاتماً أتاني فأنشدني :

أَبا الخَيْبَرِيِّ وأَنْتَ امْرُؤٌ ... ظَلومُ العَشيرَةِ شَتّامُهـا

فماذا أَرَدْتَ إلى رِمَّـةٍ ... بِدَوِّيَّةٍ صَخِبَتْ هامُهـا

تُبَغّي أَذاهـا وإِعْسارَها ... وحَوْلَكَ طَيٌّ وأَنْعامُها

وإِنّا لَنُنْعِمُ أَضيافَنـا ... مِنَ الكُومِ بِالسَّيْفِ نَعْتامُها

وقيل في المثل : هو أجود من كعب بن مامة وكان من اياد وبلغ من

جوده أنه خرج في ركب فيهم رجل من بني النمر بن قاسط في شهر ناجر والجأهم العطش فضلوا فتصافنوا ماءهم فجعل النمري يشرب نصيبه فاذا اراد كعب ان يشرب نصيبه : قال آثر أخاك النمري فيؤثره حتى أضر به العطش فلما رأى ذلك استحث ناقته وبادر حتى رفعت له اعلام الماء وقيل له : رد كعب فانك وراد فمات قبل ان يرد ونجا رفيقه ، ومن قول ابي تمام :

هُوالْبَحْرُ مِنْ أيِّ النواحِي أَتيْتَهُ ... فَلُجّتُهُ المَعْروفُ والجُودُ ساحِله

كريمٌ إِذا ماجِئْتَ لِلْعُرْفِ طالِباً ... حَباكَ بِمَا تَحْوي عَلَيْهِ أَنامِلُه

فلَوْ لَمْ يَكنْ في كَفِّهِ غيْرُ نَفْسِهِ ... لجَادَ بِها فلْيَتّقِ اللهَ سائِلُه

وللبحتري :

لَوْ انّ كَفكَ لَمْ تَجُدْ لِمُؤَمِّلٍ ... لَكَفاهُ عاجِلُ وَجْهِكَ المُتَهَلّلُ

ولَوْ انّ مَجْدَكَ لَمْ يَكنْ مُتَقادِماً ... أغْناكَ آخِرُ سُودَدٍ عَنْ أوّل

ولبكر بن النطاح في ابي دلف :

بَطَلٌ بِصَدْرِ حُسامِهِ وسِنانِهِ ... أَجلانِ مِنْ صَدْرٍ ومِنْ إِيرادِ

وَرِثَ المَكارِمَ وابْتَناها قَاسِمٌ ... بِصَفائِحٍ وأَسِنّةٍ وجِيادِ

يا عِصْمَةَ الْعَرَبِ التي لَوْ لَمْ تكنْ ... حَيًّا إذا كانَتْ بغيْرِ عِمادِ

إِنّ الْعُيونَ إِذا رَأَتكَ حِدادُها ... رَجَعَتْ مِنَ الإجلالِ غيْرَ حِدادِ

وإذا رَمَيْتَ الثغرَ مِنْكَ بعَزْمَةٍ ... فَتّحْتَ مِنْهُ مَواضِعَ الأسْدادِ

وكأنّ رُمْحَكَ مُنْقَعٌ في عُصْفُرٍ ... وكأنّ سيفَكَ سُلّ مِنْ فِرْصاد

لَوْ صالَ مِنْ غَضَبٍ أبو دُلَفٍ عَلى ... بِيضِ السُّيوفِ لَذُبْنَ في الأغمادِ
أوْرَى ونَوَّرَ للعداوَةِ والهَوَى ... نارَيْنِ نارَ دَمٍ ونارَ زِنادِ

قال أبو هفان : أنشدت هذه الابيات عبدالعزيز بن ابي دلف بسر من رأى فقال : هل سمعت بمثل هذه الابيات ؟ قلت : لا ، قال : ولغيره في ابي دلف :

ولَوْ يَجوزُ لقالَ النّاسُ كُلُّهُمُ ... لَوْلا أبو دُلَفٍ ما أوْرَقَ الشجَرُ

قــال ابن يحيى النديم : دعاني المتوكل ذات يوم وهو مخمور فقال : أنشدني قول عمارة في أهل بغداد فانشدته :

مَنْ يَشتَري مِني مُلوكَ مُخَرَّمٍ ... أبِعْ حَسَناً وابْنَيْ هِشامٍ بِدِرْهَمِ
وأُعطِي رَجاءً بَعْدَ ذاكَ زِيادَةً ... وأَمْنَحُ دِيناراً بِغَيْرِ تَنَدُّمِ
فإنْ طَلَبوا مِني الزِيادَةَ زِدْتُهُمْ ... أبا دُلَفٍ والمُسْتَطيلَ بْنَ أكثَمِ

فقال المتوكل : ويلي علي ابن البوال على عتبيه يهجو شقيق دولة العباس قال فهل عندك من المدح في ابي دلف القاسم بن عيسى شيء ؟ قلت يا أمير المؤمنين قول الاعرابي الذي يقول فيه :

أبا دُلَفٍ إنَّ السماحَةَ لَمْ تَزَلْ ... مُغَلَّلَةً تَشكو إلى اللهِ غُلَّها
فَبَشَّرَها ربي بِمِيلادِ قاسِمٍ ... فأرْسَلَ جِبْريلاً إلَيْها فَحَلَّها

وقال غيره :

حُـرٌّ إذا جِئْتَهُ يَوْماً لِتَسأَلَهُ ... أعْطاكَ ما مَلَكَتْ كَفاهُ واعْتَذَرا
يُخْفي صَنائِعَهُ واللهُ يُظْهِرُهـا ... إنَّ الجَميلَ إذا أخْفَيْتَهُ ظَهَـرا

وقال آخر :

فَتىً عاهَدَ الرَّحمنَ في بَذلِ مالِه فليسَ تَراهُ الدَّهرَ إلاَّ على العَهْدِ
فتىً قَصُرَتْ آمالُهُ عَنْ فعالِهِ
وليسَ على الحُرِّ الكريمِ سوى الجَهْدِ

وقال آخر :

إذا ما أتاهُ السائلونَ تَوَقَّدَتْ عليهِ مَصابيحُ الطَّلاقةِ والبِشْرِ
لهُ في ذُرى المَعْروفِ نُعمى كأنَّها مَواقِعُ ماءِ المُزْنِ في البَلدِ القَفْرِ

وقال آخر :

عادَ السُّرورُ اليْكَ في الأعيادِ وَسَعِدْتَ مِنْ دُنياكَ بالإسْعادِ
رِفقاً بعَبْدٍ جَلَّ ما أوْلَيْتَهُ رفقاً فَقدْ أثقَلْتَهُ بأيادِي
مَلأَ النُّفوسَ مَهابةً ومَحَبَّةً بَدْرٌ بَدا مُتَغَمِّراً بسَوادِ
ما إنْ أرَى لكَ مُشْبِهاً فيمَنْ أرَى إنَّ الكِرامَ قليلةُ الأنْدادِ

وقال في ابن أبي دؤاد :

بَدا حينَ أثْرَى بإخوانِهِ فَفَلَّلَ عَنهُمْ شَباةَ العَدَمْ
وَحَذَّرَهُ الحَزْمُ صَرْفَ الزَّمانِ فَبادَرَ قَبلَ انتقالِ النِّعَمْ
فليسَ وإنْ بَخِلَ الباخلو نَ يَقْرَعُ سِنًّا لهُ مِنْ نَدَمْ
ولا يَنكُتُ الأرضَ عندَ السُّؤالِ ليَمْنَعَ سُؤَّالَهُ عَنْ نَعَمْ

ويروى في الحديث : أنه لا يجتمع الشح والايمان في قلب عبد صالح أبداً . ويقولون : الشحيح أغدر من الظالم أقسم الله بعزته لا يساكنه بخيل في جنته . وقال النبي ﷺ (من فتح له باب من الخير فلينتهزه فانه لا يدري متى يغلق عنه) . وقال الشاعر في ذلك :

لَيْسَ في كُلِّ ساعةٍ وأوانِ　　تَتهيّا صَنائِعُ الاحْسانِ
فإذَا أمكَنَتْ تقَدّمْتُ فيهـا　　حَذَراً منْ تَعذُّر الإمكانِ

وذكر عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه : أن أمير المؤمنين علياً صلوات الله عليه بعثه إلى حكيم بن حزام بن خويلد يسأله مالا فانطلق به إلى منزله فوجد في الطريق صوفاً فأخذه ومر بقطعة كساء فأخذها فلما صار الى المنزل أعطاه طرف الصوف فجعل يفتله حتى صيره خيطا ، ثم دعا بغرارة مخرقة فرقعها بالكساء وخيطها بالخيط وصر فيها ثلاثين ألف درهم فحملت معه . قال : وأتى قوم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري رحمه الله يسألونه في حمالة فصادفوه في حائط له يتتبع ما يسقط من الثمر فيعزل جيده ورديئه على حدة فهموا بأن يرجعوا عنه وقالوا : ما نظن عنده خيرا ثم كلموه فأعطاهم فقال رجل من القوم . لقد رأيناك تصنع شيئاً لا يشبه فعالك فقال وما ذاك ؟ فأخبروه فقال : إن الذي رأيتم يئول الى اجتماع ما ينفع وينمو . ومنها قيل : الذود الى الذود إبل وأنشدوا :

رُبَّ كبيرٍ هاجَهُ صَغِيرُ　　وفي البُحُورِ تُغرَقُ البُحُورُ

وقال آخر :

قدْ يَلْحَقُ الصَّغِيرُ بالجَلِيلِ　　وإنَّمَا القَرْمُ مِنَ الأفِيلِ
وسُحُقُ النّخْلِ منَ الفَسِيلِ

قال : وأتى رجل طلحة بن عبيد الله فسأله حمالة فرآه يهنأ بعيراً له فقال : يا غلام أخرج اليه بدرة فقبضها وقـــال : أردت أن أنصرف حين رأيتك تهنأ البعير فقال : انا لا نضيع الصغير ولا يتعاظمنا الكبير .

١٨ ــ مساوي البخل

المثل السائر في البخل : هو أبخل من مادر ، وهو رجل من بني هلال ابن عامر بلغ من بخله أنه كان يسقي ابله فبقي في أسفل الحوض ماء قليل فسلح فيه ومدر الحوض به فسمى مـــادراً . وذكروا أن بني هلال وبني فزارة تنافروا الى أنس بن مدرك وتراضوا به ، فقـــالت بنو هلال : يا بني فزارة أكلتم أير الحمار ، فقالت بنو فزارة : لم نعرفه ، وكان سبب ذلك أن ثلاثة اصطحبوا : فزاري ، وثعلبي ، وكلابي ، فصادفوا حمـــار وحش ومضى الفزاري في بعض حوائجه فطبخا وأكلا وخبأ للفزاري أير الحمار فلما رجع قالا : قد خبأنالك حقك فكل ، فأقبل يأكل ولا يسيغه ، فجعلا يضحكان : ففطن وأخذ السيف وقام اليهما وقال : لتأكلان منه أو لأقتلنكما فامتنعا فضرب أحـــدهما فقتله وتناوله الآخر فأكل منه ، فقال فيهم الشاعر :

نَشَدْتُكَ يا فَزَارَ وأنتَ شيْخٌ ... إذا خُيِّرْتَ تُخطىءُ في الخِيارِ

أَصَيْحانيَّـةٌ أُدِمَتْ بسَمْنٍ ... أَحبُّ إليـكَ أَمْ أيْرُ الحِمارِ

بَلى أيْرُ الحِمارِ وخُصْيَتَاهُ ... أَحبُّ إلى فَزارَةَ منْ فَزَارِي

فقالت بنو فزارة : منكم يا بني هلال من سقى ابله فلما رويت سلح في الحوض ومدره بخلا فنفرهم أنس بن مدرك عـــلى الهلاليين فأخذ الفزاريون منهم مائة بعير ، وكانوا تراهنوا عليها ، وفي بني هلال يقول الشاعر :

ولكِنْ يُرَى مُشْرِقاً وَجْهُهُ ... ليُرْغِمَ في مالهِ منْ رَغِمْ

لقدْ جلَّلَتْ خزياً هِلالُ بنُ عامرٍ بني عامرٍ طُرّاً بسَلْحةِ مادرِ
فأُفٍّ لكُمْ لا تذكُروا الفخْرَ بعدَها
بني عامرٍ أنْتُمْ شِرارُ العَشائِرِ

وفي المثل . هو أبخل من أبي حباحب ، وهو رجل في الجاهلية بلغ من بخله أنه كان يسرج السراج فاذا اراد أحد أن يأخذ منه أطفأه ، فضرب به المثل . ومنهم صاحب نجيح بن سلكة اليربوعي فانه ذكر : أن نجيحاً اليربوعي خرج يوماً يتصيد فعرض له حمار وحش فاتبعه حتى دفع الى أكمة فاذا هو برجل اعمى أسود قاعد في أطمار بين يديه ذهب وفضة ودر وياقوت فدنا منه فتناول بعضها ولم يستطع ان يحرك يده حتى القاه ، فقال : يا هذا ما هذا الذي بين يديك وكيف يستطاع أخذه وهل هو لك أم لغيرك فاني أعجب مما أرى اجواد انت فتجود لنا أم بخيل فأعذرك ؟ فقال الاعمى : اطلب رجلا فقد منذ سنين وهو سعد بن خشرم بن شماس فأتني به نعطك ما تشاء . فانطلق ، نجيح مسرعاً قد استطير فؤاده حتى وصل الى قومه ودخل خباءه ووضع رأسه فنام لما به من الغم لا يدري من سعد ابن خشرم فأتاه آت في منامه فقال له : يا نجيح ان سعد بن خشرم في حي بني محلم من ولد ذهل بن شيبان ، فسأل عن بني محلم ثم سأل عن خشرم بن شماس فاذا هو بشيخ قاعد على باب خبائه فحياه نجيح فرد عليه السلام ، فقال له نجيح : من أنت ؟ قال : أنا خشرم بن شماس ، قال له : فأين ولدك سعد ؟ قال خرج في طلب نجيح اليربوعي وذلك أن آتياً أتاه في منامه فحدثه أن مالا له في نواحي بني يربوع لا يعلم به الا نجيح اليربوعي ، فضرب نجيح فرسه ومضى وهو يقول :

أيطلُبني مَنْ قدْ عَناني طِلابُهُ فيا ليْتني أَلْقاكَ سَعْدَ بنَ خَشْرَمِ

أتيتَ بني يَربوعَ تَبغِي لِقاءَنا وجِئتُ لِكَيْ أَلقاكَ حَيٌّ مُحلِّمِ

فلما دنا من محلته استقبله سعد ، فقال له نجيح : أيهـــا الراكب هل لقيت سعدا في بني يربوع ؟ قال : أنا سعد فهل تدل على نجيح ؟ قال : أنا نجيح وحدثه بالحديث ، فقال : الدال على الخير كفاعله – وهو أول من قالها – فانطلقا حتى أتيا ذلك المــــكان فتوارى الرجل الاعمى عنهما وترك المال فأخذه سعد كله ، فقال نجيح : يا سعد قاسمني ، فقال له اطوعني وعن مالي كشحا ، وأبى ان يعطيه شيئاً فانتضى نجيح سيفه فجعل يضربـه حتى برد ، فلما وقع قتيلا تحول الرجل الحافظ للمال سعلاة ، فأسرع في أكل سعد وعاد المال الى مكانه ، فلما رأى نجيح ذلك ولى هارباً الى قومه . قيل : وكان أبو عبس بخيلا وكان اذا وقع الدرهم في يده نقره باصبعـــه ثم يقول كم من مدينة قد دخلتها ويد قد وقعت فيها الآن استقر بك القرار واطمأنت بك الدار ، ثم يرمي به في صندوقه ، فيكون آخر العهد به قيل : ونظر سليمان بن مزاحم الى درهم فقال في شق : لا اله إلا الله ، وفي شق : محمد رسول الله ما ينبغي أن تكون الا معاذة وقذفه في صندوقـه . وذكروا أنه كان بالري عامل على الخراج يقال له المسيب ، فأتاه شاعر يمتدحه فلم يعطه شيئاً ، ثم سعل سعلة فضرط ، فقال الشاعر :

أتيتُ المسيَّبَ في حاجـةٍ فما زالَ يَسعُلُ حـتى ضَرَط
فقال غَلِطْنا حِسابَ الخَراج فقلتُ مِنَ الضَّرْطِ جاءَ الغَلَطْ

فما زالوا يقولون ذلك حتى هرب منها من غير عزل . قال : وكتب أرسطاطاليس الى رجل بشيء فلم يفعل فكتب اليه : ان كنت أردت فلم تقدر فمعذور ، وان كنت قدرت ولم ترد فسيأتيك يوم تريد فيه فلا تقدر.

قال : وسمع أبو الأسود الدؤلي رجلا يقول : من يعشي الجـائع ؟

فعشاه ثم قام الرجل ليخرج فقال : هيهات تخرج فتؤذي الناس كما آذيتني ، ووضع رجله في الادهم حتى أصبح . قال : وكان رجل يأتي ابن المقفع فيلح عليه وسأله أن يتغذى عنـــده ويقول : لعلك تظن أني أتكلف لك شيئاً والله لا أقدم لك الا ما عندي ، فلما أتاه لم يجد في بيته الا كسراً يابسة وملح جريش . وجاء سائل الى الباب فقال له : وسع الله عليك ، فلم يذهب فقال : والله لئن خرجت اليك لأدقن رأسك ، فقال ابن المقفع للسائل : ويحك لو عرفت من صدق وعيده ما أعرف من صدق وعـــده لم تزد كلمة ولم تقم طرفة عين ! قـــال : وكتب ابراهيم بن سيابة الى صديق له كثير المال يستسلفه ، فكتب اليه : العيال كثير والدخل قليل والمال مكذوب عليه فكتب اليه : ان كنت كاذباً فجعلك الله صادقـاً ، وان كنت صادقـــاً فجعلك الله معذوراً . وكتب آخر الى آخر يصف رجلا : أما بعد فانك كتبت تسأل عن فلان كأنك هممت به أو حدثتك نفسك بالقدوم اليه فلا تفعل ، فان حسن الظن بـــه لا يقع في الوهم الا بخذلان الله ، والطمع فيما عنده لا يخطر على القلب الا بسوء التوكل على الله ، والرجاء فيما في يده لا ينبغي الا بعد اليأس من رحمة الله انه يرى الايثار الذي يرضى به التبذير الذي يعاقب عليه والاقتصاد الذي أمر به الاسراف الذي يعاقب عليه ، وان بني اسرائيل لم يستبدلوا العدس والبصل بالمن والسلوى الا لفضل أخلاقهم وقديم علمهم ، وان الصنيعة مرفوعـة ، والصلة موضوعة ، والهبة مكروهة ، والصدقة منحوسة ، والتوسع ضلالة ، والجود فسوق ، والسخاء من همزات الشياطين ، وان مواساة الرجال من الذنوب الموبقة والافضال عليهم من احدى الكبائر ؛ وأيم الله انـــه يقول إن الله لا يغفر أن يؤثر المرء في خصاصة على نفسه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن آثر على نفسه فقد ضل ضلالا بعيداً كأنـــه لم يسمع آبالمعروف الا في الجاهلية الذين قطع الله أدبارهم ونهى المسلمين عن اتبـــاع ثارهم وأن الرجفة لم تأخذ أهـــل مدين الا لسخاء كان فيهم ولا أهلكت

الربح عاداً الا لتوسع كان منهم ، فهو يخشى العقاب على الانفـاق ويرجو الثواب على الاقتار ويعد نفسه خاسر او يعدها الفقر ويأمرها بالبخل خيفة أن تمر به قوارع الدهر وأن يصيبه ما أصاب القرون الاولى فأقم رحمك الله مكانك واصطبر على عسرك عسى الله أن يبدلنـــا واياك خيرا منه زكاة وأقرب رحما . ولبعض الكتاب أما بعد فان كثير المواعيد من غير نجح عار على المطلوب اليه وقلتها مع نجح الحاجة مكرمة من صاحبهـــا ، وقد رددتنا في حاجتنا هذه في كثرة مواعيدك من غير نجح لهـا حتى كأنا قد رضينا بالتعلل لها دون النجاح كقول القائل :

لاتجْعلَنّا ككَمُّونٍ بمَزْرَعَةٍ إنْ فاتَهُ الماءُ أرْوَتْهُ المواعِيدُ

وكتب آخر : ما رأيت مثل طيب قولك أمره سوء فعلك ، ولا مثل بسط وجهك خالفه طول تنكيدك ، ولا مثل قرب عدتك باعدها افراط مطلك ، ولا مثل أنس مذاهبك أوحش منه اختبار عواقبك حتى كأن الدهر أودعك لطيف الحيلة بالمكر أهل الحلة وكأنه زينك فيـــه بالخديعة لتدرك منهم فرصة الهلكة . وقد قيل : وعد الكريم نقد وتعجيل ، ووعد اللئيم مطل وتأجيل . وقال بعضهم : وعدتنا مواعيد عرقوب ، ومطلتنا مطل نعاس الكلب ، وغرتنـا غرور السراب ؛ ومنيتنا أمـــاني الكمون . ولبعضهم : أما بعد فلا تدعني مماتنا بوعدك فالعذر الجميل أحسن من المطل الطويل ، فان كنت تريد الانعام فأنجح وان تعذرت الحاجة فأوضح وأعلمني ذلك لأصرف وجـه الطلب الى غيرك . وذكروا أن فتى من مراد كان يختلف الى عمرو بن العاص فقال له ذات يوم : ألك امرأة ؟ قـــال : لا قال : فتزوج وعلي المهر ، فرجع الى أمه فأخبرها الخبر فقالت :

إذا حَدَّثتْكَ النَّفسُ أنكَ قادِرٌ على ماحوَتْ أيْدِي الرِّجالِ فكذِّبِ

فتزوج وأتى عمرو بن العاص فاعتل عليه ولم ينجز وعـــده فشكا ذلك

الى أمه فقالت :

لا تَغْضَبَنَّ على امرىءٍ في مالهِ   وعلى كرائمِ حُرِّ مالِكَ فاغْضَبِ

ووصف أعرابي رجلا فقال له : بشر مطمع ومطل مؤيس وكنت منه أبدا بين الطمع واليأس لا بذل سريح ولا مطل مريح ، وقال أعرابي : أنا من فلان في أماني تهبط العصم وخلف يذكر العدم ، ولست بالحريص الذي اذا وعده الكذوب علق نفسه لديه وأتعب راحلته اليه ، وذكر أعرابي رجلا فقال له : مواعيد عواقبها المطل وثمارها الخلف ومحصولها اليأس ويقال سرعة اليأس أحد النجحين ، وقال بعضهم : مواعيد فلان مواعيد عرقوب ، ولمع الآل وبرق الخلب ، وأماني الكون ونار الحباحب ، وصلف تحت الراعدة ، ومما قيل في ذلك :

أَرُوحُ وأَغْدُو نَحْوكُمْ في حَوائجي
فأُصْبِحُ فيهَا غَدْوَةً كالذي أُمْسِي
وقَدْ كُنتُ أرْجُو للصَّديقِ شَفاعَتي
فقَدْ صِرْتُ أرْضَى أنْ أُشَفَّعَ في نَفْسي

ولأبي نواس :

وعَدْتني وعْدكَ حتّى إذَا   أَطْمَعْتني في كَنْزِ قارُونِ
جِئْتَ مِنَ اللّيْل بغسَّالةٍ   تَغسِلُ ما قلتَ بصابُونِ

ولأبي تمام :

يَحْتاجُ مَنْ يَرْتجي نَوالَكمُ   إلى ثلاثٍ مِنْ غيْرِ تكْذيبِ

كُنوزِ قارونَ أنْ تكونَ لَهُ وعُمْرِ نوحٍ وصَبْـرِ أيُّوبِ

وقال آخر :

إنِّي رأيتُ مِنَ المكارمِ حَسْبُكم أنْ تلبَسُوا خزَّ الثِّيابِ وتَشْبَعوا

وقال حسان بن ثابت :

إنِّي لَأَعجَبُ مِنْ قولٍ غُرِرْتَ بِهِ حُلوٍ يُمَدُّ إليْهِ السمْعُ والبَصَرُ

لو تَسْمَعُ العُصْمُ مِنْ صُمِّ الجبالِ بِهِ

ظَلَّتْ مِنَ الرَّاسياتِ العُصْمُ تنحَدِرُ

كالخمْرِ والشَّهْدِ يَجري فوقَ ظاهِرِهِ

وما لِباطِنِهِ طَعْمٌ ولا خبَرُ

وكالسَّرابِ شَبيهاً بالغَديرِ وإنْ تَبْغِ السرابَ فلا عَيْنٌ ولا أثَرُ

لا ينبُتُ العُشْبُ عَنْ بَرْقٍ وراعِدَةٍ

غَرَّاءَ لَيْسَ لهَا سَيْلٌ ولا مَطَرُ

وقال آخر :

رأيْتُ أبا عُثمانَ يَبْذلُ عِرْضَهُ وخُبْزُ أبي عُثمانَ في أحرَزِ الحِرزِ

يَحِنُّ إلى جاراتِهِ بَعْدَ شَبْعِهِ وجاراتُهُ غَرْثَى تَحِنُّ إلى الخُبْزِ

وقال آخر :

ما كنْتُ أحسبُ أنَّ الخُبْزَ فاكِهَةٌ حتَّى نَزَلْتُ على أوْفى بنِ مَنصورِ

الحابسِ الرَّوثَ في أعفاجِ بغلتِهِ خوفاً على الحبِّ مِنْ لقطِ العصافيرِ

وقال آخر :

نوالُكَ دونَهُ خرطُ القتادِ وخبزُكَ كالثريّا في البعادِ
ترى الإصلاحَ صومَكَ لا لنسكٍ وكسرَ الخبزِ من عملِ الفسادِ
أرى عُمرَ الرغيفِ يطولُ جداً لديكَ كأنّهُ مِنْ قومِ عادِ

وقال آخر :

اللؤمُ منكَ على الطعامِ طباعُ فعيالُ بيتِكَ ما حييتَ جياعُ
وإذا يمرُّ ببابِ دارِكَ سائلٌ حملتْ عليهِ نوابحٌ وسباعُ
وعلى رغيفِكَ حيّةٌ مسمومةٌ وعلى خوانِكَ عقربٌ وشجاعُ

وقال آخر :

يا تاركَ البيتِ على الضيفِ وهارباً عنهُ مِنَ الخوفِ
ضيفُكَ قدْ جاءَ بخبزٍ لهُ فارجعْ وكنْ ضيفاً على الضيفِ
إذا اشتهى الضيفُ طبيخَ الشتا أتاهُ بالشهوةِ في الصيفِ
وإنْ دنا المسكينُ مِنْ بابِهِ شدَّ على المسكينِ بالسيفِ

وقال آخر :

رأى ضيفَكَ بالدارِ وكربُ الجوعِ يغشاهُ
على خبزِكَ مكتوباً سيكفيكهمُ اللهُ

وقال آخر :

لِأبي نوحٍ رَغيفٌ أبداً في حِجْرِ دايَه
أبداً يَمْسَحُه الدَّهْـرُ بِكِمٍّ ووِقايَه
وله كاتِبُ سِرٍّ خَطَّ فيه بِعِنايَه
فسَيَكفيكَهُمُ اللهُ إلى آخِرِ الآيَه

وقال آخر :

الخُبْزُ يُبْطِي حينَ يَدْعو بِهِ كَأنَّـه يَقدُمُ مِـنْ قافِ
ويَمْدَحُ المِلْحَ لِأَصْحابِهِ يقولُ هَذا مِلْحُ سِيرافِ
سِيَّانِ أكْلُ الخُبْزِ في دارِهِ وقَلْعُ عَيْنَيْهِ بِخُطَّافِ

وقال آخر :

فتىً لا يَغارُ على عِرْسِهِ ولَكِنْ يَغـارُ على خُبْزِهِ
فَمِنْهُ يَدُ الجودِ مَقْبوضَةٌ وكَفُّ السَّماحَةِ في عَجْزِهِ

وقال آخر :

يَصونونَ أثوابَهمْ في التُّخوتِ وأزْواجُهمْ بَذْلَةٌ في السِّكَكْ
يُنَحُّونَ مَنْ رامَ رُغْفانَهمْ ويُدْنونَ مَنْ رامَ حَلَّ التِّكَكْ

وقال آخر :

أمَّا الرَّغيفُ على الخِـوا نِ فمِنْ حَمامَاتِ الحَـرَمْ

ما إنْ يُحَسُّ ولا يُمَسُّ ولا يذاق ولا يشَمّْ
فتَراه أخضَرَ يابِساً بالي النُّقوشِ مِنَ الهرَمْ

وقال آخر :

أتينا أبا طَاهرٍ مفطِرينَ إلى دارِه فَرجَعنَا صياما
وجاءَ بخُبْزٍ له حامِضٍ فقلتُ دعُوهُ وموتوا كِراما

وقال آخر :

يَبْخَلُ بالماء ولوْ أنّه منغَمِسٌ في وَسَطِ النِّيلِ
شُحًّا فلا تَطْمَعُ في خبْزِهِ ولَوْ تَشَفَّعْتَ بِجِبْرِيلِ

وعن حذيفة بن محمد الطائي قال : قال الرشيد ما لأحد من المولدين ما لأبي نواس في الهجاء :

وما رَوَّحتَنا لِتَذُبَّ عنّا ولكِنْ خِفْتَ مَرْزِئَةَ الذُّبابِ
شَرابُكَ كالسَّرابِ إذا الْتَقَيْنا وخُبْزُكَ عِنْدَ مُنْقطِعِ التُّرابِ

وقال آخر :

خانَ عَهْدي عَمْرٌو وما خُنْتُ عَهْدَهْ وجَفاني وما تَغَيَّرْتُ بَعْدَهْ
لَيْسَ لي ما جَنَيْتُ ذَنْبٌ إليهِ غيْرَ أنّي يَوْماً تَغَدَّيْتُ عِنْدَهْ

وقال الخليل بن احمد العروضي الازدي :

فكَفّاهُ لمْ تُخلَقا للنَّدى ولمْ يَكُ بخْلُهما بِدْعَه
فكَفٌّ على الخبْزِ مَقْبوضَةٌ كما نَقَصَتْ مائةٌ تِسعَه

وكفٌّ ثلاثةٌ آلافِهـا وتسعُ مِئيها لَها شِرْعَه (١)

وقال ابن ابي البغل :

وكلُّ مَنْ أجتديه في بَلَدٍ أرومُ مِمَّا لَدَيْه في صَفَدِ
يَعقِدُ لي باليَسارِ أرْبَعةً مَنقوصَةً تِسعَةً إلى العَدَدِ

وقال آخر :

أَتَيْتُ أبا عَمرٍو أرَجّي نَوالَه فَزادَ أبو عَمْرٍو على حَزَني حُزْنا
فكنْتُ كباغِي القَرْنِ أسلَمَ أذْنَه فآبَ بِلا أُذْنٍ ولمْ يَستَفِدْ قَرْنا

١٩ ـ محاسن الشجاعة

قيل : كان باليمامة رجل من بني حنيفة يقال له جحدر بن مالك ، وكان لسنا فاتكا شجاعا شاعراً ، وكان قد أبر على أهل هجر وناحيتها فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف فكتب الى عامل اليمامة يوبخه بتلاعب جحدر بـــه ويأمره بالتجرد في طلبه حتى يظفر به ، فبعث العامل الى فتية من بني يربوع بن حنظلة ، فجعل لهم جعلا عظيما ان هم قتلوا جحدراً أو أتوه به أسيراً ، ووعدهم ان يوفدهم الى الحجاج ويسني فرائضهم ، فخرج الفتية في طلبه حتى اذا كانوا قريبا منه بعثوا اليه رجلا منهم يريه انهم يريدون الانقطاع اليه والتحرم به فوثق بهم واطمأن اليهم ، فبينما هم على ذلك اذ شدوه وثاقـــا وقدموا به

(١) قلت في هامش الاصل ما نصه وذكر جعفر بن محمد التميمي في كتابه « الجامع في اللغة » الشرعة المثل يقال : هذا شرعة ذاك اي مثله وعلى هـــذا تأولوا قول الخليل رحمه الله فكف وذكر الابيات الثلاثة ثم قال يريد مثلها اي مثل الاولى وأنا ارى ان تكون شرعة هاهنا دينا وسنة قال هذا لها دينا .

الى العامل فبعث به معهم الى الحجاج ، وكتب يثني على الفتية . فلما قدموا على الحجاج قال له : أنت جحدر ؟ قال : نعم قال : ما حملك على ما بلغني عنك قال : جراءة الجنان ، وجفوة السلطان ، وكلب الزمان ، قال : وما الذي بلغ من أمرك فيجترىء جنانك ويصلك سلطانك ولا يكلب زمانك ؟ قال : لو بلاني الأمير لوجدني من صالحي الأعوان وبهم الفرسان وممن أوفى على أهل الزمان . قال الحجاج : إنا قاذفوك في قبة فيها أسد فان قتلك كفانا مئونتك ، وان قتلته خليناك ووصلناك قال : قد أعطيت أصلحك الله الأمنية وأعظمت المنة ، وقربت المحنة ، فأمر به فاستوثق منه بالحديد وألقي في السجن ، وكتب الى عامله بكسكر يأمره أن يصيد له أسدا ضاريا فلم يلبث العامل ان بعث اليه بأسد ضاريات قد أبرت على أهل تلك الناحية ، ومنعت عامة مراعيهم ومسارح دوابهم ، فجعل منها واحدا في تابوت يجر على عجلة ، فلما قدموا به على الحجاج أمر فألقي في حيز وأجيع ثلاثا ، ثم بعث الى جحدر فأخرج وأعطي سيفا ودلي عليه فمشى الى الأسد ، وأنشأ يقول :

لَيْثٌ ولَيثٌ في مكانٍ ضَنْكِ   كِلاهمـا ذو أنفٍ ومَحْكِ
وَصوْلَةٍ في بَطْشَةٍ وفَتْكِ   إنْ يكْشِفِ اللهُ قناعَ الشَّكِّ
وظَفَراً بجُؤْجُـؤٍ وبَرْكِ   فهُوَ أحـقُّ منزلٍ بتَرْكِ
الذِّئبُ يَعْوِي والغُرابُ يبكي

حتى اذا كان منه على قدر رمح تمطى الأسد وزأر وحمل عليه ، فتلقاه جحدر بالسيف فضرب هامته ففلقها وسقط الأسد كأنه خيمة قوضتها الريح فانثنى جحدر وقد تلطخ بدمه لشدة حملة الاسد عليه وكبر الناس ، فقال

الحجاج : يا جحدر ان احببت أن ألحقك ببلادك وأحسن صحبتك وجائزتك فعلت بك وان أحببت أن تقيم عنـــدنا أقمت فأسنينا فريضتك . قال : أختار صحبة الامير ، ففرض له ولجماعة أهل بيته وأنشأ جحدر يقول :

يا جُمْلُ إنّكِ لَوْ رأيْتِ بَسالَتي في يَوْمِ هَيْجٍ مُرْدِفٍ وعَجاجِ
وتقدُّمي للّيْثِ أرْسُفُ نَحْوَه حتّى أُكابدَهُ على الإحْراجِ
جَهْمٌ كأنَّ جَبينَهُ لمّا بَـدا طَبَقُ الرَّحى مُتفجِّرُ الأثْباجِ
يَرْنو بناظِرَتَيْنِ تَحْسِبُ فيهما مَنْ ظَنَّ خالَهما شُعاعُ سِراجِ
شَثْنٌ بَراثِنُه كأنَّ نُيوبَهُ زُرْقُ المعاولِ أوْ شَذاةُ زِجاجِ
وكأنّما خِيطت عليْه عَباءَةٌ بَرْقاءُ أوْ خَلَقٌ مـن الديباجِ
قِرْنانِ مُحتَضِرانِ قدْ رَبَّتْهُما أُمُّ المَنِيَّةِ غيرُ ذاتِ نِتاجِ
وعَلِمْتُ أنّي إنْ أبيْتُ نِزالَهُ أنّي من الحَجّاجِ لَسْتُ بِناجِ
فمَشَيْتُ أرْسُفُ في الحديدِ مُكَبَّلاً
بالمَوْتِ نفسي عِنْدَ ذاكَ أُناجي
والنّاسُ مِنْهمْ شامِتٌ وعِصابَةٌ عَبَراتُهمْ لي بالحُلوقِ شَواجي
ففَلَقْتُ هامَتَهُ فخَرَّ كأنّهُ أُطُمٌ تَقَوَّضَ مائِلُ الأبْراجِ
ثُمّ انْثَنَيْتُ وفي قَميصي شاهِدٌ مِمّا جَرى من شاخِبِ الأوْداجِ
أيْقَنتُ أنّي ذو حِفاظٍ ماجِدٌ مِنْ نَسْلِ أمْلاكٍ ذَوي أتْواجِ
فلَئِنْ قَذَفْتُ إلى المَنِيَّةِ عامِداً إنّي لِخَيْرِكَ بَعدَ ذلِكَ راجي

عَلِمَ النِّساءُ بأنّني لا أُنْثَني (١) إذ لا يَثِقْنَ بِغَيْرَةِ الأَزْواجِ

وحكي عن الطفيل بن عامر العمري قال : خرجت ذات يوم أريد الغارة وكنت رجلا أحب الوحدة ، فبينا أنا أسير اذ ضللت الطريق الذي أردته فسرت أياما لا أدري أين أتوجه حتى نفد زادي ، فجعلت آكل الحشيش وورق الشجر حتى أشرفت على الهلاك ويئست من الحياة ، فبينا أنا أسير اذ أبصرت قطيع غنم في ناحية من الطريق ، فملت اليها واذا شاب حسن الوجه فصيح اللسان فقال لي : يابن العم أين تريد ؟ فقلت : أردت حاجة لي في بعض المدن وما أظنني الا قد ضللت الطريق فقال : أجل ! ان بينك وبين الطريق مسيرة أيام فانزل حتى تستريح وتطمئن وتريح فرسك ، فنزلت فرمى لفرسي حشيشاً وجاء إلي بتريد كثير ولبن ثم قام الى كبش فذبحه وأجج ناراً وجعل يكبب لي ويطعمني حتى اكتفيت ، فلما جننا الليل قام وفرش لي وقال : قم فارم بنفسك فان النوم أذهب لتعبك ، وأرجع لنفسك ، فقمت ووضعت رأسي فبينا أنا نائم اذ أقبلت جارية لم تر عيناي مثلها قط حسناً وجمالا ، فقعدت الى الفتى وجعل كل واحد منهما يشكو الى صاحبه ما يلقى من الوجد به ، فامتنع على النوم لحسن حديثهما ، فلما كان في وقت السحر قامت الى منزلها ، فلما أصبحنا دنوت منه فقلت له : ممن الرجل ؟ قال : أنا فلان بن فلان ، فانتسب لي فعرفته فقلت له : ويحك ! ان أباك لسيد قومه فما حملك وضعك نفسك في هذا المكان ؟ فقال : أنا والله أخبرك كنت عاشقا لابنة عمي هذه التي رأيتها ، وكانت هي أيضاً لي وامقة ، فشاع خبرنا في الناس ، فأتيت عمي فسألته أن يزوجنيها فقال : يا بني والله ما سألت شططا وما هي بآثر عندي منك ، ولكن الناس قد تحدثوا بشيء ، وعمك يكره المقالة القبيحة ، ولكن انظر غيرها في قومك حتى يقوم عمك بالواجب لك ، فقلت : لا حاجة لي فيما

---

(١) – المشهور في رواية البيت (ممن يغار على النساء حفيظة) البيت الخ .

ذكرت وتحملت عليه بجماعة من قومي فردهم ، وزوجها رجلا من ثقيف له رياسة وقدر فحملها الى ههنا — وأشار بيده الى خيم كثير بالقرب منا — . فضاقت علي الدنيا برحبها ، وخرجت في أثرها ، فلما رأتني فرحت فرحاً شديداً فقلت لها : لا تخبري أحـداً أني منك بسبيل ، ثم أتيت زوجها وقلت . انا رجل من الأزد أصبت دما وأنا خائف ، وقد قصدتك لمـا أعرف من رغبتك في اصطناع المعروف ، ولي بصر بالغنم ان رأيت أن تعطيني من غنمك شيئاً فأكون في جوارك وكنفك فافعل . قـال : نعم وكرامة : فاعطاني مائة شاة وقال لي : لا تبعد بها من الحي ، وكانت ابنة عمي تخرج الي كل ليلة في الوقت الذي رأيت وتنصرف ، فلما رأى حسن حال الغنم اعطاني هذه فرضيت من الدنيا بما ترى قال : فأقمت عنده أياما ، فبينا أنا نائم اذ نبهني وقال : يا أخا بني عامر قلت له : ما شأنك ؟ قال : ان ابنة عمي قد أبطأت ولم تكن هذه عادتها ووالله ما أظن ذلك إلا الأمر حادث ، فحدثني فجعلت أحدثه ، فأنشأ يقول :

مـا بالُ مَيةَ لا تَأْتي كَعادَتِها ... هلْ هاجَها طَرَبٌ أوْ صَدَّها شُغُلُ
لٰكِنَّ قلْبيَ لا يَعْنيهِ غيرُكُمُ ... حَتَّى المَماتِ ولا لِي غيرَكُمْ أَمَلُ
لوْ تَعْلَمينَ الذي بي مِنْ فِراقِكُمْ ... لَمَا اعْتَذَرْتِ ولا طابَتْ لَكِ العِلَلُ
نَفسي فِداؤُكِ قدْ أحْلَلْتِ بي حُرَقاً ... تَكادُ مِنْ حَرِّها الأَحْشاءُ تَنفَصِلُ
لَوْ كانَ عادِيَةٌ مِنْهُ عَلى جَبَلٍ ... لَزَلَّ وانْهَدَّ مِنْ أَرْكانِهِ الجَبَلُ

فوالله ما اكتحل بغمض حتى انفجر عمود الصبح ، وقام ومر نحو الحي فأبطأ عني ساعة ثم أقبل ومعه شيء وجعل يبكي عليه ، فقلت له : ما هذا ؟ قال : هذه ابنة عمي افترسها السبع فأكل بعضها ووضعها بالقرب مني فأوجع

والله قلبي ، ثم تناول سيفه ومر نحو الحي فأبطأ هنيهة ثم أقبل الي وعلى عاتقه ليث كأنه حمار فقلت له : ما هذا ؟ قال : صاحبي قلت : وكيف علمته ؟ قال اني قصدت الموضع الذي أصابها فيه وعلمت أنه سيعود الى ما فضل منهـــا ، فجاء قاصداً الى ذلك الموضع فعلمت أنه هو فحملت عليه فقتلته ، ثم قام فحفر في الأرض فأمعن وأخرج ثوبا جديداً وقـــال : يا أخا بني عامر اذا أنامت فأدرجني معها في هذا الثوب ، ثم ضعنا في هـذه الحفرة وهل التراب واكتب هذين البيتين على قبرنا وعليك السلام :

كُنَّا عَلى ظَهرِها وَالعَيْشُ في مَهَلٍ وَالدَّهْرُ يَجْمَعُنا وَالدَّارُ وَالوَطَنُ
فخانَنــا الدَّهرُ في تَفريقِ أُلْفَتِنا وَاليَوْمَ يَجْمَعُنا في بَطْنِها الكَفَنُ

ثم التفت الى الأسد وقال :

أَلاَ أَيُّها اللَّيْثُ المُدِلُّ بِنَفْسِه هُبِلْتَ لَقَدْ جرَّتْ يَداكَ لنا حُزْنا
وغادَرْتَني فَرْداً وَقَدْ كُنْتُ آلِفاً وَصَيَّرْتَ آفاقَ البِلادِ لَنا سِجْنا
أَأَصْحَبُ دَهْراً خــانَني بِفِراقِها مُعاذَ إِلهي أَنْ أَكونَ لَهُ خِـدْنا

ثم قال : يا أخا بني عامر اذا فرغت من شأننا فصح في أدبار هـــذه الغنم فردها الى صاحبهـــا ، ثم قام الى شجرة فاختنق حتى مات ، فقمت فأدرجتها في ذلك الثوب ووضعتها في تلك الحفرة ، وكتبت البيتين عـــلى قبرهما ، ورددت الغنم الى صاحبها وسألني القوم فأخبرتهم الخبر فخرج جماعة منهم فقـــالوا : والله لننحرن عليه تعظيما له ، فخرجوا وأخرجوا مائة ناقة وتسامع الناس فاجتمعوا الينا فنحرت ثلثمائة ناقة ثم انصرفنا . وقيل لما كان من أمر عبد الرحمن بن الاشعث الكندي مـا كان قال الحجاج اطلبوا لي

شهاب بن حرقة السعدي في الاسرى أو القتلى فطلوه فوجدوه في الاسرى فلما أدخل على الحجاج قال له : من أنت ؟ قال أنا شهاب بن حرقة قال : والله لأقتلنك قال : لم يكن الامير بالذي يقتلني قال ولم ؟ قال : لان في خصا لا يرغب فيهن الامير قال وما هن ؟ قال : ضروب بالصفيحة هزوم للكثيرة من الكتيبة أحمي الجار وأذب عن الذمار وأجود على العسر واليسر غير بطيء عن النصر قال الحجاج : ما أحسن هذه الخصال فأخبرني بأشد شيء مر عليك قال : نعم أصلح الله الامير

بينا أنا أسير * ومركبي وثير * في عصبة من قومي
في ليلتي ويومي * يمضون كالاجادل * في الحرب كالبواسل
أنا المطاع فيهم * في كل ما يليهم * فسرت خمساً عوما
وبعد خمس يوما * حتى وردت أرضا * ما ان ترام عرضا
من بلد البحرين * عند طلوع العين * فهجتهم نهارا
ألتمس المغارا * حتى اذا كان السحر * من بعد ما غاب القمر
اذا أنا بعير * يقودها خفير * موقرة متاعا
مقبلة سراعا * فصلت بالسنان * مع سادة فتيان
فسقتها جميعا * أحثها سريعا * أريد رمل عالج
أمعج بالمناهج * أسير في الليالي * خرقا بعيداً خالي
وقد لقينا تعبا * وبعد ذاك نصبا * حتى اذا هبطنا
من بعد ما صعدنا * عنت لنا بيدانه * قد كان فيها عانه
رميتها بقوسي * في مهمه كالترس * حتى اذا ما أمنعت
بالقفر ثم درمت * وردت قصراً منهلا * في جوفه طام حلا
وعنده خبيبه * في جوفها نعيمه * عزيزة كالشمس
فاقت جميع الانس * فعجت مهري عندها * حتى وقفت معها
حييت ثم ردت * في لطف وحيت * فقلت يا لعوب

والطفلة العروب * هل عندكم قراء * إذ نحن بالعراء
قالت نعم برحب * في لطف وقرب * أربع هنا عتيدا
ولا تكن بعيدا * حتى يجيئك عار * مثل الهلال زاهر
فعجت عن قريب * في باطن الكثيب * حتى رأيت عامرا
يحمل ليثا خادر * على عتيق سابح * كمثل طود اللامح

قال : وكان الحجاج متكئاً فاستوى جالساً ثم قال : ويحك دعنا من السجع والرجز وخذ في الحديث قال : نعم أيها الامير ثم نزل فربط فرسه وجمع حجارة وأوقد عليها ناراً وشق عن بطن الأسد وألقى مرافه في النار فجعلت أصاح الله الامير اسمع لحم الاسد نشيشاً فقالت له نعيمة قد جاءنا ضيف وانت في الصيد قال : فما فعل ؟ قالت ، ها هو ذاك بظهر الكثيب والخيمة ، فأومأت الي ، فأتيتها فاذا انا بغلام أمرد كأن وجهه دارة القمر فربط فرسي الى جنب فرسه ودعاني الى طعامه فلم أمتنع من أكل لحم الاسد لشدة الجوع ، فأكلت انا ونعيمة منه بعضه وأتى الغلام على آخره ، ثم مال الى زق فيه خمر فشرب ، ثم سقاني فشربت ، ثم شرب الغلام حتى أتى على آخره فبينما نحن كذلك اذ سمعت وقع حوافر خيل اصحابي فقمت وركبت فرسي وتناولت رمحي وصرت معهم ثم قلت : يا غلام خل عن الجارية ولك ما سواها فقال ويلك احفظ المهالة ، قلت لا بد من الجارية وفارس فالتفت اليها وقال لها : قفي ، ثم قال : يا فتيان هل لكم في العافية ؟ وإلا فارس وفارس فبرز اليه رجل من اصحابي فقال له الغلام : من انت ؟ فلست أقاتل من لا أعرفه ولا اقاتل الا كفؤاً أعرفه . فقال : انا عاصم ابن كلبة السعدي فشد عليه وانشد يقول :

إنّكَ يا عاصِمُ بي لَجاهِلْ إذْ رُمْتَ أمْراً أنتَ عَنْهُ ناكِلْ
إنّي كَمِيٌّ في الحُروبِ باسِلْ لَيْثٌ إذا أصطَكَّ اللُّيوثُ بازِلْ

ضَرَّابُ هاماتِ العِدَا مُنازِلْ قَتَّالُ أقرانِ الوَغى مُقاتِلْ

ثم طعنه فقتله وقال : يا فتيان هل لكم في العافية ؟ وإلا فارس وفارس فتقدم اليه آخر من اصحابي فقال له الغلام : من انت ؟ فقال : انا صابر ابن حرقة . فشد عليه وانشأ يقول :

إنَّكَ والإلهِ لستَ صابِرا على سِنانٍ يَجْلُبُ المَقادِرا
ومُنْصُلٍ مِثْلِ الشِّهابِ باتِرا في كَفِّ قِرْمٍ يَمْنَعُ الحَرائِرا
إنِّي إذا رُمْتُ امْرَأً فآسِرا يكونُ قِرْني في الحُروبِ بائِرا

ثم طعنه فقتله ثم قال : يا فتيان هل لكم في العافية ؟ وإلا فارس لفارس فلما رأيت ذلك هالني امره وأشفقت على اصحابي فقلت : احملوا عليه حملة رجل واحد فلما رأى ذلك أنشأ يقول :

الآنَ طابَ المَوْتُ ثُمَّ طابا إذْ تطلُبونَ رُخصَةً كِعابا
ولاَ نُريدُ بَعْدَها عِتابا

فركبت نعيمة فرسها وأخذت رمحها فما زال يجالدنا ونعيمة حتى قتل منا عشرين رجلا فأشفقت على اصحابي فقلت : يا غلام قد قبلنا العافية والسلامة فقال : ما كان أحسن هذا لو كان اولا ونزلنا وسالمنا . ثم قلت يا عامر بحق المالحة من انت ؟ قال : انا عامر بن حرقة الطائي وهذه ابنة عمي ونحن في هذه البرية منذ زمان ودهر ما مر بنا إنسي غيركم ، فقلت : من أين طعامكم ؟ قال حشرات الطير والوحش والسباع : فمن أين شرابكم ؟ قال : الخمر أجلبها من بلاد البحرين كل عام مرة أو مرتين قلت : ان معي مائة من الابل موقرة متاعا فخذ منها حاجتك فقال : لا أرب لي فيها ولو

أردت ذلك لكنت أقدر عليه فارتحلنا عنه منصرفين فقال الحجاج : الآن يا عدو الله طاب قتلك لغدرك بالفتى قـــال : كان خروجي على الامير أصلحه الله أعظم من ذلك فان عفـــا عني الامير رجوت أن لا يؤاخذني بغيره فأطلقه ووصله ورده الى بلده .

(ضـده)

قال : دخل أبو زبيد الطـــائي على عثمان بن عفان في خلافته وكان نصرانياً فقال له : بلغني أنك تجيد وصف الاسد . فقال له : لقد رأيت منه منظراً وشهدت منه مخبراً لا يزال ذكره يتجدد على قلبي قال : هات ما مر على رأسك منه قال : خرجت يا أمير المؤمنين في صيابة من أفناء قبائل العرب ذوي شارة حسنة ترتمي بنا المهاري بأكسائها القزوانيات ومعنا البغال عليها العبيد يقودون عتاق الخيل نريـــد الحارث بن أبي شمر الغساني ملك الشام ، فاخروط بنـــا المسير في حمارة القيظ حتى اذا عصبت الأفواه وذبلت الشفاه وشالت المياه وأذكت الجوزاء المعزاء وذاب الصيخد وصر الجندب وضايق العصفور الضب في وجاره قال قائلنا : أيها الركب غوروا بنا في دوح هـــذا الوادي فاذا واد كثير الدغل دائم الغلل شجراؤه مغنة وأطيار مرنة ، فحططنا رحالنا بأصول دوحات كنهبلات فأصبنا من فصلات المزاود واتبعناها بالماء البارد ، فانا لنصف حر يومنا ومماطلته ومطاولته اذ صر أقصى الخيل أذنيه وفحص الأرض بيده ، ثم ما لبث أن جال فحمحم وبال فهمهم ثم فعل فعـــله الذي يليه واحد بعد واحد فتضعضعت الخيل وتكعكعت الابل وتقهقرت البغال فمن نافر بشكاله وناهض بعقاله فعلمنا أن قد أتينا وأنه السبع لا شك فيه ففزع كل امرىء منا الى سيفه واستله من جربانه ، ثم وقفنا له رزدقـــا فأقبل يتطالع في مشيته كأنه مجنوب أو في

هجار اصدره نحيط ولبلاعيمه غطيط ولطرفه وميض ولارساغه نقيض كأنما يخبط هشيما أو يطأ صريما ، واذا هامــة كالمجن وخد كالمسن وعينان سجرا وان كأنهما سراجان يقدان وقصرة ربلة ولهذمة رهلة وكتد مغبط وزور مفرط وساعد مجدول وعضد مفتول وكف ششنة البراسن الى مخـالب كالمحاجن ، ثم ضرب بذنبه فأرهج وكشر فافرج عن أنياب كالمعاول مصقولة غير مفلولة وفم أشدق كالغار الاخرق ثم تمطى فأسرع بيديه وحفز وركيه برجليه حتى صار ظـله مثليه ، ثم أقعى فاقشعر ، ثم مثل فاكفهر ، ثم تجهم فازبأر فلا والذي بيته في السماء مـا اتقيناه بأول من أخ لنا من بني فزارة كان ضخم الجزارة فوهصه ثم أقعصه فقضقض متنه وبقر بطنه فجعل يلغ في دمه فذمرت أصحابي فبعد لأي ما استقدموا فكر فقشعر الزبرة كأن به شيهماً حوليا ، فاختلج من دوني رجـلا أعجر ذا حوايا فنفضه نفضة فتزايلت أوصاله وانقطعت أوداجه ، ثم نهم فقرقر ، ثم زفر فبربر ، ثم زأر فجرجر ، ثم لحظ ، فوالله لخلت البرق يتطـاير من تحت جفونه عن شماله ويمينه ، فارتعشت الايـدي واصطكت الارجل وأطت الاضلاع ، وارتجت الاسماع ، وحملجت العيون ، وانخزلت المتون ، ولحقت الظهور البطون ، ثم ساءت الظنون وانشأ :

عَبوسٌ شَموسٌ مُصَلْخِدٌ خُنـابِسٌ
جَريءٌ عَلى الأرْواحِ لِلْقِرْنِ قـاهِرُ

مَنيعٌ ويَحْمِي كُلَّ وادٍ يَرومُهُ شَديدُ أُصولِ الماضغَيْنِ مُكابِرُ
بَراثِنُهُ شَثْنٌ وعَيْناه في الدُّجى كَـجَمْرِ الغَضافي وَجْهِهِ الشَّرُّظاهِرُ
يُدِلُّ بِأَنْيابٍ حِـدادٍ كأنَّهـا إذا قَلَّصَ الأَشْداقَ عنها خَناجِرُ

فقال عثمان : اكفف لا أم لك ، فلقد أرعبت قلوب المسلمين ، ولقد وصفته حتى كأني انظر اليه يزبد بوائبي . وقيل في المثل : وهو أجبن من هجرس – وهو القرد – وذلك انه لا ينام الا وفي يده حجر مخافة ان يأكله الذئب . وحدثنا رجل بمكة قال : اذا كان الليل رأيت القرود تجتمع في موضع واحد ، ثم تبيت مستطيلة واحداً في أثر واحد في يد كل واحداً منهم حجر لئلا ترقد ، فيأتيها الذئب فيأكلها ، وان نام واحداً وسقط الحجر من يده فزع فتحرك الآخر فصار قدامه فلا تزال كذلك طول الليل فتصبح وقد صارت من الموضع الذي باتت فيه على ثلاثة أميال أو اكثر جبنا ، وقيل : هو اجبن من صافر ، وهو طائر يتعلق برجليه وينكس رأسه ثم يصفر ليلته كلها خوفاً من ان ينام فيؤخذ ، وقيل ايضاً : هو اجبن من المنزوف ضرطاً وكان من حديثه ان نسوة من العرب لم يكن لهن رجل فتزوجت واحدة منهن برجل كان ينام الى الضحى فاذا انتبه ضربنه وقلن له : قم فاصطبح ويقول : لو لعادية نبهتنني – اي خيل عادية عليكن مغيرة فادفعها عنكن – فلما رأين ذلك فرحن وقلن : ان صاحبنا لشجاع ثم اقبلن وقلن : تعالين نجربه فاتينه كما كن يأتينه وأيقظنه فقال : لو لعادية نبهتنني ، فقلن له : نواصي الخيل معك ، فجعل يقول : الخيل الخيل ويضرط حتى مات فضرب به المثل . وقيل لجبان : انهزمت فغضب الامير عليك ، قال : يغضب الامير وأنا حي أحب الي من ان يرضى وانا ميت . وقيل لبعض الجبان : ما لك لا تغزو ؟ قال : والله اني لابغض الموت على فراشي فكيف أمر اليه ركضاً ؟ قال : وقال الحجاج لحميد الارقط وقد أنشده قصيدة يصف فيها الحرب : يا حميد هل قاتلت قط ؟ قال : لا أيها الامير إلا في النوم قال : وكيف كانت وقعتك ؟ قال : انتبهت وأنا منهزم ، ومما قيل في ذلك من الشعر :

ظَلَّتْ تُشَجِّعُني هِنْدٌ بتَضْليلِ ولِلشَّجاعَةِ خَطْبٌ غيرُ مَجْهولِ

هاتِي شُجاعاً لِغيرِ القتلِ مصرَعُه أوجدكَ ألفَ جبانٍ غيرَ مقتولِ

الحربُ توسِعُ مَنْ يَصلي بِها حَرباً يُتْمَ العيالِ وإثكالَ المثاكيلِ

اسمُ الوغى اشتُقَّ مِنْ غَوغاءَ يُحْرِبُها

يَغدونَ لِلموتِ كالطيرِ الأبابيلِ

واللهِ لَوْ أنَّ جبريلا تكفَّلَ لي

بالنصرِ ما خاطرتْ نفسي لِجبريلِ

هَلْ غيرَ أنْ يَعذروني أنّني فشِلٌ فكلُّ هذا نعمْ فاغروا بتعزيلي

إنْ أعتذرْ مِنْ فراري في الوغى أبداً

كانَ اعتذاري رَديداً غيرَ مقبولِ

اسمعْ أخبِّركَ عَنْ بأسي بِذي سَلَبٍ

خِلافَ بأسِ المساعيرِ البهاليلِ

لمّا بدتْ منهمُ نحوي عشوزنةٌ

شمّاءُ تشرعُ في عرضي وفي طولي

فقلتُ ويحكُمُ لا ترهبوا جلدي

رُمحي كسيرٌ وسيفي غيرُ مصقولِ

لمّا اتّقيتهمُ طوعاً بذاتِ يَدِي وانصعتُ أطوي الفلا ميلاً إلى ميلِ

اللهُ خلّصني منهمْ وفلسفتي حتّى تخلّصتُ مخضوبَ السراويلِ

وقال آخر :

أضحت تشجعني هند فقلت لها إن الشجاعة مقرون بها العطب
لا والذي حجت الأنصار كعبته
ما يشتهي الموت عندي من له أرب
للحرب قوم أضل الله سعيهم إذا دعتهم إلى حوماتها وثبوا
ولست منهم ولا أهوى فعالهم لا القتل يعجبني منهم ولا السلب

وقال آخر :

يقول لي الأمير بغير جرم تقدم حين حل بنا المراس
فمالي إن أطعتك في حياة ولا لي غير هذا الرأس راس

٢٠ ـ محاسن حب الوطن

قال عمر بن الخطاب : لولا حب الوطن لخرب بلد السوء وكان يقال : بحب الاوطان عمرت البلدان ، وقال جالينوس : يتروح العليل بنسيم أرضه كما تتروح الأرض الجدبة ببل المطر . وقال بقراط : يداوى كل عليل بعقاقير أرضه فان الطبيعة تنزع الى غذائها ، ومما يؤكد ذلك قول أعرابي وقد مرض بالحضر فقيل له : ما تشتهي فقال : مخيضا رويا وضبا مشويا ، وقد قيل : أحق البلدان بنزاعك اليها بلد أمصك حلب رضاعه ، وقيل : احفظ أرضاً أرضعك رضاعها ، وأصلحك غذاؤها وارع حمى اكتنفك فناؤه . وقيل : لا تشك بلدا فيه قبائلك . وقيل من علامة الرشد أن تكون النفس الى أوطانها مشتاقة والى مولدها تواقة . وحدثنا بعض بني هاشم قال : قلت لاعرابي من أين أقبلت ؟ قال : من هذه

البادية ، قلت : وأين تسكن منها ؟ قـال : مساقط الحمى حمى ضرية ما ان لعمر الله أريد بها بدلا ولا أبتغي عنها حولا حفتها الفلوات فلا يملولح ماؤها ولا تحمى تربتها ليس فيها أذى ولا قذى ولا وعك ولا موم ونحن بأرفه عيش وأوسع معيشة وأسبغ نعمة قلت : بما طعامكم ؟ قال ؟ بخ بخ الهبيد والضباب واليرابيع مـــع القنافذ والحيات وربما والله أكلنا القـد واشتوينا الجلد ولا نعلم أحداً أخصب منا عيشا ، فالحمد لله على ما رزق من السعة وبسط من حسن الدعـــة . وقيل لأعرابي كيف تصنع بالبادية اذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظله ؟ فقال : وهل العيش إلا ذاك ؟ يمشي أحدنا ميلا فيرفض عرقا كأنه الجمان ثم ينصب عصاه ويلقي عليهـا كساه وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه في ايوان كسرى . وقال بعض الحكماء : عسرك في بلدك خير من يسرك في غربتك . وقيل لأعرابي ما الغبطة قال الكفاية ولزوم الاوطان والجلوس مع الاخوان ، وقيل : فما الذل ؟ قال : التنقل في البلدان والتنحي عن الاوطان ، وقال بعض الأدباء : الغربة ذلة والذلة قلة ، وقال الآخر : لا تنهض عن وطنك ووكرك فتنقصك الغربة وتصمتك الوحدة . وشبهت الحكماء الغريب باليتيم اللطيم الذي ثكل أبويه فلا أم ترأمه ولا أب يحدب عليه . وكان يقـــال : الغريب عن وطنه ومحل رضاعه كالغرس الذي زايل أرضه وفقد شربه فهو ذاو لا يثمر وذابل لا ينضر ، وكان يقال : الجالي عن مسقط رأسه كالعير الناشر عن موضعه الذي هو لكل رام رمية ، وأحسن من ذلك وأصدق قول الله عز وجل « ولَوْلا أنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجَلاءَ » وقـال تعالى « ولوْ أنّا كَتَبْنا عليْهِمْ أنِ اقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ أوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ مـا فَعلوهُ إلاّ قَليلٌ مِنهُمْ » فقرن جل ذكره الجلاء عن الوطن بالقتل ، وقال تقدست اسماؤه « وما لَنا ألاّ نُقاتِلَ في سَبيـــلِ اللهِ وقَدْ أُخرِجنا مِنْ دِيارِنا وأبنائِنا » فجعل القتال بإزاء الجـــلاء ، قال ﷺ (الخروج عن الوطن عقوبة) ومما قيل في ذلك من الشعر :

إذا ما ذَكَرْتُ الثَّغرَ فاضَتْ مَدامِعي
وأضحى فؤادي نُهْبَةً لِلهماهِمِ

حَنيناً إلى أرضٍ بها اخضَرَّ شارِبي وحُلَّتْ بها عَنّي عُقودُ التَّمائِمِ
وألطفُ قومٍ بالفَتى أهلُ أرضِهِ وأرْعاهُمُ لِلْمَرْءِ حَقَّ التَّقادُمِ

وقال آخر :

أحِنُّ إلى أرْضِ الحِجازِ وحاجَتي خيامٌ بِنَجْدٍ دونَها الطَّرفُ يَقْصُرُ
وما نَظَري مِن نَحْوِ نَجْدٍ بنافِعي أجَلْ لا ولَكِنّي على ذاكَ أنظُرُ
فَفي كُلِّ يومٍ نَظْرَةٌ ثُمَّ عَبْرَةٌ لِعَيْنَيْكَ يَجْري ماؤُها يَتَحَدَّرُ
مَتى يَستَرِحْ قَلْبٌ فإمّا مُحاذِرٌ حَزينٌ وإمّا نازِحٌ يَتَذَكَّرُ

وقال آخر :

نَقِّلْ فؤادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى
ما الحُبُّ إلاّ للحَبيبِ الأوَّلِ

كَمْ مَنْزِلٍ في الأرضِ يأْلَفُهُ الفَتى وحَنينُهُ أبداً لِأوَّلِ مَنْزِلِ

وقال ابن ابي السرح قرأت على حائط بيتي شعروها :

إنَّ الغَريبَ ولَوْ يَكونُ بِبَلْدَةٍ يُجْبى إليْهِ خَراجُها لَغَريبُ
وأقلُّ ما يَلقَى الغَريبُ مِنَ الأذَى
أنْ يُستَذَلَّ وأنْ يُقالَ كَذوبُ

وقال : وقرأت على حائط بعسكر مكرم :

إنَّ الْغَريبَ إذا يُنادِي موجَعاً عِنْدَ الشَّدائِدِ كان غيْرَ مُجابِ
فإذا نظَرْتَ إلى الْغَريبِ فكُنْ لَهُ مُترحِّماً لِتَباعُدِ الأَحْبابِ

وقال : وقرأت على حائط ببغداد :

غَريبُ الدّارِ ليْسَ له صديقُ جميعُ سُؤَالِهِ أيْنَ الطَّريقُ
تعَلَّقَ بالسُّؤالِ لكلِّ شَيْءٍ كَما يَتَعَلَّقُ الرَّجُلُ الغَريقُ
فلا تَجْزَعْ فكلُّ فَتىً سيأْتي على حالاتِهِ سَعَةٌ وضيقُ

قال : ووجدت على حائط باب مكتوبا :

عليْكَ سلامُ اللهِ يا خيْرَ منْزِلِ رحَلْنا وخَلَّفْناكَ غيْرَ ذميمِ
فإنْ تكنِ الأيامُ فرَّقنَ بيْننا فما أحَدٌ مِنْ رَيْبِها بسَليمِ

وقال آخر :

وإنَّ اغْتِرابَ المَرْءِ مِنْ غيْرِ حاجَةٍ ولا فاقَةٍ يَسْمو لَهـا لَعجيبُ
فحَسْبُ امْرِىءٍ ذُلاً ولوْ أدْرَكَ الْغِنى ونالَ ثَراءً أنْ يُقالَ غَريبُ

وقال آخر :

إنَّ الْغَريبَ وإنْ يَكنْ في غِبْطَةٍ لمُعَذَّبٌ وفُؤادُهُ مَحْزونُ
ومَتى يَكونُ مَعَ التَّغَرُّبِ عاشِقاً ومُفارِقاً يا رَبِّ كَيْفَ يَكونُ

وقال آخر

إنّ الغريبَ ذليلٌ أينما سلكا ... لو أنّه ملكٌ كلّ الورى مَلَكا
إذا تغنّى حمامُ الأيكِ في غُصنٍ ... حنّ الغريبُ إلى أوطانهِ فبكى

وقال آخر :

سَلِ اللهَ الإيابَ مِنَ المغيبِ ... فكم قد ردّ مثلَكَ مِنْ غريبِ
وسَلِّ الحزنَ منكَ بحُسنِ ظنٍّ ... ولا تيأسْ مِنَ الفرجِ القريبِ

وقال آخر :

تَصَبَّرْ ولا تَعجلْ وُقيتَ مِنَ الرَّدى ... لعلّ إيابَ الظّاعنينَ قريبُ
فقلتُ وفي قلبي جوًى لفراقها ... ألا لا تُصبّرني فلستُ أجيبُ

وقال آخر :

أعاذلَ حبّي للغريبِ سجيّةٌ ... وكلُّ غريبٍ للغريبِ حبيبُ
لئنْ قلتُ لمْ أجزعْ منَ البينِ إنْ مضوا ... لطيّتهمْ إنّي إذاً لكذوبُ
بلى عَبَراتُ الشوقِ أضرمتِ الحشا ... ففاضتْ لها مِنْ مُقلتيّ غروبُ

وقال آخر :

إذا اغتربَ الكريمُ رأى أموراً ... مُجلّلةً يُشيبُ لها الوليدُ

وقال آخر :

ما كنتُ أحسبُ أن يكو ... نَ كذا تفرّقُنا سريعا

بَخِلَ الزمانُ عليَّ أنْ نَبقى كما كُنّا جميعا
فأحلّني في بلدةٍ وأحلّكَ البلدَ الشّسيعا
قد كنتُ أنتظرُ الوصا لَ فصِرْتُ أنتظِرُ الرّجوعا

وقال آخر :

نسيمُ الخُزامى والرّياحُ التي جرَتْ بنجْدٍ على نَجْدٍ تُذكّرني نجْدَا
أتاني نَسيمُ السّدْرِ طيباً إلى الحِمى فذكّرني نجْداً فقطّعني وَجْدا

وفي معناه [الدعاء للمسافر] بأيمن طالع وأسعد طائر ولا كبابك مركب ، ولا اشتبك مذهب ، ولا تعذر عليك مطلب . سهل الله لك السير وادنا لك القصد وطوي لك البعد بمسرة الظفر وكرامة المدخر . على الطائر الميمون والكوكب السعدالي حيث تتقاصر أيدي الحوادث عنك وتتقاعس نوائب الايام دونك بسهولة المطلب ونجاح المنقلب . كان الله لك في سفرك خفيراً وفي حضرك ظهيراً بسعي نجيح وأوب سريح . بصرك الله محلك وهداك رحلك وسر بأوبتك اهلك ولا زلت آمنا مقيما وظاعنا بأسعد جد وأنجح مطلب وأسر منقلب وأكرم بدأة وأحمد عاقبة . اشخص مصحوبا بالسلامة والكلاءة آئبا بالنجح والغبطة محوطاً فيما تطالعه بالعناية والشفقة في ودائع الله وكنفه وجواره وستره وامانه وحفظه وذمامه . وقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : اني اريد سفراً ، فقال : في كنف الله وستره زودك الله التقوى ووجهك الى الخير حيثما كنت استخلف الله فيك واستخلفه منك) ، وقال الشاعر

في كنفِ اللهِ وفي سترِه مَنْ ليْس يخلُو القلْبُ مِنْ ذِكْرِه

وقال آخر :

إِرْحَلْ أبا بِشْرٍ بأَيْمَنِ طائـرٍ ... وعلى السَّعَادَةِ والسَّلَامَةِ فانزِلِ

(ضده)

قال بعض حكماء الفلاسفة : أطلبوا الرزق في البعد فانكم ان لم تكسبوا مالا غنمتم عقلا كثيراً . وقال آخر : لا يألف الوطن الا ضيق العطن . وقيـــل لا توحشنك الغربة اذا آنستك النعمة . وقيل : الفقير في الاهل محروم والغني في الغربة موصول . وقـال : لا تستوحش من الغربة اذا أنست محروما . وقيـــل : أوحش قومك ما كان في إيحاشهم أنسك ، واهجر وطنك ما نبت عنه نفسك ، وأنشد :

لاَ يَمْنَعَنَّكَ خفضُ العيشِ في دعةٍ ... نُزُوعُ نفسٍ إلى أهْلٍ وأوْطانِ

تَلقَى بكلِّ بِلادٍ إنْ حَلَلْتَ بها ... أهْلًا بأهـلٍ وجِيرَاناً بجِيرانِ

وقال آخر :

نَبَتْ بكَ الدَّارُ فسِرْ آمِناً ... فلِلْفَتَى حيثُ انتهَـى دَارُ

وفي معناه (الدعاء على المسافر) بالبارح الاشأم ، والسانح الاعضب ، والصرد الانكد ، والسفر الابعد . لا استمرت به مطيته ولا استتبت به أمنيته ، ولا تراخت منيتـــه . بنحس مستمر وعيش مر . لا قري اذا استضاف ولا أمن اذا خاف . ويقال ان عليا عليه السلام لـما اتصل به مسير معاوية قال : لا أرشد الله قائده ولا أسعد رائده ولا أصاب غيثاً ولا سار الا ريثا ولا رافق الا ليثاً أبعده الله وأسحقه وأوقـــد على أثره وأحرقه لا حط الله رحله ولا كشف محله ولا بشر به أهـله لا زكي له مطاب ولا رحب له مذهب ولا يسر له مراما لا فرج الله له غمه ولا

سوي همه لا سقاه الله ماء ولا حل عقده ولا أورى زنده جعله الله سفر الفراق وعصى الشقاق ، وأنشد :

بأنكَدِ طائرٍ وبشَرِّ فـال ... لأبعدِ غايةٍ وأخسِّ حـالِ
بجَدِّ السَّدِّ حيثُ يكونُ منِّي ... كما بـينَ الجنوبِ إلى الشَّمالِ
غَريباً تَمْتَطي قدَميْكَ دَهراً ... على خوْفٍ تحِـن إلى العيـالِ

وقال آخر :

إذا استَقلتْ بكَ الرِّكابُ ... فحيْثُ لا دَرَّتِ السَّحـابُ
وحيْثُ لا تَبتغِي فَلاحـاً ... وحيْثُ لا يُرْتَجـى إيابُ
وحيْثُ ما دُرتَ فيـهِ يوماً ... قابلكَ الذِّئبُ والغُرابُ

وقال آخر :

فسر بالنُّحوسِ إلى بَلْـدَةٍ ... تُعَمَّرُ فيهـا ولا تُرزَقُ
ولا تَمْـرعُ الأرضُ مِنْ زَهْرَةٍ ... ولا يُثمِرُ الشَّجَرُ المُورِقُ
تَغِـيض البِحار بها مَرَّةً ... ويَكْدَى السَّحاب بهاالمُغْـدِقُ

وقال آخر :

أدْنى خُطاكَ الهنْد والصّين ... وكلُّ نَحسٍ بك مقرُونُ
بحَيْث لا يانس مُستوْحِشٌ ... وحيْث لا يفرحُ محْزون
تَهْـوِي بكَ الأرض إلى بَلْدَةٍ ... ليْسَ بهـا ماءٌ ولا طينُ

٢١ ـ محاسن الدهاء والحيل

الهيثم بن الحسن بن عمار قال: قـدم شيخ من خزاعة أيام المختـار فنزل على عبد الرحمن بن ابان الخزاعي، فلما رأى ماتصنع سوقة المختار من الاعظام جعل يقول: يا عباد الله أبا المختار يصنع هذا والله لقد رأيته يتتبع الاماء بالحجاز فبلغ ذلك المختار فدعا به وقال: ما هذا الذي بلغني عنك. قال: الباطل فأمر بضرب عنقه، فقال: لا والله لا تقدر على ذلك قال: ولم؟ قال: اما دون ان انظر اليك وقد هدمت مدينة دمشق حجراً حجراً وقتلت المقاتـلة وسبيت الذرية ثم تصلبني على شجرة على نهر والله اني لأعرف الشجرة الساعة واعرف شاطىء ذلك النهر، فالتفت المختار الى اصحابه فقال لهم: ان الرجل قد عرف الشجرة فحبس حتى إذا كان الليل بعث اليه فقال: يا اخا خزاعة أو مزاح عند القتل؟ قال: انشدك الله ان اقتل ضياعاً قال: وما تطلب ههنا؟ قال: اربعة آلاف درهم اقضي بها ديني قال: ادفعوها اليه وإياك ان تصبح بالكوفة فقبضها وخرج عنه. وعنه قال كان سراقـة البارقي من ظرفاء اهل الكوفة فأسره رجل من اصحاب المختار فأتى بـه المختار فقال له: أسرك هذا؟ قال سراقة: كذب والله ما أسرني إلا رجل عليه ثياب بيض على فرس ابلق. فقال المختار: إلا ان الرجل قد عاين الملائكة خلوا سبيله. فلما افلت منه انشأ يقول:

أَلاَ أَبلِـغْ أَبا إِسْحاقَ أَني ... رأيتُ البُلْـقَ دُهْماً مُصْمَتاتِ

أُرِي عَيْني مـا لَمْ تَرْأَياهُ ... كِلاَنَا عـالِمٌ بالتُّرَّهـاتِ

كَفَرْتُ بَوحِيكمْ وَجَعلْتُ نَذْراً ... عليَّ قِتـالَكمْ حتى المَماتِ

وعنه قال: كان الاحوص بن جعفر المخزومي يتغدى في دير اللج في يوم شديد البرد ومعه حمزة بن بيض وسراقة البارقي فلما كان على ظهر الكوفة وعليـه

الوبر والخز وعليهما الأطمار قال حمزة لسراقة : اين يذهب بنا في البرد ونحن في اطمار ؟ قال : سأكفيكه فبينما هو يسير اذ دنا منهم راكب مقبل فحرك سراقة دابته نحوه وواقفه ساعة ولحق بالاحوص فقال له : ما خبرك الراكب ؟ قال : زعم ان خوارج خرجت بالقطقطانة . قال : بعيد قال : ان الخوارج تسير في ليلة ثلاثين فرسخاً واكثر . وكان الاحوص احد الجبناء فثنى رأس دابته وقال : ردوا طعامنا نتغدى في المنزل ، فلما حاذى منزله قال لأصحابه : ادخلوا ومضى الى خالد بن عبد الله القسري فقال : خرجت خارجة بالقطقطانة . فنادى خالد في العسكر فجمعهم ووجه خيلا تركض نحو اللج لتعرف الخبر فأعلموه انه لا اصل للخبر . فقال للاحوص : من اعلمك بهذا ؟ قال : سراقة قال : واين هو ؟ قال : في منزلي ، فارسل اليه من اتاه به قال : انت اخبرته عن الخارجة قال : ما فعلت اصلح الله الامير ، قال له الاحوص : اتكذبني بين يدي الامير . قال خالد ويحك اصدقني قال : نعم اخرجنا في هذا البرد وقد ظاهر الخز والوبر ونحن في اطمارنا هذه فأحببت ان ارده ، فقال له خالد : ويحك وهذا مما يتلاعب به ، وسراقة هذا هو القائل :

قالوا سُرَاقَةُ عِنِّينٌ فقلتُ لهمْ ... أللهُ يَعلمُ أني غيرُ عِنِّينِ

فانْ ظَنَنتُمْ بي الشيءَ الذي زَعَمُوا ... فقرِّبوني مِن بنْتِ ابنِ ياسينِ

وذكروا : ان شبيب بن يزيد الخارجي مر بغلام مستنقع في الفرات فقال له : يا غلام اخرج اني اسألك ، فعرفه الغلام فقال له : اني اخاف أفآمن انا اذا خرجت حتى البس ثيابي ، قال : نعم ، فخرج وقال : والله لا البسها اليوم ، فضحك شبيب وقال : خدعتني ورب الكعبة ووكل به رجلا من اصحابه يحفظه الا يصيبه أحد بمكروه قال : وكان رجل من الخوارج يقول :

فمنَّا يَزِيدُ والبَطينُ وقَعنَبٌ ... ومِنَّا أميرُ المُؤْمنينَ شَبيبُ

فسار البيت حتى سمعه عبد الملك بن مروان فأمر بطلب قائله فأتي به ، فلما وقف بين يديه قال : انت القائل * ومنا امير المؤمنين شبيب

قال لم أقل هكذا يا امير المؤمنين انما قلت * ومنا امير المؤمنين شبيب *

فضحك عبد الملك وامر بتخلية سبيله فتخلص بدهائه وفطنته لازالة الاعراب من الرفع الى النصب . وزعموا ان عمرو بن معدي كرب هجم في بعض غاراته على شابة جميلة منفردة وأخذها ، فلما امعن بها بكت فقال : مايبكيك قالت : ابكي لفراقي بنات عمي هن مثلي في الجمال وأفضل مني خرجت معهن فاقتطعنا عن الحي قال : وأين هن ؟ قالت خلف ذلك الجبل ووددت اذ أخذتني انك أخذتهن معي فامض الى الموضع الذي وصفته ، فمضى الى هنالك فبما شعر بشيء حتى هجم على فارس شاك في السلاح فعرض عليه المصارعة فصارعه الفارس ثم عرض عليه ضروبا من المناوشة فغلبه الفارس في كلها . فسأله عمرو عن اسمه فاذا هو ربيعة بن مكدم الكناني فاستنقذ الجارية . وعن عطاء ان مخارق بن عفان ومعن بن زائدة تلقيا رجلا ببلاد الشرك ومعه جارية لم يريا احسن منها شبابا وجمالا فصاحا به خل عنها ومعه قوس فرمى بها وهابا الاقدام عليه ، ثم عاد ليرمي فانقطعت وتره وسلم الجارية وأسند في جبل كان قريباً منه فابتدراه وأخذا الجارية وكان في اذنها قرط فيه درة فانتزعاه من اذنها ، فقالت : وما قدر هذه لو رأيتما درتين معه في قلنسوته وفي القلنسوة وتروقد أعده ونسيه من الدهش . فلما سمع قول المرأة ذكر الوتر فأخذه وعقده في قوسه فوليا ليست لهما همة الا النجاء وخليا عن الجارية ، وعن الهيثم قال : وكان الحجاج حسوداً لا يتم له صنيعة حتى يفسدها فوجه عمارة بن تميم اللخمي الى عبدالرحمن بن محمد بن الاشعث فظفر به وصنع ما صنع ، ورجع الى الحجاج بالفتح ولم ير منه ما أحب وكره منافرته وكان عاقلا رفيقاً فجعل يرفق به ويقول : ايها الامير اشرف العرب انت من شرفته شرف ، ومن وضعته اتضع ، وما ينكر ذلك لك مع رفقك ويمنك مشورتك ورأيك ، وما كان هذا كله الا بصنع الله وتدبيرك ، وليس احد اشكر

لبلائك مني ومن ابن الاشعث ، وما خطره حتى عزم الحجاج على المسير الى عبدالملك فاخرج عمارة معه وعمارة يومئذ على أهل فلسطين أمير ، فلم يزل يلطف بالحجاج في مسيره ويعظه حتى قدموا على عبدالملك ، فلما قامت الخطباء بين يديه وأثنت على الحجاج قام عمارة فقال : يا امير المؤمنين سل الحجاج عن طاعتي ومناصحتي وبلائي ، قال الحجاج : يا المؤمنين صنع وصنع ومن بأسه ونجدته وعفافه كذا وكذا وهو أيمن الناس نقيبة واعلمهم بتدبير وسياسة ولم يبق في الثناء عليه غاية ، فقال عمارة : قد رضيت يا امير المؤمنين ، قال نعم فرضي الله عنك حتى قالها ثلاثا في كلها يقول قد رضيت ، قال عمارة : فلا رضي الله عن الحجاج يا امير المؤمنين ولا حفظه ولا عافاه فهو والله السيء التدبير الذي قد افسد عليك اهل العراق وألب الناس عليك وما اتيت الا من قبله ومن قلة عقله وضعف رأيه وقلة بصره بالسياسة فلك والله امثالها ان لم تعزله ، فقال الحجاج : مه يا عمارة ، فقال : لا مه ولا كرامة كل امرأة له طالق وكل مملوك له حر ان سار تحت راية الحجاج أبداً ، قال : اني اعلم انه ما خرج هذا منك الا عن معتبة ولك عندي العتبى وأرسل اليه ، فقال : ما كنت اظن ان عقلك على هذا ارجع اليه بعد الذي كان من طعني عليه وقولي عند امير المؤمنين ما قلت فيه : لا ولا كرامة .

(ضده)

قيل في المثل : هو أحمق من عجل ، وهو عجل بن لجيم ، وذلك أنه قيل له : ما سميت فرسك ؟ ففقأ عينه وقال : سميته الأعور ، فقال الشاعر فيه :

رَمَتْني بنو عِجْلٍ بداء أبيهِمُ   وأيُّ امريءٍ في النّاس أحْمقُ من عِجْلِ

أليسَ أبوهُمْ عارَ عينَ جوادهِ   فصارتْ بهِ الأمثالُ تُضْرَبُ في الجَهْلِ

وقيل : هو أحمق من هبنقة ، وبلغ من حمقه أنه ضل له بعير فجعل ينادي : من وجد بعيري فهو له ، فقيل له : ولم تنشده ؟ قال وأين حلاوة الظفر والوجدان ؟ . واختصمت اليه الطفاوة وبنو راسب في رجل ادعى هؤلاء وهؤلاء فيه فقالوا : قد رضينا بحكم أول طالع يطلع علينا فطلع عليهم هبنقة فلما رأوه قالوا : انظروا بالله من طلع علينا ؟ فلما دنا قصوا عليه القصة فقال هبنقة : الحكم في هذا بين ، اذهبوا به الى نهر البصرة فألقوه فيه ، فان كان راسبيا رسب ، وان كان طفاوياً طفا . فقال الرجل : لا أريد أن أكون من أحد هذين الحيين ولا حاجة لي في الديوان ، وقيل : هو أحمق من دغة وهي مارية بنت مغنج تزوجت في بني العنبر وهي صغيرة ، فلما ضربها المخاض ظنت أنها تريد الخلاء فخرجت تتبرز ، فصاح الولد ، فجاءت منصرفة ، فصاحت : يا أماه هل يفتح الجعرفاه ؟ قالت : نعم ، ويدعو أباه ، فسبت بنو العنبر بذلك ، فقيل : بنو الجعراء ، وقيل : هو أحمق من باقل ، وكان اشترى عنزا بأحد عشر درهماً فسئل بكم اشتريت العنز ؟ ففتح كفيه وفرق أصابعه وأخرج لسانه ، يريد أحد عشر درهما فعيروه بذلك ، قال الشاعر :

يلومونَ في حُمقهِ باقِلاً ... كأنَّ الحماقةَ لم تُخلَقِ
فلا تُكثِروا العذلَ في عِيِّهِ ... فللصَّمتُ أجملُ بالأموقِ
خُروجُ اللِّسانِ وفَتحِ البَنانِ ... أحبُّ إلينا منَ المَنطِقِ

ومما قيل فيه أيضاً من الشعر :

ياثابتَ العَقلِ كم عاينتَ ذا حُمُقٍ ... الرِّزقُ أُغرى بهِ مِن لازمِ الجربِ
فإنَّني واجدٌ في النَّاسِ واحِدةً ... الرِّزقُ أروغُ شيءٍ عن ذوِي الأدبِ
وخَصلةً ليسَ فيها مَن يُخالِفني ... الرِّزقُ والنوكُ مَقرونانِ في سَببِ

وقال آخر :

أرى زَمناً نَوْكَاهُ أسعدُ خَلْقهِ ... على أنّهُ يَشْقَى بهِ كلُّ عـاقلِ

عَلا فوْقهُ رِجلاهُ والرّأسُ تحتَه ... فكَبّ الأعالي بارتفاعِ الأسافِل

وقال آخر :

كمْ مِنْ قَويٍ قويّ في تقلُّبِهِ ... مُهذّبِ اللبِّ عنهُ الرِّزقُ مُنْحَرِفُ

ومِنْ ضعيفٍ ضعيفِ العقلِ مُخْتلطٍ ... كأنّه منْ خَليجِ البَحْرِ يَغْتَرِفُ

٢٢ ـ محاسن المفاخرة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) ، وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً ينشد بيتا من شعر :

إنِي امرؤٌ حِمْيَرِيٌّ حِينَ تَنْسِبُني ... لا مِنْ رَبيعةَ آبائي ولاَ مُضَرِ

فقال له : ذلك ألأم لك وأبعد عن الله ورسوله ، وقال بعضهم :

إذا مُضَرُ الحَمْراءُ كانَتْ أرُومتي ... وقامَ بنَصْرِي خازِمٌ وابنُ خازِمِ

عطَسْتُ بأنفٍ شامِخٍ وتَناوَلَتْ ... يَدايَ الثُّرَيَّا قاعداً غيرَ قائمِ

شعيب بن ابراهيم عن علي بن زيد عن عبد الله بن الحارث عن عبدالمطلب ابن ربيعة قال : مر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بنفر من قريش وهم يقولون انما محمد في اهله مثل نخلة نبتت في كناسة ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد منه ، فخرج حتى قام فيهم خطيباً ثم قال : (ايها الناس من انا ؟ قالوا : انت رسول الله قال : افأنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ان الله عز وجل خلق خلقه فجعلني من خير خلقه ،

ثم جعل الخلق الذي انا منهم فريقين فجعلني من خير الفريقين من خلقه ، ثم جعل الخلق الذي انا منهم شعوبا فجعلني في خيرهم شعباً ، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني من خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً وخيركم والدا ، واني مباه لكم قم يا عباس فقام عن يمينه ، ثم قال : قم يا سعد فقام عن يساره فقال : يقرب امرؤ منكم عماً مثل هذا وخالا مثل هذا) وحدثنا سنان ابن الحسن التستري عن اسماعيل بن مهران العسكري عن ابان بن عثمان عن عكرمة عن ابن عباس رحمهما الله تعالى عن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه قال : لما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يعرض نفسه على القبائل خرج وانا معه وابو بكر وكان عالماً بأنساب العرب فوقفنا على مجلس من مجالس العرب عليهم الوقار والسكينة ، فتقدم ابو بكر فسلم عليهم فردوا عليه السلام فقال : ممن القوم ؟ فقالوا من ربيعة قال : من هامتها ام لهازمها ؟ قالوا : بل من هامتها العظمى قال : واي هامتها ؟ قالوا : ذهل قال : ذهل الاكبر ام ذهل الاصغر ؟ قالوا : بل الاكبر قال فمنكم عوف الذي كان يقال لاحر بوادي عوف قالوا : لا قال : افمنكم بسطام بن قيس صاحب اللواء ومنتهى الاحياء ؟ قالوا : لا قال : افمنكم جساس بن مرة حامي الذمار ومانع الجار ؟ قالوا : لا قال : افمنكم المزدلف صاحب العمامة ؟ قالوا لا ، قال : افأنتم أخوال الملوك من كندة ؟ قالوا : لا ، قال : افأنتم أصهار الملوك من لخم ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم من ذهل الاكبر اذا انتم من ذهل الاصغر فقام اليه أعرابي غلام حسن بقل وجهه فأخذ بزمام ناقته ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على ناقته يسمع مخاطبته، فقال :

لنا على سائلنا أن نسأله   والعبء لا تعرفه أو تحمله

يا هذا انك قد سألتنا أي مسألة شئت فلم نكتمك شيئاً فأخبرنا ممن انت ؟ فقال ابو بكر : من قريش . فقال : بخ بخ أهل الشرف والرياسة

فأخبرني من أي قريش انت ؟ قال من بني تيم بن مرة ، قال : أفمنكم قصي ابن كلاب الذي جمع القبائل من فهر فكان يقال له مجمع ؟ قال ابو بكر : لا ، قال : أفمنكم هاشم الذي يقول فيه الشاعر :

عَمْرو العُلَى هَشَمَ الثَّرِيدَ لقومِهِ ورِجالُ مكّةَ مُسنِتونَ عِجافِ

قال ابو بكر : لا ، قال : أفمنكم شيبة الحمد الذي كان وجهه يضيء في الليلة الداجية مطعم الطير ؟ قال : لا ، قال : أفمن المضيفين بالناس أنت؟ قال : لا ، قال : أفمن أهل الرفادة أنت ؟ قال : لا ، قال : أفمن اهل السقاية انت ؟ قال : لا ، قال : افمن اهل الحجابة أنت ؟ قال : لا ، قال : أما والله لو شئت لاخبرتك لست من أشراف قريش فاجتذب أبو بكر زمام ناقته منه كهيئة المغضب ، فقال الاعرابي :

صادَفَ دَرَّ السَّيلِ دَرٌّ يَدْفَعُه في هَضْبةٍ تَرْفَعُهُ وتَضَعُهُ

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال علي كرم الله وجهه ، فقلت : ياأبابكر لقد وقعت من هذا الاعرابي على باقعة ، قال : أجل ! يا أبا حسن ما من طامة الا وفوقها طامة وان البلاء موكل بالمنطق . قال : وأتى الحسن ابن علي رضي الله عنهما معاوية بن أبي سفيان وقد سبقه ابن عباس رحمه الله فأمر معاوية بانزاله ، فبينا معاوية مع عمرو بن العاص ومروان بن الحكم وزياد المدعى الى أبي سفيان يتحاورون في قديمهم وبجدهم إذ قال معاوية : قد أكثرتم الفخر ولو حضركم الحسن بن علي وعبدالله بن عباس لقصروا من أعنتكم ، فقال زياد : وكيف ذاك يا أمير المؤمنين وما يقومان لمروان ابن الحكم في غرب منطقه ولا لنا في بواذخنا فابعث اليهما حتى نسمع كلامهما ، فقال معاوية لعمرو : ما تقول في هذا الليل فابعث اليهما في غد ، فبعث معاوية بابنه يزيد اليهما فأتيا فدخلا عليه وبدأ معاوية فقال : اني أجلكما وأرفع قدركما عن المسامر بالليل ولا سيما أنت يا أبا محمد

فانك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد شباب أهل الجنة فشكر له فلما استويا في مجلسهما علم عمرو أن الحدة ستقع به فقال : والله لا بد أن أتكلم فان قهرت فسبيل ذلك وان قهرت أكون قــد ابتدأت فقال : يا حسن انا قد تفاوضنا فقلنا ان رجال بني أمية أصبر على اللقـاء وأمضى في الوغاء وأوفى عهداً وأكرم خيما وأمنع لمــا وراء ظهورهم من بني عبد المطلب ، ثم تكلم مروان ابن الحكم فقال : كيف لا يكون ذلك وقد قارعناهم فغلبناهم وحاربناهم فملكناهم فان شئنا عفونا وان شئنا بطشنا ، ثم تكلم زياد فقال : ما ينبغي لهم أن ينكروا الفضــل لأهله ويجحدوا الخير في مظانه نحن الحملة في الحروب ولنا الفضل عــلى سائر الناس قديماً وحديثاً ، فتكلم الحسن بن علي رضي الله عنه فقال : ليس من الحزم أن يصمت الرجل عند إيراد الحجة ولكن من الافك أن ينطق الرجل بالخنا ويصور الكذب في صورة الحق يا عمرو افتخاراً بالكذب وجراءة على الافك ما زلت أعرف مثالبك الخبيثة أبديها مرة بعد مرة أتذكر مصابيح الدجى ، وأعلام الهدى ، وفرسان الطراد ، وحتوف الاقران ، وابنــاء الطعان ، وربيع الضيفان ، ومعدن العلم ، ومهبط النبوة ؟ وزعمتم انكم احمى لمــا وراء ظهوركم ، وقــد تبين ذلك يوم بدر حين نكصت الأبطــال ، وتساورت الاقران ، واقتحمت الليوث ، واعتركت المنية وقامت رحاها على قطبها ، وفرت عن نابها ، وطار شرار الحروب ، فقتلنا رجالكم ومن النبي صلى الله عليه وسلم على ذرايكم ، وكنتم لعمري في هــذا اليوم غير مانعين لما وراء ظهوركم من بني عبــد المطلب ، ثم قال : وأما أنت يا مروان فمــا أنت والاكثار في قريش وأنت ابن طليق وأبوك طريد تتقلب في خزاية الى سوءة ، وقد أتى بك الى أمير المؤمنين يوم الجمل ، فلما رأيت الضرغام قد دميت براثنه ، واشتبكت أنيابه كنت كما قال الاول .

بَصْبَصْنَ ثُمَّ رَمَيْنَ بالأَبْعارِ

فلما من عليك بالعفو وأرخى خناقك بعـــد ما ضاق عليك وغصصت بريقك لا تقعد منا مقعد أهل الشكر ولكن تساوينا وتجارينا ، ونحن من لا يدركنا عار ولا يلحقنا خزاية ، ثم التفت الى زياد وقال : وما أنت يا زياد وقريش ما أعرف لك فيها أديماً صحيحاً . ولا فرعا نابتا ولا قديماً ثابتا ولا منبتا كريما ، كانت أمك بغيا يتداولهـــا رجالات قريش وفجار العرب ، فلما ولدت لم تعرف لك العرب والداً فادعاك هذا - يعني معاوية - فما لك والافتخار !!! تكفيك سمية ويكفينا رسول الله ﷺ وأبي سيد المؤمنين الذي لم يرتد على عقبيه وعمـــاي حمزة سيد الشهداء ، وجعفر الطيار في الجنة وأنا وأخي سيدا شباب اهل الجنة ، ثم التفت الى ابن عباس فقال : انما هي بغاث الطير انقض عليها البازي ، فأراد ابن عباس أن يتكلم فأقسم عليه معاوية أن يكف فكف ، ثم خرجا ، فقال معاوية : أجاد عمرو الكلام اولا لولا ان حجته دحضت ، وقد تكلم مروان لولا أنه نكص ، ثم التفت الى زياد فقال : ما دعاك الى محاورته ما كنت إلا كالحجل في كف العقاب فقال عمرو : أفلا رميت من ورائنا ؟ قال معاوية : إذاً كنت شريككم في الجهل أفأفاخر رجلا رسول الله ﷺ جده وهو سيـــد من مضى ومن بقي وامه فاطمة سيدة نساء العالمين ثم قال لهم : والله لئن سمع أهل الشام ذلك أنه للسوءة السوآء فقال عمرو : لقد أبقى عليك ولكنه طحن مروان وزياداً طحن الرحى بثفالها ووطئهما وطىء البازل القراد بمنسمه ، فقال زياد : والله لقد فعل ولكنك يامعاوية تريد الاغراء بيننا وبينهم لا جرم والله لا شهدت مجلسا يكونان فيه إلا كنت معهما على من فاخرهما ، فخلا ابن عباس بالحسن رضي الله عنه فقبل بين عينيه وقال : أفديك يابن عمي والله مازال بحرك يزخر وأنت تصول حتى شفيتني من اولاد البغايا . ثم ان الحسن رضي الله عنه غاب اياما ثم رجع حتى دخل على معاوية وعنده عبد الله بن الزبير ، فقال معاوية : يا ابا محمد إني اظنك تعباً نصباً فأت المنزل فأرح نفسك ، فقام الحسن رضي الله عنه ، فخرج ، فقال معاوية لعبدالله بن الزبير : لو

افتخرت على الحسن فأنت ابن حواري رسول الله ﷺ وابن عمته ولأبيك في الاسلام نصيب وافر ، فقال ابن الزبير : أنا له ثم جعل ليلته يطلب الحجج فلما اصبح دخل على معاوية وجاء الحسن رضي الله عنه فحياه معاوية وسأله عن مبيته فقال : خير مبيت وأكرم مستفاض فلما استوى في مجلسه قال له ابن الزبير : لولا انك خوار في الحروب غير مقدام ما سلمت لمعاوية الامر وكنت لا تحتاج الى اختراق السهول وقطع المراحل والمفاوز تطلب معروفه وتقوم ببابه ، وكنت حرياً أن لا تفعل ذلك وأنت ابن علي في بأسه ونجدته ، فما أدري ما الذي حملك على ذلك ؟ أضعف حال أم وهي نحيزة ؟ ما اظن لك مخرجاً من هذين الحالين اما والله لو استجمع لي ما استجمع لك لعلمت انني ابن الزبير واني لا انكص عن الابطال وكيف لا أكون كذلك وجدتي صفية بنت عبدالمطلب وأبي الزبير حواري رسول الله ﷺ وأشد الناس بأساً ، وأكرمهم حسباً في الجاهلية ، واطوعهم لرسول الله ﷺ ؟ فالتفت الحسن اليه وقال : أما والله لولا ان بني أمية تنسبني الى العجز عن المقال لكففت عنك تهاوناً بك ولكن سأبين ذلك لتعلم أني لست بالكليل إياي تعير وعلي تفتخر ولم تك لجدك في الجاهلية مكرمة ان لا تزوجه عمتي صفية بنت عبدالمطلب فبذخ بها على جميع العرب وشرف بمكانها ، فكيف تفاخر من في القلادة واسطتها وفي الاشراف سادتها ؟ نحن أكرم أهل الأرض زندا لنا الشرف الثاقب والكرم الغالب ثم تزعم أني سلمت الامر لمعاوية ، فكيف يكون ؟ ويحك كذلك ! وأنا ابن اشجع العرب ولدتني فاطمة سيدة النساء وخيرة الامهات لم أفعل ويحك ذلك جبنا ولا فرقـاً ولكنه بايعني مثلك وهو يطلب بترة ويداجيني المودة فلم أثق بنصرته لانكم بيت غدر وأهل إحن ووتر فكيف لا تكون كما أقول ؟ وقد بايع أمير المؤمنين أبوك ثم نكث بيعته ونكص على عقبيه واختدع حشية من حشايا رسول الله ﷺ ليضل بها الناس ، فلما دلف نحو الاعنة ورأى بريق الاسنة قتل بضيعة لا ناصر له وأتي بك أسيراً ، وقد وطئتك الكماة بأظلافها والخيل بسنابكها ،

واعتلاك الأشتر فغصصت بريقك وأقعيت على عقبيك كالكلب إذا احتوشته الليوث ، فنحن ويحك نور البـــلاد وأملاكها وبنا تفتخر الأمـــة وإلينا تلقى مقاليد الأزمـــة ، نصول وأنت تختـــدع النساء ثم تفتخر على بني الأنبياء لم تزل الأقـــاويل منا مقبولة وعليك وعـــلى ابيك مردودة دخل الناس في دين جدي طائعين وكارهين ، ثم بايعوا أمير المؤمنين صلوات الله عليه فسار الى ابيك وطلحة حين نكثا البيعة وخدعا عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلا عند نكثهما بيعته وأتي بك أسيرا تبصبص بذنبـــك فناشدته الرحم ان لا يقتلك فعفا عنك ، فأنت عتاقـــة أبي وأنا سيدك وابي سيد أبيك فذق وبال امرك ، فقال ابن الزبير : اعذرنا يا أبا محمد فانما حملني على محاورتك هذا واشتهي الاغراء بيننا فهلا إذ جهلت امسكت عني فانكم اهل بيت سجيتكم الحلم ، قال الحسن : يا معاوية انظر أأكع عن محاورة احد ويحك ؟ اتدري من أي شجرة أنا والى من انتمي ؟ انته قبل ان اسمك بسمة يتحدث بها الركبان في آفاق البلدان ، قال ابن الزبير : هو لذلك اهل ، فقال : معاوية اما انه قد شفا بلابل صدري منك ورمى مقتلك فبقيت في يده كالحجل في كف البازي يتلاعب بك كيف شاء ، فلا اراك تفتخر على احد بعد هذا . وذكروا ان الحسن بن علي صلوات الله عليهما دخل على معاوية فقال في كلام جرى من معاوية في ذلك :

فيم الكلامُ وقدْ سَبَقْتُ مُبَرِّزاً   سَبْقَ الجَوادِ مِنَ المَدى والمِقْوَسِ

فقال معاوية : إياي تعني ؟ والله لآتينك بما يعرفه قلبك ولا ينكره جلساؤك انا ابن بطحاء مكة انا ابن اجودها جودا واكرمها ابوة وجدودا وأوفاها عهودا انا ابن من ساد قريشا ناشئا فقال الحسن : أجـــل ! إياك ، اعني افعليّ تفتخر يا معاوية وانا ابن مـــاء السماء وعروق الثرى وابن مـــن ساد اهل الدنيا بالحسب الثاقب والشرف الفائـــق والقديم السابق وابن مـــن رضاه رضى الرحمن وسخطه سخط الرحمن فهل لك اب كأبي او قديم

كتذيبي ، فان تقل : لا تغلب ، وان تقل : نعم تكذب ، فقال : أقول : لا تصديقاً لقولك ، فقال الحسن رضي الله عنه :

أَلحق أَبلَج لا تَزيغُ سَبيلُه   والحَقُّ يَعرِفُه ذوو الألبابِ

قال : وقال معاوية ذات يوم وعنده اشراف الناس من قريش وغيرهم اخبروني بأكرم الناس ابا واما وعماً وعمة وخالا وخالة وجداً وجدة ، فقام مالك بن عجلان وأومأ الى الحسن بن علي صلوات الله عليه فقال : هو ذا ابوه علي بن ابي طالب ، وامه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمه جعفر الطيار ، وعمته ام هانىء بنت ابي طالب ، وخاله القاسم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخالته زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدته خديجة بنت خويلد فسكت القوم ونهض الحسن ، فأقبل عمرو بن العاص على مالك فقال : احب بني هاشم حملك على ان تكلمت بالباطل ، فقال ابن عجلان ما قلت إلا حقا وما احد من الناس يطلب مرضاة مخلوق بمعصية الخالق الا لم يعط امنيته في دنياه وختم له بالشقاء في آخرته ، بنو هاشم انضركم عوداً واوراكم زندا أكذلك هو معاوية ؟ قال: اللهم نعم . قال : واستأذن الحسن ابن علي رضي الله عنه على معاوية وعنده عبد الله بن جعفر وعمرو بن العاص فأذن له ، فلما اقبل قال عمرو : قد جاءكم الفهه العيي الذي كان بين لحييه عقله ، فقال عبد الله بن جعفر : مه والله لقد رمت صخرة ململمة تنحط عنها السيول وتقصر دونها الوعول لا تبلغها السهام فاياك والحسن اياك ، فانك لا تزال راتعاً في لحم رجل من قريش ولقد رميت فما برح سهمك وقدحت فما اورى زندك ، فسمع الحسن الكلام ، فلما اخذ مجلسه قال : يا معاويـــة لا يزال عندك عبد يرتع في لحوم الناس اما والله لئن شئت ليكونن بيننا ما تتفاقم فيه الامور وتحرج منه الصدور ، ثم انشأ يقول :

أتأمُرُ يا مُعاوِيَ عَبدَ سَهْمٍ ... بشَتمي والمَلاَ منّا شُهُودُ
إذا أخذَتْ مَجالِسَها قُرَيشٌ ... فقدْ عَلمَتْ قُرَيشٌ ما تُريدُ
أأنتَ تَظلُّ تَشتُمُني سِفاهاً ... لِضَغْنٍ ما يَزُولُ ولا يَبيدُ
فهَل لكَ منْ أبٍ كأبي تُسامي ... بهِ مَنْ قدْ تُسامي أو تَكيدُ
ولا جدٌّ كَجَدّي يابنَ حَرْبٍ ... رسولِ اللهِ إنْ ذُكِرَ الجُدودُ
ولا أمٌّ كأُمّي مِنْ قُرَيشٍ ... إذا ما حُصِّلَ الحَسَبُ التَّليدُ
فما مِثْلي تُهكِّمَ يابنَ حربٍ ... ولا مثْلي يُنَهْنِهُهُ الوَعيدُ
فمَهْلاً لا تَهِجْ مِنّا أُموراً ... يَشيبُ لِهَولِها الطِّفلُ الوليدُ

وذكروا أن عمرو بن العاص قال لمعاوية : ابعث الى الحسن بن علي فأمره أن يخطب على المنبر فلعله يحصر فيكون في ذلك مانعيره به ، فبعث اليه معاوية فأمره أن يخطب ، فصعد المنبر وقد اجتمع الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي بن أبي طالب ابن عم النبي أنا ابن البشير النذير السراج المنير انا ابن من بعثه الله رحمة للعالمين أنا ابن من بعث الى الجن والانس أنا ابن مستجاب الدعوة أنا ابن الشفيع المطاع أنا ابن أول من ينفض رأسه من التراب أنا ابن اول من يقرع باب الجنة أنا ابن من قاتلت معه الملائكة ونصر بالرعب من مسيرة شهر ، وأمعن في هذا الباب ولم يزل حتى أظلمت الارض على معاوية ، فقال : يا حسن قد كنت ترجو أن تكون خليفة ولست هناك ، قال الحسن : انما الخليفة من سار بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل بطاعته ، وليس الخليفة من دان بالجور وعطل السنن واتخذ الدنيا أباً وأماً ، ولكن ذلك ملك أصاب ملكا يمتع به قليلا

ويعذب بعده طويلا ، وكان قد انقطع عنه واستعجل لذته وبقيت عليه التبعة؟ فكان كما قال الله تعالى «وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين» ثم انصرف ، فقال معاوية لعمرو : ما أردت إلا هتكي ماكان أهل الشام يرون أحداً مثلي حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا . قال : وقدم الحسن بن علي رضي الله عنه على معاوية ، فلما دخل عليه وجد عنده عمرو بن العاص ومروان بن الحكم والمغيرة بن شعبة وصناديد قومه ووجوه أهل بيته ووجوه أهل اليمن وأهل الشام . فلما نظر اليه معاوية أقعده على سريره وأقبل عليه بوجهه يريه السرور به وبقدومه ، فحسده مروان وقد كان معاوية قال لهم: لا تحاوروا هذين الرجلين : فقد قلداكم العار عند أهل الشام – يعني الحسن ابن علي رضي الله عنه وعبد الله بن عباس – فقال مروان : يا حسن لولا حلم أمير المؤمنين وما قد بناه له آباؤه الكرام من المجد والعلا ما أقعدك هذا المقعد ولقتلك وانت لهذا مستحق بقودك الجماهير الينا ، فلما قاومتنا وعلمت ألا طاقة لك بفرسان اهل الشام وصناديد بني امية اذعنت بالطاعة ، واحتجزت بالبيعة ، وبعثت تطلب الامان اما والله لولا ذلك لأراق دمك ، ولعلمت انا نعطي السيوف حقها عند الوغى ، فاحمد الله اذ ابتلاك بمعاوية وعفا عنك بحلمه ثم صنع بك ما ترى ، فنظر اليه الحسن وقال : ويلك يا مروان لقد تقلدت مقاليد العار في الحروب عند مشاهدتها والمخاذلة عند مخالطتها هبلتك امك لنا الحجج البوالغ ، ولنا عليكم إن شكرتم النعم السوابغ ندعوكم الى النجاة وتدعوننا الى النار ، فشتان مابين المنزلتين : تفتخر ببني امية وتزعم انهم صبر في الحرب أسد عند اللقاء ثكلتك الثواكل أولئك البهاليل السادة ، والحماة الذادة ، والكرام القادة بنو عبد المطلب أما والله لقد رأيتهم أنت وجميع من في المجلس ما هالتهم الأهوال ، ولا حادوا عن الأبطال كالليوث الضارية الباسلة الحنقة ، فعندها وليت هارباً وأخذت أسيرا ، فقلدت قومك العار ؛ لأنك في الحروب خوار أتهرق دمي ؟ فهلا أهرقت دم من وثب على عثمان في الدار فذبحه كما يذبح الجمل

وأنت تثغو ثغاء النعجة وتنادي بالويل والثبور كالمرأة الوكعاء ، ما دافعت عنه بسهم ، ولا منعت دونه بحرب ، قـد ارتعدت فرائصك ، وغشي بصرك ، واستغثت كما يستغيث العبد بربه ، فانجيتك من القتل ، ثم جعلت تبحث عن دمي وتحض على قتلي ؛ ولو رام ذلك معاوية معك لذبح كما ذبح ، ابن عفان ، وأنت معه أقصر يداً ، وأضيق باعاً ، وأجبن قلباً من أن تجسر على ذلك ، ثم تزعم أني ابتليت بحلم معاوية ، أمـا والله لهو أعرف بشأنه وأشكر لنا اذ وليناه هـذا الأمر ، فمتى بدا له فلا يغضين جفنه عـلى القذى معك ، فوالله لأعنفن أهل الشام بجيش يضيق فضاؤه ويستأصل فرسانه ، ثم لا ينفعك عند ذلك الروغان والهرب ، ولا تنتفع بتدريجك الكلام ، فنحن من لا يجهـل آباؤنا الكرام القدماء الأكابر ، وفروعنا السادة الأخيار الأفاضل ، انطق ان كنت صادقاً ، فقال عمرو : ينطق بالخنا وتنطق بالصدق ، ثم أنشأ يقول :

قَدْ يَضْرُطُ العَيرُ والمَكْواةُ تأخذُهُ   لا يَضْرُطُ العيرُ والمكْواةُ في النَّار

ذق وبال أمرك يا مروان ، فأقبل عليه معاوية فقال : قـد نهيتك عن هذا الرجل وأنت تأبى إلا انهماكاً فيما لا يعنيك ، أربع على نفسك فليس أبوه كأبيك ، ولا هو مثلك أنت ابن الطريد الشريد وهو ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكريم ، ولكن رب باحث عن حتفه بظلفـه ، فقال مروان : ارم دون بيضتك ، وقم بحجة عشيرتك ، ثم قال لعمرو : لقد طعنك أبوه فوقيت نفسك بخصيتيك ومنها ثنيت أعنتك ، وقام مغضباً ، فقال معاوية : لا تجار البحار فتغمرك ، ولا الجبال فتقهرك ، واسترح من الاعتذار . قـال : ولقي عمرو بن العاص الحسن بن علي عليهما السلام في الطواف ، فقال : يا حسن أزعمت أن الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك ؟ فقد رأيت الله أقامه بمعاوية فجعله ثابتاً بعد ميله وبيناً بعد خفائه أفيرضى الله قتل عثمان أم من الحق أن تدور بالبيت كما يدور الجمل بالطحين ؟ عليك

ثياب كغرقيء البيض وأنت قـاتل عثمان ، والله انه لألم للشعث وأسهل للوعث أن يوردك معاوية حياض أبيك ، فقال الحسن صلوات الله عليه : إن لأهل النار علامات يعرفون بها : وهي الالحـاد في دين الله والموالاة لأعداء الله ، والانحراف عن دين الله ، والله إنك لتعلم أن علياً لم يتريث في الأمر ولم يشك في الله طرفة عين ، وأيم الله لتنتهين يا بن العاص أو لأقرعن قصتك - يعني جبينه - بقراع وكلام ، وإياك والجراءة علي فـإني من عرفت لست بضعيف المغمز ولا بهش المشاشة - يعني العظام - ولا بمريء المأكلة وإني لمن قريش كأوسط القلادة معرق حسبي لا أدعى لغير أبي ، وقد تحاكمت فيك رجـال من قريش فغضب عليك ألأمهـا حسباً ، وأعظمها لعنة ، فاياك عني ! فانمـا أنت نجس ونحن أهل بيت الطهارة أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيراً . قـال : واجتمع الحسن بن علي صلوات الله عليهما وعمرو بن العاص ، فقال الحسن : قـد علمت قريش بأسرها أني منهـا في عز أرومهـا لم أطبع عـلى ضعف ولم أعكس عـلى خسف أعرف نسبي وأدعى لأبي ، فقـال عمرو : وقـد علمت قريش أنك ابن أقلهـا عقـلا ، وأكثرهـا جهلا ، وإن فيك خصالا لو لم يكن فيك إلا واحدة منها لشملك خزيها كما شمـل البياض الحائك ، وأيم الله لئن لم تنته عمـا أراك تصنع لاكبسن لك حافـة كجلد العائط اذا اعتاطت رحمها فما تحمل أرميك من خللهـا بأحر من وقع الاثافي أعرك منها أديمك عرك السلعة ، فانك طالما ركبت المحدر ، ونزلت في أعراض الوعر التماسا للفرقة وإرصادا للفتنة ، ولن يزيدك الله فيها إلا فظاعة . فقال الحسن : أما والله لو كنت تسمو بحسبك ، وتعمل برأيك ما سلكت فج قصد ولا حلت راية مجـد ، أما والله لو أطاعنا معاوية لجعلك بمنزلة العدو الكاشح ، ونه خال مـا تأخر شأوك واستـر داؤك ، وطمح بك الرجا إلى الغاية القصوى التي لا يورق بها غصنك ، ولا يخضر منها رعيك ، أما والله لتوشكن يابن العاص أن تقع بين لحيي ضرغـام ، ولا ينجيك منـه

الروغان اذا التقت حلقتا البطان . ابن المنذر عن ابيه الشعبي عن ابن عباس انه دخل المسجد وقد سار الحسين بن علي رضي الله عنه الى العراق ، فاذا هو بابن الزبير في جماعة من قريش قد استملاهم بالكلام ، فجاء ابن عباس فضرب بيده على عضد ابن الزبير وقال ؟ أصبحت والله كما قال الشاعر :

يا لَكِ منْ قُنْبُرَةٍ بمَعْمَرِ خَلَالَكِ الجوُّ فبيضي واصفِري

ونقِّري مـا شِئْتِ أنْ تُنقِّري قدْ ذَهَبَ الصَّيَّادُ عَنكِ فابْشري

لا بُدَّ منْ أخذِكِ يوْماً فاصْبِري

خلت الحجاز من الحسين بن علي وأقبلت تهدر في جوانبها ، فغضب ابن الزبير وقال : والله انك لترى أنك أحق بهذا من غيرك ، فقال ابن عباس : انما يرى ذلك من كان في حال شك وأنا من ذلك على يقين ، قال : وبأي شيء استحق عندك أنك بهذا الامر أحق مني ؟ فقال ابن عباس : لانا أحق بمن يدل بحقه ، وبأي شيء استحق عندك أنك أحق بها من سائر العرب إلا بنا ؟ فقال ابن الزبير : استحق عندي اني أحق بها منكم لشرفي عليكم قديماً وحديثاً ، فقال : أنت أشرف أم من شرفت بـه ؟ فقال : ان من شرفت به زادني شرفاً الى شرفي ، قال فمني الزيادة أم منك ؟ فتبسم ابن عباس ، فقال ابن الزبير : يابن عباس دعـني من لسانك هذا الذي تقلبه كيف شئت ، والله يا بني هاشم لا تحبوننا أبداً ، قال ابن عباس : صدقت نحن أهل بيت مع الله لا نحب من أبغضه الله ، قال : يابن عباس أما ينبغي لك أن تصفح عن كلمة واحدة ؟ قال : انما يصفح عمن أقر وأما من هر فلا والفضل لأهل الفضل ، قال ابن الزبير : فأين الفضل ؟ قال : عند أهل البيت لا تصرفه عن أهله فتظلم ولا تضعه في غير أهله فتندم ، قال ابن الزبير أفلست من أهله ؟ قال : بلى ان نبذت الحسد ولزمت الجدد وانقضى حديثهما.

وروي عن ابن عباس أنه قال : قدمت على معاوية وقد قعد على سريره وجمع

من بني أمية ووفود العرب عنده فدخلت وسلمت وقعدت فقال : يابن عباس من الناس ؟ فقلت : نحن ، قال : فاذا غبتم ، قلت : فلا أحد ، قال : فانك ترى أني قعدت هذا المقعد بكم ، قلت : نعم فبمن قعدت ؟ قال : بمن كان مثل حرب ابن أمية ، قلت : من كفأ عليه اناءه وأجاره بردائـــه ، قال : فغضب وقال : أرحني من شخصك شهراً فقـــد أمرت لك بصلتك وأضعفتها لك ، فلما خرج ابن عباس قال لخاصته : ألا تسألونني ما الذي اغضب معاوية ؟ قالوا : بلى فقل بفضلك ، قال : إن أباه حربا لم يلق أحـــداً من رؤساء قريش في عقبة ولا مضيق الا تقدمـــه حتى يجوزه ، فلقيه يوما رجل من تميم في عقبة فتقدمه التميمي ، فقال حرب : أنا حرب بن امية فلم يلتفت اليه وجازه ، فقال : موعدك مكة ، فخافه التميمي ثم أراد دخول مكة ، فقال : من يجيرني من حرب بن امية ، فقيل له : عبدالمطلب ، فقال : عبدالمطلب أجل قدراً من أن يجير على حرب ، فأتى ليلا الى دار الزبير بن عبـــد المطلب فدق بابه فقال الزبير لعبده : قد جاءنا رجل إما طالب قرى واما مستجير وقد أجبناه الى ما يريد ، ثم خرج الزبير اليه ، فقال التميمي :

لاقيتُ حرْباً في الثَّنيةِ مُقبِـلاً ... والصُّبْحُ أبلـجَ ضوْءهُ للسَّاري

فدعا بصوْتٍ واكتنى ليروعني ... وسَمَا عليَّ سُمُوَّ ليْثٍ ضَاري

فتركْتهُ كالكلْب ينْبحُ ظلَّهُ ... وأتيْتُ قرْمَ معالمٍ وفخارِ

ليثاً هزبْراً يُستجارُ بعِزِّهِ ... رَحْبَ المباءةِ مُكْرِماً للجارِ

ولقدْ حلفْتُ بمكَّةٍ وبزمْزمٍ ... والبيْتِ ذي الأحجارِ والأستارِ

إنَّ الزُّبيرَ لمَانعِي مِنْ خوفهِ ... ما كبَّرَ الحُجَّاجُ في الأمْصارِ

فقدمه الزبير وأجاره ودخل به المسجد ، فرآه حرب فقام اليه فلطمه ،

فحمل عليه الزبير بالسيف فولى هاربا يعدو حتى دخل دار عبد المطلب فقال : أجرني من الزبير ، فأكفأ عليه جفنة كان هاشم يطعم فيها الناس ، فبقي تحتها ساعة ثم قال له : أخرج قال : وكيف أخرج وعلى الباب تسعة من بنيك قد احتبوا بسيوفهم ؟ فالقى عليه رداء كان كساه إياه سيف بن ذي يزن له طرتان خضروان ، فخرج عليهم فعلموا أنه قد أجاره عبد المطلب فتفرقوا عنه . قال : وحضر مجلس معاوية عبدالله بن جعفر ، فقال عمرو ابن العاص قد جاءكم رجل كثير الخلوات بالتمني والطربات بالتغني محب للقيان كثير مزاحه شديد طماحه صدود عن الشبان ظاهر الطيش رخي العيش أخاذ بالسلف منفاق بالسرف ، فقال ابن عباس : كذبت والله أنت وليس كما ذكرت ، ولكنه لله ذكور ، ولنعمائه شكور ، وعن الخنا زجور ، جواد كريم ، سيد حليم اذا رمى أصاب واذا سئل أجاب غير حصر ولا هياب ولا عيابة مغتاب ، حل من قريش في كريم النصاب كالهزبر الضرغام الجريء المقدام في الحسب القمقام ، ليس بدعي ولا دني لا كمن اختصم فيه من قريش شرارها فغلب عليه جزارها فأصبح الامها حسبا وأدناها منصبا ينوء منها بالذليل ويأوي منها الى القليل مذبذب بين الحيين كالساقط بين المهدين لا المضطر فيهم عرفوه ولا الظاعن عنهم فقدوه ، فليت شعري بأي قدر تتعرض للرجال ، وبأي حسب تعتد به عند النضال أبنفسك وأنت الوغد اللئيم والنكد الذميم والوضيع الزنيم ؟ أم بمن تنمى اليهم وهم أهل السفه والطيش والدناءة في قريش ؟ لا بشرف في الجاهلية شهروا ولا بقديم في الاسلام ذكروا ، جعلت تتكلم بغير لسانك وتنطق بالزور في غير أقرانك ، والله لكان أبين للفضل وأبعد للعدوان أن ينزلك معاوية منزلة البعيد السحيق ، فانه طالما سلس داؤك ، وطمح بك رجاؤك الى الغاية القصوى التي لم يخضر فيها رعيك ولم يورق فيها غصنك ، فقال عبدالله بن جعفر : أقسمت عليك لما أمسكت فانك عني ناضلت ولي فاوضت ، فقال ابن عباس : دعني والعبد فانه قد كان يهدر خاليا ولا يجد

ملاحيا وقد أتيح له ضيغم شرس للأقران مفترس وللأرواح مختلس : فقال ابن العاص : دعني يا أمير المؤمنين أنتصف منه فوالله ما ترك شيئا قـال بن عباس : دعه فلا يبقى المبقي الاعلى نفسه . فوالله إن قلبي لشديد ، وان جوابي لعتيد ، واني لكما قال نابغة بني ذبيان :

وقِدْماً قدْ قَرَعْتُ وقارَعوني   فما نَزُرَ الكَلامُ ولا شَجاني

يَصُدُّ الشاعرُ العَرّافُ عني   صُدُودَ البِكْرِ عنْ قَرْمٍ هِجانِ

قال : وبلغ عائشة بنت عاثم (١) ثلب معاوية وعمرو بن العاص لبني هاشم فقالت لأهل مكة : أيهـا الناس ان بني هاشم سادت فجادت ، ومَلَكَتْ ومُلِّكَتْ وفضلت وفُضِّلَت ، واصطفت واصطفيت ، ليس فيها كدر عيب ولا افك ريب ولا خسروا طاغين ولا خازين ولا نادمين ، ولا هم من المغضوب عليهم ولا الضالين ان بني هاشم أطول الناس باعا ، وأمجد الناس أصلا ، وأعظم الناس حلما ، وأكثر الناس علما وعطاء منـا عبد مناف المؤثر ، وفيه يقول الشاعر :

كانتْ قُرَيشٌ بيْضةً فتفَلَّقَتْ   فالمحُّ خالِصها لعَبْدِ مَنافِ

وولده هاشم الذي هشم الثريد لقومه ، وفيه يقول الشاعر :

عَمْرُو العُلا هَشَمَ الثَّرِيدَ لقوْمِهِ   ورجالُ مكَّةَ مُسْنِتونَ عِجافُ

ومنا عبد المطلب الذي سقينا به الغيث ، وفيه يقول أبو طالب :

ونحنُ سُنيُّ المَحْلِ قامَ شَفيعُنا   بمكَّةَ يَدْعو والمِياهُ تغُورُ

---

(١) – هكذا في الاصل وفي نسخة عاثمة بنت عاثم وفي المسامرات غانمة بنت غانم

وابنه أبو طالب عظيم قريش ، وفيه يقول الشاعر :

آتيْتُه مَلِكاً فقامَ بحاجتي وتَرَى العُلَيِّجَ خائباً مَذْموما

ومنـــا العباس بن عبـــد المطلب أردفه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه ماله ، وفيه يقول الشاعر :

رَدِيفُ رَسولِ اللهِ لم نَرَ مِثلَه ولا مِثلُـه حتى القيامةِ يُولَدُ

ومنا حمزة سيد الشهداء ، وفيه يقول الشاعر :

أبا يَعْلَى بكَ الأرْكانُ هُدَّتْ وأنتَ الماجد البَرُّ الوَصول

ومنا جعفر ذو الجناحين أحسن الناس حالا وأكملهم كمالا ليس بغدار ولا جبان أبداله الله بكلتا يديه جناحين يطير بهما في الجنة ، وفيه يقول الشاعر :

هاتوا كَجَعْفَرِنا ومِثلَ عَلِيِّنا كانا أعزَّ النّاسِ عندَ الخالقِ

ومنا أبو الحسن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه أفرس بني هاشم ، وأكرم من احتبى وانتعل ، وفيه يقول الشاعر :

عليٌّ أنفَ الفُرْقانَ صُحْفاً ووالى المُصْطفي طِفْلاً صَبِيّا

ومنـــا الحسن بن علي عليه السلام سبط رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة ، وفيه يقول الشاعر :

يا أجلَّ الأنام يابن الوَصيّ أنتَ سبطُ النبيِّ وابن عليّ

ومنـــا الحسين بن علي حمله جبريل عليه السلام على عـاتقه وكفاه بذلك فخراً ، وفيه يقول الشاعر :

يا معشر قريش والله ما معاوية كأمير المؤمنين علي ولا هو كما يزعم هو والله شانيء رسول الله ﷺ واني آتية معاوية وقائلة له مـــا يعرق منه جبينه ويكثر منه عويله وأنينه ، فكتب عامل معاوية اليه بذلك ، فلما بلغه أنها قربت منه أمر بدار ضيافة فنظفت وألقى فيها فرش ، فلما قربت من المدينة استقبلها يزيد في حشمه ومماليكه ، فلما دخلت المدينة أتت دار أخيها عمرو بن عائم فقال لها يزيد : ان أبا عبد الرحمن يأمرك أن تنتقلي الى دار ضيافته وكانت لا تعرفه فقالت : من أنت كلأك الله ؟ قال : أنا يزيد بن معاوية ، قالت : فلا رعاك الله يا ناقص لست بزائد ، فتغير لون يزيد وأتى أباه فأخبره فقال : هي أسن قريش وأعظمهم حلما قال يزيد : كم تعد لها ؟ قال : كانت تعد على عهـد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة عام وهي من بقية الكرام ، فلما كان من الغد أتاها معاوية فسلم عليها فقالت : على المؤمنين السلام ، وعلى الكافرين الهوان والملام ، ثم قالت : أمنكم عمرو بن العاص ! قال عمرو : هـــا أنا ذا ، قالت : أنت تسب قريشاً وبني هاشم وأنت أهل السب وفيك السب واليك يعود السب يا عمرو اني والله عارفة بك وبعيوبك وعيوب أمك وإني أذكر ذلك : ولدت من أمة سوداء مجنونة حمقاء تبول من قيامها وتعلوها اللئام واذا لامسها الفحل فكان نطفتها أنفذ من نطفته ركبها في يوم واحد اربعون رجلا ، وأما أنت فقد رأيتك غاوياً غير مرشد ومفسداً غير مصلح ، والله لقـد رأيت فحل زوجتك على فراشك فما غرت ولا أنكرت ، وأما أنت يا معاوية فما كنت في خير ولا ربيت في نعمة فما لك ولبني هاشم نساؤك كنسائهم أم أعطى أمية في الجاهلية والاسلام ما أعطى هاشم ؟ وكفى فخراً برسول الله ﷺ ، فقال معاوية : أيتها الكبيرة أنا كاف عن بني هاشم ، قالت : فاني اكتب عليك كتاباً فقد كان رسول الله ﷺ دعا ربه ان يستجيب لي خمس دعوات أفأجعل

تلك الدعوات كلها فيك ? فخاف معاوية فحلف لا يسب بني هاشم أبداً ، فهذا ما كان بين معاوية وبين بني هاشم من المفاخرة . قال : وكان علي ابن عبدالله بن عباس عند عبدالملك بن مروان فأخذ عبدالملك يذكر أيام بني أمية ، فبينا هو على ذلك نادى المنادي بالآذان فقال : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقال علي :

هَذِي المكارِمُ لا قَعْبانِ مِنْ لَبَنٍ   شِيبا بماءٍ فعادا بَعْدُ أبْوالاَ

فقال عبدالملك : الحق في هذا أبين من أن يكابر . علي بن محمد النديم قال : دخلت على المتوكل وعنده الرضي فقال : يا علي من أشعر الناس في زماننا ? قلت : البحتري ، قال : وبعده ، قلت : مروان بن ابي حفصة عبدك ، فالتفت الى الرضي فقال : يابن عم من أشعر الناس . قال : علي ابن محمد العلوي ، قال وما تحفظ من شعره ? قال قوله :

لقدْ فاخَرَتْنا منْ قُرَيشٍ عصابةٌ   بِمَطِّ خُدودٍ وامْتِدَادِ أصابعِ

فلمَّا تنازَعْنا القَضاءَ قَضَى لنـا   عليهِمْ بما نَهْوَى نِداءُ الصَّوامِعِ

فقال المتوكل : ما معنى قوله ? ـ نداء الصوامع ـ قال : الشهادة قال : وأبيك انه اشعر الناس . ومما قيل في هذا المعنى من الشعر قوله أيضاً :

بلَغنا السَّماءَ بأنْسابنا   ولوْلا السَّماءُ لجُزْنا السَّماءَ

فحَسْبُكَ منْ سُؤْدَدٍ أنَّنا   بحُسْنِ البَلاءِ كَشفْنا البَلاءَ

إذا ذُكِرَ النَّاسُ كُنَّا مُلوكاً   وكانوا عَبيداً وكانوا إماءَ

يَطيبُ الثَّنـاءُ لآبائنـا   وذِكْرُ عليٍّ يُطيِّبُ الثَّناءَ

هَجاني رِجالٌ ولمْ أهجُهُمْ   أبى اللهُ لي أنْ أقولَ الهجاءَ

وقال آخر :

وإني منَ القومِ الذينَ عرفتهمْ ... إذا ماتَ منهمْ سَيِّدٌ قامَ صاحِبُه

أضاءَتْ لهُم أحسابُهم ووجوهُهم ... دُجى الليلِ حتى نَظَّمَ الجزعَ ثاقِبُه

نجومُ السماءِ كُلَّما انقَضَّ كوكَبٌ ... بدا كوكَبٌ تأوِي اليهِ كواكِبُه

وقال آخر :

خُطَباءُ حينَ يقولُ قائلُهُمْ ... بيضُ الوجوهِ مَقاوِلٌ لُسْنُ

لا يَفْطُنونَ لعيبِ جارِهِم ... وهُمُ لحفظِ جوارِهِمْ فُطُنُ

(ضده)

عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تفتخروا بآبائكم في الجاهلية فوالذي نفسي بيده لما يدحرج الجُعَلُ برجله خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية) . قال وكان الحسن البصري يقول : يا ابن آدم لم تفتخر وانما خرجت من سبيل بولين نطفة مشجت باقذار . وقال بعضهم لرجل : اتفتخر ؟ ويحك وأولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بينهما وعاء عذرة فما هذا الافتخار ؟ وروى عن ابن عباس أنه قال : الناس يتفاضلون في الدنيا بالشرف والبيوتات والامارات والغنى والجمال والهيئة والمنطق ويتفاضلون في الآخرة بالتقوى واليقين وأتقاهم أحسنهم يقيناً وأزكاهم عملاً وأرفعهم درجة . وقيل في ذلك :

يَزِينُ الفَتى في النّاسِ صِحّةُ عَقلِهِ ... وَإنْ كانَ مَحْظوراً عليهِ مكاسِبُه

وَشينُ الفتى في النّاسِ قِلّةُ عَقلهِ ... وإنْ كَرُمَتْ آباؤُهُ ومناسِبُه

وقيل لعامر بن قيس : ما تقول في الانسان ، قال : وما أقول فيمن

إن جاع ضرع وان شبع بغى وطغى . وقال بعض الحكماء : لا يكون الشرف بالنسب الا ترى أن أخوين لأب وأم يكون أحدهما أشرف من الآخر ولو كان ذلك من قبل النسب لما كان لأحد منهم على الآخر فضل . لان نسبهما واحد ، ولكن ذلك من قبل الاعمال ، لان الشرف انما هو بالفضل لا بالنسب قال الشاعر :

أبوكَ أبي والجدُّ لا شكَّ واحدٌ ولكنّنا عودانِ آسٌ وخِروَعُ

وبلغنا عن المدائني قال : ليس السؤدد بالشرف ، وقد ساد الاحنف ابن قيس بحلمه وحصين بن المنذر برأيه ومالك بن مسمع بمحبته في العامة وسويد بن منجوف بعطفه على أرامل قومه ، وساد المهلب بن أبي صفرة بجميع هذه الخصال . وأما الشرف بالدين فالحديث المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتاه أعرابي فقال بأبي أنت وأمي يارسول الله من أكرم الناس حسناً ؟ قال : أحسنهم خلقاً وأفضلهم تقوى ، فانصرف الاعرابي ، فقال : ردوه ثم قال يا أعرابي ، لعلك أردت اكرم الناس نسباً ؛ قال : نعم يا رسول الله ، قال يوسف الصديق صديق الله بن يعقوب اسرائيل الله بن اسحاق ذبيح الله بن براهيم خليل الله فاين مثل هؤلاء الآباء في جميع الدنيا ما كان مثلهم ولا يكون مثلهم أحد ابداً ، وقال الشاعر في ذلك :

ولم أرَ كالأسباطِ أبناءَ والدٍ ولا كأبيهم والداً حينَ يُنْسَبُ

قال : ودخل عيينة بن حصن الفزاري على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتسب له فقال : انا ابن الأشياخ الأكارم فقال صلى الله عليه وسلم (أنت إذا يوسف صديق الرحمن عليه السلام ابن يعقوب اسرائيل الله أو اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله) وقال صلى الله عليه وسلم (خير البشر آدم وخير العرب محمد وخير الفرس سلمان الفارسي وخير الروم صهيب وخير الحبشة بلال) قال : وسمع عمر بن الخطاب وهو خليفة صوتا

ولفظاً بالباب فقال لبعض من عنده : اخرج فانظر من كان من المهاجرين الأولين فأدخله ،فخرج الرسول فوجد بلالا وصهيباً وسلمان فأدخلهم وكان ابوسفيان ابن حرب وسهيل بن عمرو في عصابة من قريش جلوساً على الباب فقال : يا معشر قريش ، انتم صناديد العرب واشرافها وفرسانها بالباب ويدخل حبشي وفارسي وورومي ، فقال سهيل : يا ابا سفيان انفسكم فلوموا ولا تذموا امير المؤمنين دعى القوم فأجابوا ودعيتم فأبيتم وهم يوم القيامة اعظم درجات واكثر تفضيلا ، فقال أبو سفيان : لا خير في مكان يكون فيه بلال شريفاً (فأما صناعات الأشراف) فانه روى ان أبا طالب كان يعالج العطر والبز واما ابو بكر وعمر وطلحة وعبد الرحمن بن عوف فكانوا بزازين ، وكان سعد بن أبي وقاص يعذق النخل ،وكان أخوه عتبة نجارا ، وكان العاص بن هشام اخو أبي جهل بن هشام جزارا ، وكان الوليد بن المغيرة حدادا ، وكان عقبة بن أبي معيط خمارا ، وكان عثمان بن طلحة صاحب مفتاح البيت خياطا ، وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزيت والادم ، وكان امية بن خلف يبيع البوم ، وكان عبد الله بن جدعان نخاساً ، وكان العاص بن وائل يعالج الخيل والابل ، وكان جرير بن عمرو وقيس ابو الضحاك بن قيس ومعمر بن عثمان وسيرين بن محمد بن سيرين كانوا كلهم حدادين ، وكان المسيب أبو سعيد زياتا ، وكان ميمون بن مهران بزازا ، وكان مالك بن دينار وراقا ، وكان أبو حنيفة صاحب الرأي خزازا ، وكان مجمع الزاهد حائكا ، قيل : اتخذ يزيد بن المهلب بستاناً في داره بخراسان ، فلما ولى قتيبة ابن مسلم جعله لابله فقال مرزبان مرو : هذا كان بستانا وقد اتخذته لابلك ، فقال قتيبة : ابي كان اشتربان وكان ابو يزيد بستانبان فمنهما صار ذلك كذلك . قال وذكروا ان المأمون ذكر اصحاب الصناعات فقال: السوقة سفل والصناع انذال والتجار بخلاء والكتاب ملوك على الناس والناس أربعة : أصحاب الحرف وهي امارة وتجارة وصناعة وزراعة فمن لم يكن منهم صار عيالا عليهم .

٢٣ ـ محاسن الثقة بالله سبحانه

قيل : خطب سليمان بن عبد الملك فقال : الحمد لله الذي أنقذني من ناره بخلافته . وقال الوليد بن عبد الملك : لأشفعن للحجاج بن يوسف وقرة ابن شريك عند ربي وقال الحجاج : يقولون مات الحجاج ما أرجو الخير كله الا بعد الموت والله ما رضى الله البقاء الا لأهون خلقه عليه ابليس ابليس اذ قال « رب أنظرني الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم » . وقال أبو جعفر المنصور : الحمد لله الذي أجارني بخلافته وانقذني من النار بها . وحدثني ابراهيم بن عبد الله عن أنس بن مالك قال: دخلنا على قوم من الانصار وفيهم فتى عليل فلم نخرج من عنده حتى قضى نحبه فاذا عجوز عند راسه فالتفت اليها بعض القوم فقال : استسلمي لامر الله واحتسبي قالت : أمات ابني ؟ قال : نعم ، قالت : أحق ما تقولون ؟ قلنا : نعم ، فمدت يدها الى السماء وقالت : اللهم انك تعلم أني أسلمت لك وهاجرت الى نبيك محمد صلوات الله عليه رجاء أن تغيثني عند كل شدة فلا تحملني هذه المصيبة اليوم ، فكشف ابنها الذي سجيناه وجهه وما برحنا حتى طعم وشرب وطعمنا معه .

(ضده)

قال عيسى بن مريم صلوات الله ، تعالى عليه : يا معشر الحواريين ان ابن آدم مخلوق في الدنيا في أربع منازل : هو في ثلاث منها واثق وهو في الرابعة سيىء الظن يخاف خذلان الله اياه ، فأما المنزلة الأولى فانه خلق في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة فوفاه الله رزقه في جوف ظلمة البطن فاذا أخرج من ظلمة البطن وقع في اللبن لا يخطو اليه بقدم ولا ساق ولا يتناوله بيد ولا ينهض اليه بقوة بل يكره

اليه اكراهاً ويوجر إيجاراً حتى ينبت عليه لحمه ودمه ، فاذا ارتفع عن اللبن وقع في المنزلة الثالثة من الطعام من أبويه يكسبان عليه من حلال وحرام ، فان ماتا عطف عليه الناس هذا يطعمه وهذا يسقيه وهذا يؤويه وهذا يكسوه فاذا وقع في المنزلة الرابعة واشتد واستوى وكان رجلا خشي ان لا يرزق فيثب على الناس فيخون اماناتهم ويسرق امتعتهم ويغصبهم اموالهم مخافة خذلان الله تعالى إياه .

٢٤ ـ محاسن طلب الرزق

قال عمرو بن عتبة من لم يقدمه الحزم أخره العجز . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى « يا بن آدم أحدث لي سفراً أحدث لك رزقاً » ، وفي بعض الحديث (سافروا تغنموا) ، وقال الكميت بن زيد الأسدي :

ولنْ يُزيحَ هُمومَ النَّفْسِ إنْ حَضرَتْ
حاجاتُ مِثلِكَ إلاَّ الرَّحلُ والجَمَلُ

وقال أبو تمام الطائي :

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحيِّ مُخلِقٌ لِديباجتيْهِ فاغتربْ تتجدَّدِ
فإني رأيتُ الشَّمسَ زِيدَتْ مَحبَّةً إلى النَّاسِ أنْ ليستْ عليهم بسَرْمَدِ

وقال بعض الحكماء : لا تدع الحيلة في التماس الرزق بكل مكان ، فان الكريم محتال ، والدنيء عيال ، وأنشد :

فسِرْ في بلادِ الله والتمِسِ الغِنى   تَعِشْ ذا يسارٍ أو تموتَ فتُعْذرا
ولا تَرْضَ مِنْ عيشٍ بدُونٍ ولا تَنَمْ
وكيفَ يَنامُ الليلَ مَنْ كانَ مُعْسِرا

وتقول العامة : كلب جوال خير من أسد رابض ، وتقول : من غلى دماغه صائفاً غلت قدره شاتياً : ووقع عبد الله بن طاهر من سعى دعى ومن لزم المنام رأى الأحلام ، هذا المعنى سرقه من توقيعات أنوشروان فانه يقول : هرك روذ جرد هرك خسبد خواب ببند ، وأنشد :

كَفى حزَناً أنَّ النَّوى قذَفَتْ بنا   بَعيداً وأنَّ الرِّزقَ أعيتْ مَذاهِبُه
ولوْ أنّنا إذْ فرَّقَ الدهرُ بيننا   غنَي واحِدٍ منّا تَموّلَ صاحِبُه
ولكنّنا مِنْ دهرِنا في مَؤُونةٍ   يُكالِبُنا طَوْراً وطَوْراً نُكالِبُه

وقال آخر :

ومَنْ يَكُ مِثلي ذا عِيالٍ ومُقتِراً   مِنَ المالِ يَطرَحْ نفسَه كلَّ مَطرَح
ليَبْلُغَ عُذْراً أو يَنالَ غَنيمةً   ومُبْلِغُ نفسٍ عُذْرَها مِثلُ مُنْجِحِ

وقال آخر :

وليسَ الرِّزقُ عَنْ طَلَبٍ حَثيث   ولكِن أدل دَلوكَ في الدِّلاء
تَجِئْكَ بِمِلْئِها حيناً وطوْراً   تَجيء بحَمْأةٍ وقليلِ ماء

(ضده)

قيل : وجد في بعض خزائن ملوك العجم لوح من حجارة مكتوب

عليه : كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو ، فان موسى عليه السلام خرج ليقبس ناراً ، فنودي بالنبوة . وبلغنا عن ابن السماك أنه قال : لا تشتغل بالرزق المضمون عن العمل المفروض ، وكن اليوم مشغولا بما أنت مسئول عنه غداً وإياك والفضول فان حسابها يطول ،

قال الشاعر :

إني عَلِمْتُ وعِلْمُ المَرء يَنفَعُهُ أنَّ الذي هوَ رِزْقي سوْفَ يأتيني
أسْعَى لهُ فيُعَنِّيني تَطَلُّبُهُ ولوْ قَعَدْتُ أتاني لا يُعَنِّيني

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ ما كلُّ التَّعطُّلِ ضائرٌ ولا كلُّ شُغْلٍ فيه للمرْءِ مَنْفَعَه
إذا كانتِ الأرْزاقُ في القُرْبِ والنوى
عليكَ سَواءً فاغتَنِمْ لَذَّةَ الدَّعَه

وقال آخر :

سَهِّلْ عليكَ فإنَّ الرِّزْقَ مَقدُورُ وكلُّ مُستأنفٍ في اللوْحِ مَسْطورُ
أتى القَضاءُ بما فيهِ لِمُدَّتِهِ وكلُّ ما لمْ يكُنْ فيهِ فمَحْظورُ
لا تَكْذِبَنَّ فخيْرُ القولِ أصْدَقُهُ إنَّ الحَريصَ على الدُّنيا لَمَغرورُ

وقال آخر :

لا تَعْتِبَنَّ على العِبادِ فإنَّما يأتيكَ رِزْقُكَ حينَ يؤْذَنُ فيهِ

وقال آخر :

هيَ المقاديرُ تَجْرِي في أعِنَّتِها فاصبِرْ فليسَ لها صَبرٌ على حالِ
يوماً تَرِيشُ خَسيسَ القومِ تَرْفعه دونَ السَّماءِ ويوماً تَخْفِضُ العالي

وقال آخر :

اصبِرْ على زَمَنٍ جَمٍّ نوائبُه فليسَ منْ شِدَّةٍ إلا لها فَرَجُ
تَلقاهُ بالأمسِ في عَمْياه مُظلِمَةٍ ويُصْبِحُ اليومَ قدْ لاحَتْ له السُّرُجُ

وقال آخر :

ألاَ رُبَّ راجٍ حاجةً لا ينَالها وآخرَ قدْ تُقْضَى لهُ وهوَ آيسُ
يَجولُ لها هذَا وتُقْضَى لغيْرِه فتأتي الذي تقْضَى له وَهوَ جالِسُ

وقال آخر :

فلمَّا أنْ عُنِيتَ بما ألاقي وأعْيَتْني المسائلُ بالقُروضِ
دَعوتُ اللهَ لا أرْجو سِواهُ ورَبُّ العَرْشِ ذو فَرَجٍ عَريضِ

وقال آخر :

يا صاحبَ الهَمِّ إنَّ الهَمَّ مُنفَرِجٌ أبشِرْ بخيرٍ كأنْ قدْ فَرَّجَ اللهُ
اليأسُ يَقطَعُ أحياناً بصاحِبهِ لا تَيأَسَنَّ فإنَّ الصانِعَ اللهُ
إذا ابتُلِيتَ فثِقْ باللهِ وارْضَ بهِ إنَّ الذي يَكشُفُ البَلْوى هوَ اللهُ

وقال آخر :

وإذا تُصِبْكَ مِنَ الحوادثِ نَكبةٌ   فاصبِرْ فكُلُّ بَليّةٍ تتكشّف

٢٥ ــ محاسن المواعظ

قال الاصمعي : حججت فنزلت ضرية ، فاذا أعرابي قــد كور عمامته على رأسه وقد تنكب قوساً ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنما الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر ، فخذوا من ممركم لمقركم ، ولا تهتكوا استاركم عند من يعلم أسراركم اما بعد فانه لن يستقبل احد يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله ، فاستعجلوا لأنفسكم لمــا تقدمون عليه لا لما تظعنون عنه ، وراقبوا من ترجعون اليه فانه لا قوى أقوى من خالق ولا ضعيف أضعف من مخلوق ولا مهرب من الله إلا اليه ، وكيف يهرب من يتقلب بين يدي طالبه « وانما يوفون أجوركم يوم القيامــة فمن زحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » وقال بعض الأعراب : ان الموت ليقتحم على بني آدم كاقتحام الشيب على الشباب ، ومن عرف الدنيا لم يفرح بهــا فهو خائف ولم يحزن فيها على بلوى ولا طالب أغشم من الموت ، ومن عطف عليه الليل والنهار أردياه ، ومن وكل به الموت أفناه . وقال أعرابي كيف يفرح بعمر تنقصه الساعات وبسلامة بدن معرض للآفات ؟ لقد عجبت من المرء يفر من الموت وهو سبيله ولا أرى أحداً الا استدركه الموت . وقيل وجد في كتاب من كتب بزرجمهر صحيفة مكتوب فيها : ان حاجــة الله الى عباده أن يعرفوه فمن عرفه لم يعصه طرفة عين كيف البقــاء مع الفناء وكيف يأسى المرء على ما فاته والموت يطلبه . وقال كسرى : لم يكن من حق علمه أن يقتل والي

لنادم على ذلك (١) . قال : وحضرت الوفاة رجلا من حكماء فارس فقيل له : كيف حالك ؟ قال : كيف يكون حال من يريد سفراً بعيداً بغير زاد ويقدم على ملك عـادل بغير حجة ويسكن قبراً موحشاً بغير أنيس ؟

(ضـده)

قيل : لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز جزع أبوه عليه جزعاً شديداً فقال ذات يوم لمن حضره : هل من منشد شعراً يعزيني بـه أو واعظ يخفف عني فأتسلى به ؟ فقال رجل من أهل الشام : يا أمير المؤمنين كل خليل مفارق خليله بأن يموت أو يذهب إلى مكان ، فتبسم عمر بن عبد العزيز وقـال : مصيبتي فيك زادتني إلى مصيبتي مصيبة . وأصيب الحجاج بن يوسف بمصيبة وعنده رسول لعبد الملك بن مروان فقال : ليت إني وجدت إنساناً يخفف عني مصيبتي ، فقال له الرسول : أقول ، قال : قل ، قال : كل انسان مفارق صاحبه بموت أو بصلب أو بنار تقع عليه من فوق البيت أو يقع عليه البيت أو يسقط في بئر أو يغشى عليـه أو يكون شيء لا يعرفه ، فضحك الحجاج وقال : مصيبتي في أمير المؤمنين أعظم حين وجه مثلك رسولا .

٢٦ ـ محاسن فضل الدنيا

قال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منهـا ، مسجد أنبياء الله ، ومهبط وحيه ، ومصلى ملائكته ، ومتجر أوليائه يكسبون فيها الرحمـة ،

(١) ـ هكذا في الاصل وفي العبارة نقص فليحرر

ويربحون فيها الجنة فمن ذا يذمها ؟ وقد آذنت ببينها ونادت بفراقها ونعت نفسها وشوقت بسرورها إلى السرور وببلائها إلى البلاء تخويفاً وتحذيراً وترغيباً وترهيباً ، فيأيها الذام لدنيا والمفتن بغرورها متى غرتك أبمصارع آبائك من البلى أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى ؟ كم عللت بكفيك وكم مرضت بيديك تبتغي لهم الشفاء وتستوصف لهم الاطباء وتلتمس لهم الدواء ؟ لم تنفعهم بطلبتك ولم تشفعهم بشفاعتك ولم تستشفعهم باستشفائك بطبك مثلت بهم الدنيا مصرعك ومضجعك حيث لا ينفعك بكاؤك ولا يغني عنك أحباؤك ، ثم التفت إلى قبور هناك فقال : يا أهل الثراء والعز ، الازواج قد نكحت والاموال قد قسمت والدور قد سكنت هذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ، ثم قال لمن حضر والله لو أذن لهم لأجابوا بأن خير الزاد التقوى وأنشد :

مَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَهَا إِذَا أَطَاعَ اللهَ مَنْ نَالَهَا
مَنْ لَمْ يُوَاسِ النَّاسَ مِنْ فَضْلِهَا عَرَّضَ لِلإِدْبَارِ إِقْبَالَهَا

قال أبو حازم : الدنيا طالبة ومطلوبة طالب الدنيا يطلبه الموت حتى يخرجه منها ، وطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى توفيه رزقه . وقال الحسن البصري : بينا انا أطوف بالبيت اذا أنا بعجوز متعبدة فقلت : من أنت ؟ فقالت ؟ من بنات ملوك غسان ، قلت : فمن أين طعامك ؟ قالت : اذا كان آخر النهار جاءتني امرأة متزينة فتضع بين يدي كوزا من ماء ورغيفين ، قلت لها : أتعرفينها ؟ قالت : اللهم لا قلت : هي الدنيا خدمت ربك جل ذكره فبعث اليك الدنيا فخدمتك .

(ضده)

زعموا أن زياد بن ابيه مر بالحيرة فنظر إلى دير هناك فقال لخادمه : لمن هذا ؟ قيل له هذا دير حرقة بنت النعمان بن المنذر فقال : ميلوا بنا اليه

نسمع كلامها ، فجاءت إلى وراء الباب فكلمها الخادم فقال لهـا : كلمي الامير ، فقالت أأوجز أم أطيل ؟ قال : بل أوجزي قـالت : كنا أهل بيت طلعت الشمس علينا وما عـلى الارض أحد أعز منا وما غابت تلك الشمس حتى رحمنا عدونا قال : فامر لها باوساق من شعير فقالت : أطعمتك يد شبعاء جاعت ولا أطعمتك يد جوعاء شبعت ، فسر زياد بكلامها ، فقال لشاعر معه : قيد هذا الكلام ليدرس فقال :

سَلِ الْخَيْرَ أَهْلَ الخيرِ قِدماً ولا تَسَلْ
فَتىً ذاقَ طَعْمَ الْخَيْرِ مُنـذُ قَريبِ

ويقال : إن فروة بن إياس بن قبيصة انتهى الى دير حرقة بنت النعمان فألفاها وهي تبكي فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : ما من دار امتلأت سروراً إلا امتلأت بعد ذلك تبوراً ثم قالت :

فبينا نَسوسُ النّاسَ والأَمْـرُ أمرُنا
إذا نَحْنُ فيهِـمْ سُوقَـةٌ نتَنَصَّفُ
فأُفٍ لدُنيا لا يَدومُ نَعيمُها تَقلّبُ تاراتٍ بنا وتَصَرّفُ

قال : وقالت حرقة بنت النعمان لسعد بن ابي وقـاص : لاجعل الله لك الى لئيم حاجة ولا زالت لكريم اليك حاجة ، وعقـد لك المنن في اعناق الكرام ، ولا أزال بك عن كريم نعمة ولا أزالها بغيرك إلا جعلك سببا لردها عليه . قال : وقال عبدالملك بن مروان لسلم بن يزيد الفهمي : أي الزمان أدركت افضل وأي ملوكه أكمل ؟ قال : أما الملوك فلم أر إلا ذاما وحامداً ، وأما الزمان فرفع أقوامـاً ووضع آخرين وكلهم يذم زمانه لانه يبلي جديدهم ويهرم صغيرهم ، وكل مـا فيه منقطع إلا الامل

قال : فاخبرني عن فهم قال : هم كما قال الشاعر :

دَرَجَ اللّيْلُ والنّهارُ على فَهْـ ـمِ بْنِ عَمْرٍو فأصْبَحوا كالرَّميمِ
وخَلَتْ دارُهُمْ فأضْحَتْ قِفاراً بَعْدَ عِزٍّ وثَرْوَةٍ ونعيمِ
وكذاكَ الزّمانُ يَذْهَبُ بالنّا سِ وتَبقَى دِيارُهُمْ كالرُّسومِ

قال : فمن يقول منكم :

رأيتُ النّاسَ مُذْ خُلِقوا وكانوا يُحِبّونَ الغَنِيَّ مِنَ الرِّجالِ
وإنْ كانَ الغَنِي أقلَّ خيراً بَخيلاً بالقَليلِ مِنَ النَّوالِ
فلا أدْرِي عَلامَ وفيمَ هذا وماذا يَرْتَجونَ مِنَ المُحالِ
ألِلدُّنيا فليسَ هُناكَ دُنيا ولا يُرْجى لِحادِثَةِ اللّيالي

قال : انا وقد كتمتها . قال ولما دخل علي صلوات الله عليه المدائن فنظر الى إيوان كسرى أنشد بعض من حضره قول الاسود بن يعفر :

ماذا يؤمِّلُ بعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ تَرَكُوا مَنازِلَهمْ وبَعْدَ إيادِ
أهْلِ الخَوَرْنَقِ والسّديرِ وبارِقٍ
والقَصْرِ ذي الشُّرُفاتِ مِنْ سِنْدادِ
نَزَلوا بأنْقِرَةٍ يَسيلُ عَلَيْهِمُ ماءُ الفُراتِ يَجيءُ مِنْ أطْوادِ
أرْضٌ تخَيَّرَها لِطيبِ نَسيمِها كَعْبُ بنُ مامَةَ وابْنُ أمِّ دُوادِ
جَرَتِ الرِّياحُ على مَحَلِّ دِيارِهِمْ فكأنّما كانوا على ميعادِ

فإذا النّعيمُ وكُلُّ ما يُلْهى بِهِ   يَوْماً يَصيرُ إلى بِلًى ونفادِ

وقال علي صلوات الله عليه : أبلغ من ذلك قول الله تعالى « كم تَركوا مِنْ جَنّاتٍ وعُيونٍ وزُروعٍ ومَقامٍ كريمٍ ونَعمةٍ كانوا فيها فاكِهِينَ كذَلكَ وأوْرَثناها قوْماً آخَرينَ فما بَكَتْ عليهِمُ السَّماءُ والأرضَ ومَا كانوا مُنْظَرِينَ » .

وقال عبد الله بن المعتز : أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام . وقال غيره : طلاق الدنيا مهر الجنة . وذكروا أن أعرابياً ذكر الدنيا فقال : هي جمة المصائب رنقة المشارب . وقال آخر الدنيا لا تمتع بصاحب . قال أبو الدرداء : من هوان الدنيا على الله تعالى انه لا يعصى الا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها . وقال : إذا أقبلت الدنيا على امرىء أعارته محاسن غيره واذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه وقال الشاعر :

أيا دُنيا حَسَرْتِ لَنا قِناعا   وكانَ جَمالُ وجهِكِ في النِّقابِ
دِيارٌ طالَمـا حُجِبَتْ وعزّتْ   فأصْبحَ إذْنُها سَهْلَ الحِجابِ
وقَدْ كانَتْ لَنا الأيّامُ ذُلّتْ   فقَدْ قُرِنَتْ بأيّامٍ صِعابِ
كأنَّ العَيْشَ فيها كانَ ظِلاًّ   يُقَلِّبُهُ الزَّمانُ إلى ذَهابِ

قال الأصمعي : وجد في دار سليمان بن داود عليه السلام على قبته مكتوباً :

ومَنْ يَحْمَدِ الدُّنيا لِشَيْءٍ يَسُرُّهُ
فَسَوْفَ لَعَمْرِي عَنْ قَريبٍ يَلومُها

إِذا أَدْبَرَتْ كانَتْ عَلى المَرْءِ حَسْرَةً
وإِنْ أَقبَلَتْ كانَتْ كثيراً هُمومُها

وكان ابراهيم بن أدهم ينشد :

نُرَقِّعُ دُنيانا بِتَمْزيقِ دينِنا   فلا دِينُنا يَبقى ولا ما نُرَقِّعُ

وقال أبو العتاهية :

يا مَنْ تَرَفَّعَ بالدُّنيا وزينَتِها   لَيْسَ التَرَفُّعُ رَفعَ الطِّينِ بالطِّينِ
إِذا أَرَدْتَ شَريفَ القَوْمِ كُلِّهِمِ   فانْظُرْ إِلى مَلِكٍ في زِيِّ مِسكِينِ
ذاكَ الَّذي عَظُمَتْ في النّاسِ هِمَّتُهُ
وذاكَ يَصلُحُ لِلدُّنيا ولِلدِّينِ

وقال آخر :

هَبِ الدُّنيا تُساقُ إِلَيْكَ عَفْواً   أَلَيْسَ مَصيرُ ذاكَ إِلى زَوالِ

وقال محمود الوراق :

هيَ الدُّنيا فلا يَغْرُرْكَ مِنْها   مَخايِلُ تَسْتَفِزُّ ذوي العقُولِ
أَقلُّ قَليلِها يَكفيكَ مِنها   وَلٰكِنْ لَسْتَ تَقْنَعُ بِالقَليلِ
تُشيدُ وتَبْتَني في كُلِّ يَوْمٍ   وأَنْتَ عَلى التَّجَهُّزِ لِلرَّحيلِ
ومِنْ هذا عَلى الأَيّامِ تَبْقى   مَضارِبُهُ بِمَدْرَجَةِ السُّيُولِ

وقال آخر :

دُنيا تَداوَلَها ٱلعبادُ ذَميمَةٌ شيبَتْ بأكْرَهَ من نَقيعِ الحَنْظلِ
وَثَباتُ دُنيا ما تَزالُ مُلِمَّةً مِنْها فَجائِعُ مِثْلُ وَقْعِ الجَنْدَلِ

وقال آخر :

حتّى مَتَى أنتَ في دُنياكَ مُشْتَغِلٌ وعامِلُ اللهِ بالرَّحْمنِ مَشغولُ

وقال أبو نواس الحسن بن هانىء :

دَعِ الحِرْصَ عَلى الدُّنيا وفي ٱلعَيْشِ فَلا تَطْمَعْ
ولا تَجْمَعْ لَكَ المالَ فَما تَدْرِي لِمَنْ تَجْمَعْ
ولا تَدْرِي أفي أرْضِكَ أمْ في غَيْرِها تُصْرَعْ

قال الاصمعي : سمعت أبا عمرو بن العلاء وهو يقول : بينا أنا أدور في بعض البراري اذا أنا بصوت :

وإنَّ أمرأً دُنْياهُ أكْثَرُ هَمِّهِ لَمُسْتَمْسِكٌ مِنْها بِحَبْلِ غُرورِ

فقلت : أإنسي أم جني ؟ فلم يجبني أحد فنقشته على خاتمي . قال وسمع يحيى بن خالد بيت العدوي في وصفه الدنيا :

حُتوفُها رَصَدٌ وعَيْشُها نَكَدٌ وشُرْبُها رَنَقٌ ومُلْكُها دُوَلُ

فقال : لقد نظم في هذا البيت صفة الدنيا . قال وسمع المأمون بيت أبي نواس :

إذا ٱمتحَنَ الدُّنيا لبيبٌ تكَشَّفتْ لَهُ عَنْ عَدُوٍّ في ثِيابِ صَديقِ

فقال : لو سئلت الدنيا عن نفسها ما وصفت نفسها كصفة أبي نواس . وقيل للحسن البصري : ما تقول في الدنيا ، قال : ما أقول في دار : حلالها حساب وحرامها عقاب فقيل ما سمعنا كلاماً أوجز من هذا قال بلى كلام عمر بن عبد العزيز كتب اليه عدي بن أرطاة وهي علي حمص قد تهدمت واحتاجت الى صلاح حيطانها ، فكتب اليه : حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم والسلام .

٢٧ – محاسن الزهد

محمد بن الحسن عن أبي همام وكان قد عرف ضيغما قال : كنت معه في طريق مكة فلما بعدنا في الرمل نظر الى ما تلقى الابل من شدة الحر فبكى ضيغم فقلت : لو دعوت الله ان يمطر علينا كان أخف على هذه الابل ، قال : فنظر الى السماء وقال : ان شاء الله فعل قال : فو الله ما كان الا أن تكلم حتى نشأت سحابة فهطلت . وعن عطاء بن يسار أن أبا مسلم الخولاني خرج الى السوق بدرهم يشتري لأهله دقيقاً ، فعرض له سائل فأعطاه بعضه ثم عرض له سائل آخر فأعطاه الباقي ، فأتى النجارين فملأ مزوده من نشارة الخشب وأتى منزله فألقاه وخرج هارباً من أهله فاتخذت المرأة المزود فاذا دقيق حواري لم تر مثله فعجنته وخبزته ، فلما جاء قال : أين لك هذا ؟ قالت : الدقيق الذي جئت به . وعن أبي عبد الله القرشي عن صديق له قال : دخلت بئر زمزم فاذا بشخص ينزع الدلو مما يلي الركن ، فلما شرب أرسل الدلو فأخذته فشربت فضلته فاذا هو سويق لم أر أطيب منه ، فلما كانت القابلة في ذلك الوقت جاء الرجل وقد أسبل ثوبه على وجهه ونزع الدلو فشرب ثم أرسله فأخذته فشربت فضلته فاذا هو ماء مضروب بالعسل لم أر شيئاً قط أطيب منه فأردت أن آخذ طرف ثوبه فانظر من هو ففاتني ، فلما كان

في الليلة الثالثة قعدت قبالة زمزم في ذلك الوقت فجـاء الرجل وقـد أسبل ثوبه على وجهه فنزع الدلو فشرب وارسله وأخذته وشربت فصلته فاذا هو أطيب من الاول ، فقلت : يا هذا أسألك برب هذه البنية من أنت ؟ قال : تكتم علي حتى أموت ؟ قلت : نعم ، قال لي : أنا سفيان الثوري وكانت تلك الشربة تكفيني اذا شربتها الى مثلها لا أجد جوعا ولا عطشا . وقال الاصمعي أرأيت أعرابيا يكدح جبهته في الارض يريد ان تجعل سجادة فقلت ماتصنع ؟ قال : اني وجدت الاثر في وجه الرجل الصالح .

وقال الشاعر :

كَيفَ يَبْكي لِمحْبَسٍ في طُلولِ ... مَنْ سَيَقْضي ليوْمِ حَبس طويلِ
إنَّ في البَعْثِ والحِسابِ لَشُغْلًا ... عنْ وُقوفٍ برَسمِ رَبْعٍ مُحيلِ

وقال آخر :

إنَّ الشَّقيَّ الذي في النَّارِ مَنْزِلُه ... والفوْزُ فوْزُ الذي ينجو من النَّارِ
يارَبِّ أسرَفتُ في ذَنْبي ومَعْصِيتي ... وقدْ عَلِمْتُ يقيناً سوءَ آثارِي
فاغفِرْ ذُنوباً إلٰهي قدْ أحطْتَ بها ... رَبَّ العِبادِ وزَحزِحْني عنِ النَّارِ

وقال ذو الرمة :

تَعْصى الإلٰهَ وأنتَ تُظْهِرُ حُبَّه ... هـذا مُحالٌ في القِياسِ بديعُ
لوْ كانَ حُبُّكَ صادقاً لأطَعْتَهُ ... إن المُحِبَّ لمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

وقال أبو نواس :

أيا عَجَبـاً كيفَ يُعصى الإلٰهُ أمْ كيفَ يَجْحَدُه الجاحِدُ

ولله في كلِّ تحريكةٍ ... وتسكينةٍ فاعلَمْ شاهدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدُلُّ على أنّه واحدُ

وقال أيضاً:

سُبحانَ مَنْ خَلَقَ الخلـ ... قَ مِنْ ضَعيفٍ مَهِينِ
يَسوقُهُمْ مِنْ قَرارٍ ... إلى قرارٍ مَكِينِ
يَحُوزُ خَلْقاً فخَلْقاً ... في الحُجْبِ دُونَ العيونِ
حتّى بَدَتْ حرَكاتٌ ... مَخلوقةٌ مِنْ سُكونِ

وقال آخر:

أخي ما بالُ قلبِكَ ليسَ يَنْقَى ... كأنّكَ ما تَظُنُّ الموْتَ حقّا
الا يابنَ الذينَ مضَوْا وبادُوا ... أما واللهِ ما ذَهبوا لِتَبقَى
وما لَكَ غيرَ تقوَى اللهِ زادٌ ... إذا جعَلَتْ إلى اللّهَواتِ ترْقَى

وقال آخر:

يا قلبُ مَهْلاً وكنْ على حَذَرٍ ... فقد لَعَمْري أُمِرْتُ بالحَذَرِ
مالَكَ بالتُّرّهاتِ مُشْتَغلاً ... أفي يدَيْكَ الأمانُ مِنْ سَقَرِ

وقال آخر:

إنْ كُنْتَ تؤْمن بالقِيامَةِ ... واجترَأتَ على الخَطِيّه
فلَقدْ هلَكْتَ وإنْ جحَدْ ... تَ فذاكَ أعظَمُ لِلْبَلِيّه

وقال آخر

وأفْنِيَةُ المُلوكِ مُحَجَّباتٌ وبابُ اللهِ مَبذولُ الفَناء

فما أرْجو سِواهُ لكشْفِ ضُرّي ولا أفْزَعْ إلى غيْرِ الدُّعاءِ

ولا أدْعو إلى اللّأْواءِ كَهْفاً سِوَى مَنْ لا يَصَمُّ عنِ الدُّعاءِ

(ضده)

قيل : كان جندي بقزوين يصلي في بعض المساجد فافتقده المؤذن أياماً فصار اليه وقرع بابه عليه فخرج اليه فقال له المؤذن : أبو من ؟ قال : ابو الجحيم ، قال : بئس يا هذا رد الباب . قال : وقيل للقيني ما أيسر ذنبك ؟ قال : ليلة الدير ، قيل له : وما ليلة الدير ؟ قال : نزلت بدير نصرانية فأكلت عندها طفشيلاً بلحم خنزير وشربت خمرها وفجرت بها وسرقت كساءها وخرجت (١) . قيل أتى خمسة من الفتيان الى قرية فنزلوا على باب خان فقام أحدهم يصلي والباقون جلوس فمرت بهم نبطية فقالوا : دلينا على قحبة قالت نعم كم أنتم ؟ قالوا : نحن أربعة ، فأومى الذي يصلي بيده سبحان الله أنا الخامس .

وقال الشاعر :

وإنّي في الصَّلاةِ أحضُرُها ضَحْكَةُ أهلِ الصَّلاةِ إنْ شَهِدوا

(١) - ذكر ابن قتيبة في كتابه أخبار الشعراء هذه القصة لابي الطمحان القيني ، وقد نسبت هذه الجزئية أيضا للفرزدق وفيها يقول له جرير ،

وكنت اذا نزلت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عاراً

أَقْعُدُ في سَجْدَةٍ إذا رَكَعوا ... وأَرْفَعُ الرَّأْسَ إنْ هُمُ سَجَدوا
أَسْجُدُ والْقَوْمُ راكِعونَ مَعاً ... وأُسْرِعُ الْوَثْبَ إنْ هُمُ قَعَدوا
فَلَسْتُ أَدْرِي إذا هُم فَرَغوا ... كَمْ كانَ تِلْكَ الصَّلاةُ والْعَدَدُ

وقال آخر :

وأُصَلِّي فأَغْلَطُ الدَّهْرَ فيما ... بَيْنَ سَبْعٍ وأَرْبَعٍ وثَمانِ
ومَواقيتُ حينِها لَسْتُ أَدْرِي ... ما أَذانٌ مُوَقَّتٌ مِنْ أَذانِ

وقال آخر :

نِعْمَ الْفَتَى لوْ كانَ يَعْرِفُ رَبَّهُ ... ويُقِيمُ وَقْتَ صلاتِهِ حَمَّادُ
عَدَلَتْ مَشافِرُهُ الدِّنانُ فأَنْفُهُ ... مِثْلُ الْقَدومِ يَسُنُّهُ الحَدَّادُ
فَابْيَضَّ مِنْ شُرْبِ المُدامَةِ وَجْهُهُ ... فَبَياضُهُ يَوْمَ الْحِسابِ سَوادُ

وقال آخر :

إنْ قَرَأَ العادِياتِ في رَجَبٍ ... لَمْ يَعْدُ مِنْها إلاّ إلى رَجَبِ
بَلْ نَحْنُ لا نَسْتَطِيعُ في سَنَةٍ ... نَخْتِمُ تَبَّتْ يَدا أَبي لَهَبِ

٢٦ ـ محاسن النساء العاديات

قيل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحسن قول الخنساء في

صخر أخيها .

لا بُدَّ من مَيْتَةٍ في صَرْفِها غِيَرٌ ... والدَّهرُ مِن شأنِهِ حَوْلٌ وإِضْرارُ
وإنَّ صَخْراً لَتأْتَمُّ الهُداةُ بِهِ ... كأنَّهُ عَلَمٌ في رَأْسِهِ نارُ

وقيل للخنساء : صفي لنا صخرا ؟ فقالت : كان مطر السنة الغبراء وذعاف الكتيبة الحمراء ، قيـل فمعاوية ؟ قالت : حياء الجدبة اذا نزل ، وقرى الضيف اذا حل ، قيل : فايهما كان عليك أحنى ؟ قالت أما صخر فسقام الجسد ، وأما معاوية فجمرة الكبد وأنشدت :

أَسَدانِ مُحْمَرّا المَخالِبِ نَجْدَةً ... غَيْثانِ في الزَّمَنِ الغَضوبِ الأَعْسَرِ
قَمَرانِ في النَّادِي رَفِيعا مَحْتِدٍ ... في المَجْدِ فَرْعَا سُودَدٍ مُتَخَيَّرِ

وروى انها دخلت على عائشة أم المؤمنين وعليها صدار مـن شعر ، فقالت لها عائشة : أتتخذين الصدار وقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه ؟ فقالت : يا أم المؤمنين ان زوجي كان رجلا متلافاً منفقاً فقال لي : لو أتيت معاوية فاستعنتيه ، فخرجت وقد لقيـني صخر فأخبرته فشاطرني ماله ثلاث مرات ، فقالت له امرأته : لو أعطيتها من شرارها — تعني الابل — فقال :

تاللهِ لا أَمْنَحُها شِرارَها ... وهْيَ حَصانٌ قد كَفَتْني عارَها
وإنْ هَلَكْتُ مَزَّقَتْ خِمارَها ... واتَّخَذَتْ مِنَ شَعْرٍ صِدارَها

فلما هلك صخر اتخذت هذا الصدار ونذرت أن لا أنزعه حتى أموت

قال ثور بن معن السلمي : حدثني أبي قال : دخلت على الخنساء في الجاهلية وعليها صدار من شعر وهي تجهز ابنتها فكلمتهـا في طرح الصدار فقالت : يا حمقاء والله لأنا أحسن منك عرسا ، وأطيب منك درساً ، وأرق منك نعلا

وأكرم منك بعلا . قال عبد الرحمن بن مرة عن بعض أشياخه ان عمر بن الخطاب قال للخنساء : ما أقرح مآقي عينيك ؟ قالت : بكائي على السادات من مضر ، قال : ياخنساء انهم في النار قالت : ذلك أطول لعويلي . ومما اخترنا من أشعارها قولها :

تَفَرَّقَني الدَّهْرُ قَرْعاً وغَمْزاً ... وأَوْجَعَني الدَّهْرُ نَهْشاً ووَخْزا

وأفنى رجالي فبادوا مَعاً ... فأَصْبَحَ قَلْبي لَهُمْ مُسْتَفَزّا

كأَنْ لَمْ يكونوا حِمًى يُتَّقى ... إذِ النَّاسُ إذ ذاكَ مَنْ عَزَّ بَزّا

وكانوا سَراةَ بني مالِكٍ ... وزَيْنَ الْعَشيرَةِ مَجْداً وعِزّا

وهُمْ في الْقَديمِ صِحاحُ الأديمِ ... والْكائِنونَ مِنَ النَّاسِ حِرْزا

بِسُمْرِ الرِّماحِ وبِيضِ الصِّفاحِ ... فبالْبِيضِ ضَرْباً وبالسُّمْرِ وَخْزا

حَزَزْنا نَواصِيَ فُرْسانِكُمْ ... وكانوا يَظُنُّونَ أَنْ لاَ تُحَزّا

ومَنْ ظَنَّ مِمَّنْ يُلاقي الْحُروب ... بأَنْ لا يُصابَ فَقَدْ ظَنَّ عَجْزا

نَعِفُّ ونَعْرِفُ حَقَّ الْقِرى ... ونَتَّخِذُ الْحَمْدَ ذُخْراً وكَنْزا

ونَلْبَسُ في الْحَرْبِ نَسْجَ الْحَديدِ ... وفي السِّلْمِ نَلْبَسُ خَزّا وقَزّا

وروي خبر الخنساء من جهة أخرى ذكروا أنها أقبلت حاجة فمرت بالمدينة ومعها أناس من قومها ، فأتوا عمر بن الخطاب فقالوا : هذه خنساء فلو وعظتها فقد طال بكاؤها في الجاهلية والاسلام ، فقام عمر وأتاها وقال : يا خنساء قال : فرفعت رأسها فقالت : ما تشاء وما الذي تريد ؟ فقال : ما الذي أقرح مآقي عينيك ؟ قالت : البكاء على سادات مضر . قال : انهم هلكوا في الجاهلية وهم أعضاد اللهب وحشو جهنم ، قالت : فداك أبي وامي فذلك

الذي زادني وجعا ، قال : فأنشديني ما قلت ، قالت : أما أني لا أنشدك ما قلت قبل اليوم ولكني أنشدك ماقلته الساعة ، فقالت :

سَقَى جَدَثاً أعْراقُ غَمْرَةَ دونَهُ وبيشَةُ دِيمَاتُ الرَّبيعِ ووابِلُه
وكنْتُ أعيرُ الدَّمعَ قبْلَكَ مَنْ بَكَى
فأنْتَ على مَنْ ماتَ قَبْلَكَ شاغِلُه
وأرْعيهُمُ سَمْعِي إذا ذَكَروا الأسَى
وفي الصَّدْرِ مِنِّي زَفْرَةٌ لا تُزايلُه

فقال عمر : دعوها فانها لا تزال حزينة أبداً . ليلى الأخيلية هجاها رجل من قومها فقال :

ألاَ حَيِّيا لَيْلَى وقولاَ لَهَا هَلاَ فَقَدْ رَكِبَتْ إيراً أغَرَّ مُحَجَّلاَ

فأجابته :

تُعَيِّرُنِي داءً بأُمِّكَ مِثْلُهُ وأيُّ جَوادٍ لا يُقالُ لَه هَلاَ

ذكروا انها دخلت على عبد الملك بن مروان فقال لها : يا ليلى هل بقي في قلبك من حب توبة فتي الفتيان شيء ؟ قالت : وكيف أنساه ؟ وهو الذي يقول يا أمير المؤمنين :

ولَوْ أن لَيْلَى في ذَرَى مُتَمَنّعٍ بِنَجْرانَ لاَلْتَفَّتْ عَليَّ قُصورُها
حَمامَةَ بَطْنِ الْوادِيَيْنِ تَرَنَّمي
سَقاكِ مِنَ الْغرِّ الْغَوادِي مَطيرُها

أبـيني لنـا لا زالَ ريشُكِ ناعمـاً (١)
وبَيْضُكِ في خَضْراءَ غُصْنٍ نَضـيرُها

تَقولُ رِجـالٌ لا يَضيرُكَ نأيُهـا
بَلى كُلُّ مـا شَفَّ النُّفوسَ يَضيرُها

أيَذْهَبُ رَيْعـانُ الشَّبابِ ولمْ أزُرْ
كَواعِبَ في هَمْـدانَ بِيضاً نُحورُها

قال: عمرك الله أن تذكيه. ولتوبة في ليلى الاخيلية:

وَلَوْ أنَّ لَيلى الأخْيَلِيَّةَ سَلَّمَتْ عَليَّ ودوني جَنْدَلٌ وَصَفائِـحُ
لَسَلَّمتُ تَسْليمَ الْبَشاشَةِ أوْ زَقا
إلَيْها صَدًى مِنْ جانِبِ الْقَبْرِ صائِحُ
وَلَوْ أنَّ لَيْـلى في السماءِ لَأصعَدَتْ
بِطَرْفي إلى لَيْـلى الْعُيُونُ اللـوَامِحُ

فلما مات توبة مر زوج ليلى بليلى على قبره فقال لها: سلمي على توبة فانه زعم في شعره أنه يسلم عليك تسليم البشاشة، فقالت: ما تريد الى من بليت عظامه، فقال: والله لتفعلن، فقالت وهي على البعير: سلام عليك ياتوبة فتى الفتيان، وكانت قطاة مستظلة في ثقب من ثقب القبر، فلما سمعت الصوت طارت وصاحت فنفر البعير ورمى بليلى فماتت فدفنت الى جنب

(٢) رواية أبي علي القالي ليه ولا زلت في خضراء غص نضيرها

قبر توبة . قال وسأل الحجاج ليلى هل كان بينك وبين توبة ريبة قط ؟ قالت : لا والذي اسأله صلاحك ألا أنه مرة قال لي قولا ظننت انه خنع لبعض الأمر فقلت له :

وذِي حاجةٍ قُلنا لهُ لا تَبُحْ بها ... فليسَ إليها ما حييتُ سَبيلُ
لَنا صاحِبٌ لا يَنْبغي أنْ نخونَهُ ... وأنتَ لأُخرى فارِغٌ وخليلُ

فما كلمني بعد ذلك بشيء حتى فرق بيني وبينه الموت ، قال الحجاج. فما كان بعد ذلك ؟ قالت : لم يلبث أن قال لصاحب له : إذا اتيت الحاضر من بني عباد فقل بأعلى صوتك :

عَفَا اللهُ عنها هَلْ أبيتَنَّ ليلةً ... مِنَ الدهرِ لا يَسْرِي إليَّ خيالُها

فلما سمعت الصوت خرجت فقلت :

وعنهُ عَفا ربّي وأحسَنَ حالَهُ ... تَعِزُّ علينا حاجةٌ لا يَنالُها

قال : ودخلت ليلى على الحجاج فأنشدته قولها فيه :

إذا نَزَلَ الحجّاجُ أرْضاً سَقيمَةً ... تَتبّعَ أقصَى دائِها فشَفاها
شَفاها مِنَ الداءِ العُضالِ الذي بها ... غُلامٌ إذا هَزَّ القَناةَ ثَناها
أحجّاجُ لا تُعْطي العُصاةَ مُناهُمُ ... ولا اللهُ يُعْطي لِلعُصاةِ مُناها

فوصلها الحجاج بألف دينار ، وقال : لو قلت : بدل غلام همام لكان أحسن . هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان قيل : لما قتل شيبة وعتبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة رثتهم هند فقالت :

إنّي رَأيْتُ فساداً بَعدَ إصْلاحِ ... في عَبْدِشَمْسٍ فقلْبي غيرُ مُرتاحِ

هاجتْ لهمْ أدمُعٌ تترى ومَنبعُها

مِنْ رأسِ مَخروبَةٍ ما إنْ لها لاحي

لَمَّا تنادَتْ بَنو فِهرٍ على حَنَقٍ والموتُ بينَهمُ ساعٍ لِأرواحِ

كَأَنَّما النَّسْجُ في قتلى مُصرَّعَةٍ سُرُجٌ أضاءَتْ على جُدْرٍ وألواحِ

يا آلَ هاشِمٍ إنّا لا نُصالِحُكمْ

حتّى نَرى الخَيْلَ تَرْدِي كلَّ كَفّاحِ

إنْ يُمْكِنِ اللهُ يَوماً مِنْ هَزيمَتِكمْ

يورِثْ نِساءَكمُ داءً بِتَقْراحِ

فأجابتها عمرة بنت عبد الله بن رواحة الانصاري :

يا هِنْدُ مَهلًا لقدْ لاقيتِ مُهْلَةً يَوْمَ الأعِنَّةِ والأرواحُ في الرّاحِ

أُسْدٌ غَطارِفَةٌ غُرٌّ جَحاجِحةٌ أبْناءُ مُحْصِنَةٍ بِيضٌ لِجَحْجاحِ

هُنالِكَ الفَوْزُ والرِّضوانُ إنْ صَبَروا

مَعَ الرَّسولِ فما آبوا بِتَقْباحِ

اللهُ أهلَكَهُمْ والأوسُ شاهِدَةٌ والخَزْرَجُ الغُرُّ فيهِمْ كلُّ مُجْتاحِ

لا تَبْعَدَنَّ فإنّي غيرُ صارِخَةٍ

وكَيْفَ تَصْرُخُ ذاتُ البَعْلِ يا صاحِ

٢٩ ـ النساء الماجنات

قال سليمان بن عبد الملك : أنشدوني أحسن ما سمعتم من شعر النساء فقال بعضهم : يا أمير المؤمنين سار رجل من الظرفاء في بعض طرقاته إذ أخذته السماء ، فوقف تحت مظلة ليستكن من المطر وجارية مشرفة عليه ، فلما رأته حذفته بحجر فرفع رأسه وقال :

لَوْ بِتُفَّاحةٍ رَمَيْتِ رَجونا ومِنَ الرَّمي بِالحَصاةِ جَفاءُ

فأجابته :

ما جَهِلْنا الذي ذَكَرْتَ مِنَ الشَّكْلِ ولا بالذي نَراهُ خَفاءُ

وداية معها فقالت :

قَدْ بَدا أتيهِ ما ذَكَرْتِ وجَدّي لَيْتَ شِعْري فهَلْ لِهَذا وَفاءُ

وسائلة في الباب فقالت :

قَدْ لَعَمْري دَعَوْتَها فأجابَتْ هِيَ داءٌ وأَنْتَ مِنْهُ شِفاءُ

قال سليمان قاتلها الله هي والله أشعرهم :

(عنان جارية الناطفي) قال السلولي : دخلت يوماً على عنان وعندها رجل اعرابي ، فقالت أيا عم لقد أتى الله بك ، قلت : وما ذاك ؟ قالت : هذا الاعرابي دخل علي فقال : بلغني أنك تقولين الشعر فقولي بيتاً ، فقلت له : قولي ، فقالت : قد رتج علي ، فقل أنت ، فقلت :

لَقَدْ جَدَّ الفِراقُ وعيلَ صَبْري عَشِيَّةَ عيرُهُمْ لِلبَيْنِ زُمَّتْ

فقال الاعرابي :

نَظَرْتُ إلى أوَاخِرِها ضُحَيًّا وقَدْ بانَتْ وأرْضَ الشَّامِ أمَّتْ

فقالت عنان :

كَتَمْتُ هَواكُمْ في الصَّدْرِ مِنِّي عَلى أنَّ الدُّموعَ عَلَيَّ نَمَّتْ

فقال الاعرابي : انت والله اشعرنا ، ولولا انك بحرمة رجل لقبلتك ، ولكني اقبل البساط . وقال بعضهم : دخلت علي عنان فاذا عليها قميص يكاد يقطر صبغة وقد تناولها مولاها بضرب شديد وهي تبكي فقالت :

إنَّ عِنانًا أرْسَلَتْ دَمْعَها كالدُّرِّ إذْ يَنْسَلُ مِنْ سَمْطِهِ

فقالت واشارت الى مولاها :

فلَيْتَ مَنْ يَضْرِبُها ظالِمًا تجِفُّ يُمْناهُ عَلى سَوْطِهِ

فقال مولاها : هي حرة لوجه الله ان ضربتها ظالما او غير ظالم ، قال : واجتمع ابو نواس والفضل الرقاشي والحسين الخليع وعمرو الوراق ومحكم ابن رزين والحسين الخياط في منزل عنان فتناشدوا الى وقت العصر ، فلما ارادوا الانصراف قالوا : اين نحن الليلة : فكل قال : عندي ؟ فقالت عنان : بالله قولوا شعرا وارضوا بحكمي ، فقال الرقاشي :

عذراءُ ذاتُ احْمِرارِ إني بها لا أحاشي
قوموا نَدامايَ رَوُّوا مُشاشَكُم منْ مُشاشي
وناطِحوني كُئوسًا نِطاحَ صُلْبِ الكِباش
وإنْ نَكَلْتُ فحِلٌّ لكمْ دَمي ورِياشي

فقال ابو نواس :

لا بل إليَّ ثِقاتي قوموا بنا بحَياتي
قوموا نَلَذُّ جميعاً بقولِ هاكِ وهاتِ
فإنْ أرَدْتم فَتاةً أتيتُكُمْ بفتاتي
وإنْ أرَدْتم غُلاماً صادَفتُموني مُؤاتي
فبادِرُوهُ مُجوناً في وَقتِ كلِّ صلاةِ

وقال الحسين الخليع :

أنا الخَليعُ فقوموا إلى شَرابِ الخَليعِ
إلى شَرابٍ لذيذٍ وأكل جَدْيٍ رَضيع
ونيكِ أحوى رَخيمٍ بالخَنْدَرِيسِ صَريعِ
قوموا تَنالوا وَشيكاً مِثالَ مُلكٍ رَفيعِ

وقال الوراق :

قوموا إلى بيتِ عَمْرٍو إلى سماعٍ وخَمْرِ
وساقياتٍ علينا تُطاعُ في كلِّ أمْرِ
وَبَيْسَريٍّ رَخيمٍ يَزْهُو بجيدٍ ونَحْرِ
فذاكَ برٌّ وإنْ شِئتُمْ أتيْنا ببَحْرِ
هذا وليسَ عليكُمْ أولى ولا وَقتَ عصْرِ

وقال محكم بن رزين :

قوموا إلى دارِ لَهْوٍ وظلِّ بيتٍ دَفينِ
فيه منَ الوَرْدِ والمَرْ زَنْجُوش والياسْمِينِ
وريحِ مسكٍ ذَكيٍّ وَجَيِّدِ المرزُجونِ
قومو فصيرُوا جميعاً إلى الفَتى ابن رَزينِ

فقال الحسين الخياط :

قَضَتْ عِنانُ علينا بأَنْ نَزُورَ حُسَيْنا
وأنْ تقِرُّوا لدَيْهِ بالقَصْفِ واللهو عَيْنا
فما رأينا كَظَرْفِ الحُسينِ فيما رَأينا
قدْ قَرَّبَ اللهُ مِنهُ زَيناً وباعَدَ شَينا
قوموا وقولوا أجزْنا ما قدْ قَضيْتِ علَينا

وقالت عنان :

مَهْلاً فَديتُكَ مَهلاً عِنَانُ أحرَى وأوْلى
بأنْ تَنالوا لدَيها أسنَى النَّعيمِ وأحلى
فإنّ عِنْدي حَراماً منَ الشَّرابِ وحِلاّ
لا تَطْمَعوا في سَوائي منَ البَرِيَّةِ كَلاّ
يا سادَتي خَبِّروني أجازَ حُكْمِي أمْ لاَ

فقالوا جميعاً : قد أجزنا حكمك وأقاموا عندها . قـال : وكتبت عنان الى الفضل بن الربيع :

كُنْ لي هُديتَ إلى الخَليفَةِ سُلَّما بُورِكْتَ يا بْنَ وزيرِهِ مِنْ سُلَّمِ
حُثَّ الإمامَ على شِرايَ وقُلْ لَهُ رَيحانَةٌ ذُخِرَتْ لأنفِكَ فاشْمَمِ

وكانت عنان تتوقى أبا نواس وتخاف مجونه وسفهه ، وفيها يقول :

عِنانُ يا مَنْ تُشْبِهُ الْعِينـا أنْتُم عَلى الْحُبِّ تَلومونا
حُسْنُكِ حُسْنٌ لا يُرَى مِثْلُهُ قَدْ تَرَكَ النّاسَ مَجانِينا

فتهيأت لأبي نواس وتصنعت له الى أن صار اليها فرأى عندها بعض وجوه أهل بغداد فأحب أن يخجلها ، فقال لها :

ما تَأْمُرينَ لِصَبٍّ يَكْفيهِ مِنْكِ قُطَيْرَهْ

فقالت :

إيّايَ تَعْني بِهـذا عَلَيْكَ فاجْلِدْ عُمَيْرَهْ

فقال :

إِنّي أخافُ ورَبّي عَلى يَدي مِنْ عُبَيْرَه

فقالت :

عَلَيْكَ أُمَّكَ نِكْها فإنّها كَنْدَبيرَه

فأخجلته ، وشاع الخبر حتى بلغ الرشيد فاستظرفها وطلبها من الناطفي فحملت اليه فقال لها : يا عنان ، قالت : لبيك يا سيدي ، فقال : مـا

تأمرين اصب ؟ قالت : قد مضي الجواب في هذا يا أمير المؤمنين ، قال : بحياتي كيف قلت ؟ قالت : قلت

إيّايَ تَعْني بهذا عَلَيْكَ فاَجْلِدْ عُمَيْرَهْ

فضحك الرشيد وطلبها من مولاها فاستام فيها مالا جزيلا فردها

(عريب جارية المأمون)

وأنتم أناسٌ فيكُمُ الغدْرُ شيمَةٌ لَكُمْ أوْجُهٌ شتّى وألْسِنَةٌ عشْرُ

عَجِبْتُ لِقَلْبي كَيْفَ يَصْبو إلَيْكمُ على عُظْمِ ما يَلْقى ولَيْس لَهُ صَبْرُ

(فضل الشاعرة) حدثنا القاسم بن عبد الله الحراني قال : كنت عند سعيد بن حميد الكاتب ذات يوم وقد افتصد ، فأتته هدايا فضل الشاعرة ألف جدي ، وألف دجاجة ، وألف طبق رياحين ، وطيب وعنبر ، وغير وغير ذلك ، فلما وصل ذلك كتب اليها : ان هذا اليوم لا يتم سروره الا بك وبحضورك ، وكانت من احسن الناس ضربا بالعود ، وأملحهم صوتا ، وأجودهم شعراً ، فأتته فضرب بينه وبينها حجاب ، وأحضر قوماً ندماءه ، ووضعت المائدة وجيء بالشراب ، فلما شربنا أقداحنا اخذت عودها فغنت بهذا الشعر والصوت لها والشعر والأبيات هذه :

يا مَنْ أطلْتُ تفرّسي في وَجْهِهِ وتنفّسي

أفْديكَ مِنْ مُتَدَلّلٍ يَزْهو بِقتْلِ الأنفسِ

هَبْني أسأتُ وما أسَأْ تُ بلى أقولُ أنا المسي

أحْلَفْتَني أنْ لا أسا رِقُ نَظْرَةً في مَجلِسي

فنَظَرْتُ نَظْرَةَ عاشِقٍ أتبَعْتُها بِتَنَفّسِي

وَنَسِيتُ أَنِّي قَدْ حَلَفْتُ　　فَمَا يُقَالُ لِمَنْ نَسِي

وضربت أيضاً وغنت :

عادَ الحَبيبُ إِلى الرِّضا　　فَصَفَحْتُ عَمَّا قَدْ مَضى

مِنْ بَعْدِ ما لِصُدودِهِ　　شَمِتَ الحَسودُ فَعَرَّضا

تَعِسَ البَغيضُ فَلَمْ يَزَلْ　　لِصُدودِنا مُتَعَرِّضا

هَبْنِي أَسأْتُ وما أَساْ　　تُ فَإِنْ اسأْتُ لكَ الرِّضا

قال فما أتى علي يوم أسر من ذلك اليوم :

(صـــاحبة الفرزدق) ذكروا أن الفرزدق كان مع أصحاب له فاذا هو بجارية مع مولاها فقال لاصحابه : هل أخجل لكم هذه ؟ قالوا : نعم فقال :

إِنَّ لي أَيراً خَبيثـــاً　　لَوْنُهُ يَحكي الكُمَيْتا

لو يَرى في السَّقْفِ صَدْعاً　　لَتحوَّل عَنْكَبُوتا

أَو يَرَى في الأَرْضِ شقـّاً　　لَنزَا حتَّى يَمــوتا

فقالت الجارية :

زَوِّجوا هذَا بأَلْفٍ　　وأَرَى ذٰلكَ قُوتا

قَبلَ أَنْ يَنْقِلِبَ الدَّا　　ءُ فَلاَ يأتي ويوتَى

فخجل الفرزدق وانصرف : (١)

---

(١) في هامش الاصل . قيل ان هذه الردافـــة جرت بين ابي نواس وعنان جارية الناطفي والابيات تروى على غير هذا .

(صاحبة جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي) قالت :

عَزَمْتُ على قلبي بأنْ أكتُمَ الهَوَى فضَجَّ ونادَى إنّني غيرُ عاقِل
فإنْ حانَ موْتي لمْ أدعكَ بغُصَّتي وأقْرَرْتُ قبلَ الموْتِ أنكَ قاتلي

(جارية البارقي) ذكروا انها أنشدت في مجلس عمرو بن مسعدة :

يا أحسَنَ العالَمِ حتّى متَى يَرْتَفِعُ الحبُّ وانْحَطّ
وكيفَ مَنْجايَ وبَحرُ الهَوى مُذْ حفَّ بي ليسَ لهُ شَطّ

فأجيبت :

يُدرِكُكَ الوصلُ فتنجو بهِ أو يقعُ البَحْرُ فتنحَطّ

(المغنية المليحة) قال علي بن الجهم : كنت في مجلس محمد بن عمرو بن مسعدة فأقبلت جارية كأنها البدر ليلة التمام بلون كأنه الدر في البياض مع احمرار خدين كشقائق النعمان فسلمت ، فقال لي محمد : يا أبا الحسن هذه الجنة التي كنتم توعدون . فقالت :

وما الوعْدُ يا سُؤلي وغايةَ مُنْيَتي فإنَّ فؤادي منْ مقالِكَ طائرُ

فقال لها محمد :

أمَا وإلهِ العَرْشِ ما قلتُ سيِّئاً وما كانَ إلا أنّني لكِ شاكِرُ

فقال ابن الجهم :

أمْسكْ فدَيتُكِ عنْ عِتابِ مُحمَّدٍ فهوَ المصونُ لوُدِّه المُتحاذِرُ

فأقبلت تحدثنا ، فاذا عقل كامل ، وجمال فاضل ، وحسن قاتل ، وردف
انل فقلت : لقد أقر الله عينا تراك فقالت : أقر الله أعينكـــم ، وزاد كم
سرورا وغبطة ، ثم اندفعت تغني بنغمة لم أسمع أحسن منها :

أَرُوحُ بِهَمٍّ مِنْ هَواكَ مُبَرِّحٍ أُناجي بهِ قلباً كثيرَ التفكُّرِ
عليكَ سلامٌ لا زِيارَةَ بينَنــا ولا وَصْلَ إلاّ أنْ يشاءَ ابْنُ مَعْمَرِ

فما زلنا يومنا ذلك معها في الفردوس الاعلى ، وما ذكرتها بعد ذلك
إلا اشتقت لها وأسفت عليها . محمد بن حماد قال : كنا يوما عند اسحاق
ابن نجيح وعنده جارية يقال لها : شادن موصوفة بجودة ضرب العود ، وشجو
صوت ، وحسن خلق ، وظرف مجلس ، وحلاوة وجه ، وأخذت العود وغنت :

ظَبيٌ تكامَلَ في نِهايةِ حُسنِه فَزَهــا ببهْجتِه وتاهَ بصَــدِّه
فالشَّمْسُ تَطْلعُ منْ فِرِنْدِ جَبينِه والبَدْرُ يَغْرَقُ في شقَائقِ خَدِّهِ
مَلكَ الجَمَالَ بأسْرِهِ فكأنَّما حُسْنُ البَرِيَّةِ كلُّها منْ عِنْدِهِ
يا رَبِّ هَبْ لي وَصْلهُ وبقاءَهُ أبداً فلَسْتُ بعائشٍ منْ بَعْدِهِ

فطارت عقولنا ، وذهلت الباب‍نـــا من حسن غنائها وظرفهـــا فقلت :
يا سيدتي من هذا الذي تكامل في الحسن والبهاء سواك ؟ فقالت :

فإنْ بُحْتُ نالَتْني عُيونٌ كَثيرَةٌ وأضْعفُ عَنْ كِتْمانِهِ حينَ أكْتُمُ

٣٠ ــ الأعرابيات

حدثنا ثعلب عن الفتح بن خاقان قال : لما خرج المتوكل الى دمشق
كنت عديله فلما صرنا بقنسرين قطعت بنو سليم على التجار فأنهى ذلـــك

اليه ، فوجه قائدا من وجوه قواده اليهم فحاصرهم ، فلما قربنا من القوم اذا نحن بجارية ذات جمال وهيئة وهي تقول :

أميرُ المُؤمنينَ سَما إلَينا ... سُمُوَّ البَدرِ مالَ بِهِ الغَريفُ
فإنْ نَسلَمْ فعَفوَ اللهِ نَرجو ... وإنْ نُقتَلْ فقاتِلُنا شَريفُ

فقال لها المتوكل : أحسنت ، ما جزاؤها يا فتح ، قلت : العفو والصلة : فأمر لها بعشرة آلاف درهم وقال لها : مري الى قومك وقولي لهم : لا تردوا المال على التجار فاني اعوضهم عنه . الاصمعي قال : خرجت الى بادية فاذا أنا بخباء فيه امرأة فدنوت فسلمت فاذا هي احسن الناس وجها، وأعدلهم قامة ، وافصحهم لسانا فحار فيها بصري واعترتني خجلة فقالت ، ما وقوفك ؟ فقلت :

هَلْ عِندَكُمْ مِنْ مَخيضِ اليَومِ نَشرَبُهُ
أمْ هَلْ سَبيلٌ إلى تَقبيلِ عَينَيكِ
فلَستُ أبغي سِوَى عَينَيكِ مَنزِلَةً
أمْ هَلْ تَجودي لَنا عَضًّا بِخَدَّيكِ

أوْ تَأذَنينَ بِريقٍ مِنكِ أرشُفُهُ ... أوْ لَمسِ بَطنِكِ أوْ تَغميزِ ثَديَيكِ
رُدّي الجَوابَ على مَنْ زادَهُ كَلَفاً ... تَكريرُهُ الطَّرفَ في أجدالِ ساقَيكِ

فرفعت رأسها إلي وقالت : يا شيخ ألا تستحي ارجع الى أهلك وارغب في مثلك . وقال بعضهم : رأيت أعرابية بالنباح فقلت لها : أتنشدين ؟ قالت نعم في مثلك ورب الكعبة ، قلت ؛ فأنشديني ، فأنشأت تقول :

لا بارَكَ اللهُ فيمَنْ كانَ يُخبِرُني ... أنَّ المُحِبَّ إذا ما شاءَ يَنْصَرِفُ
وَجدُ المُحِبِّ إذا ما بانَ صاحِبُهُ ... وَجدُ الصَّبِيِّ بثَدْيِي أمِّهِ الكَلِفُ

قال : قلت لها انشدبني من قولك فقالت :

بنَفسِيَ مَنْ هَواهُ على التَّنائي ... وطُولَ الدَّهرِ مُؤتَنِفٌ جَديدُ
ومَنْ هُوَ في الصَّلاةِ حَديثُ نَفسِي ... وعِدْلُ الرُّوحِ عِندِي بَلْ يَزيدُ

فقلت لها : ان هذا كلام من قد عشق . فقالت : وهل يعرى من
من ذلك من له سمع وقلب ؟ ثم أنشدتني :

ألا بأبي واللهِ مَنْ لَيسَ نافِعي ... بِشَيءٍ ولا قَلبِي على الوَجدِ ناكِرُه
ومَنْ كَبِدي تَهفو إذا ذُكِرَ اسْمُهُ ... بشَيءٍ ومَنْ قَلبِي على النَّأْيِ ذاكِرُه
لَهُ خَفَقانٌ يَرفَعُ الجَيبَ بِالشَّجى ... ويَقطَعُ أزرارَ الجُرُبّانِ ثائِرُه

قال : وكتب عمر بن ابي ربيعة الى امرأة بالمدينة :

بَرَزَ البَدرُ في جَوارٍ تَهادَى ... مُخطَفاتُ الخُصورِ مُعتَجِراتِ
فتَنَفَّسْتُ ثُمَّ قُلْتُ لِبَكْرٍ ... عَجَّلَتْ في الحَياةِ لي حَيَباتِ
هَلْ سَبيلٌ إلى الَّتي لا أُبالي ... بَعدَها أنْ أموتَ قَبلَ وَفاتي

فأجابته :

قَدْ أتانا الرَّسولُ بالأبياتِ ... في كِتابٍ قَدْ خُطَّ بالتُّرُّهاتِ
حائِرُ الطَّرْفِ إنْ نَظَرْتَ وماطِرْ ... فُكَ عِندِي بِصادِقِ النَّظَراتِ

غُرَّ غَيْرِي فقَدْ عرَفْتُ لِغَيْرِي عَهْدَكَ الخائِنَ القَليلَ الثَّباتِ

٣١ ـ محاسن المتكلمات

حدث عمر بن يزيد الاسدي قال : مررت بخرقاء صاحبة ذي الرمة فقلت لها : هل حججت قط ؟ قالت : أما علمت أني منسك من مناسك الحج ما منعك أن تسلم علي أما سمعت قول عمك ذي الرمة :

تَمامُ الحَجِّ أنْ تَقِفَ المَطَايا على خَرْقاءَ واضِعةِ اللِّثامِ

فقلت لها : لقد أثر فيك الدهر ، قالت أما سمعت قول العجيف العقيلي حيث يقول ؟ :

وخَرْقاءُ لا تَزْدادُ إلاّ مَلاحَةً ولوْ عُمِّرَتْ تعميرَ نوحٍ وجَلَّتِ

قال : ورأيتها وإن فيها لمباشرة ، وأن ديباجة وجهها لطرية كأنها فتاة، وأنها لتزيد يومئذ على المائة ، ولقد حدثت أنه شبب بها ذو الرمة وهي ابنة ثمانين سنة . وحدث رجل من بني أسد قال : أدركت ميا صاحبة ذي الرمة وكان الرجل أعور قال : ورأيتها في نسوة من قومها فقلت : أهذه مي ؟ وأومأت اليها ، فقلنا : فقلت ما أدري ما كان يعجب ذا الرمة منك وما أراك على ما كان يصف ؟ فتنفست الصعداء وقالت : انه كان ينظر بعينين وأنت تنظر الي بعين واحدة . وروى الأصمعي عن رجل من أهل الشام قال : قدمت المدينة فقصدت منزل ابن هرمة فاذا بنية له تلعب فقلت لها : ما فعل أبوك ؟ قالت : وفد الى بعض الاخوان ، قلت : فانحري لنا ناقة فانا أضيافك ، قالت : يا عماه والذي خلقك ما عندنا شيء ، قلت : فباطل ما قال أبوك ؟ قالت : فما قال قلت قال :

كمْ ناقةٍ قَدْ وجأتُ مَنْحَرها لِمُسْتَهِلِّ الشؤبوبِ أو جَمَلِ

قالت : يا عماه فذلك القول من أبي أصارنا الى أن ليس عندنا شيء :
قال : وأتى زياد الأقطع باب الفرزدق وكان له صديقاً ، فخرجت اليه ابنة الفرزدق وكانت تسمى مكية وأمها حبشية ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : مكية قال : ابنة من ؟ قالت : ابنة الفرزدق قال : فأمك قالت : حبشية فأمسك عنها فقالت : ما بال يدك مقطوعة ؟ قال : قطعها الحرورية قالت بل قطعت في اللصوصية قال : عليك وعلى أبيك لعنة الله ، وجاء الفرزدق فأخبر بالخبر فقال : اشهد أنها بنتي ، وأنشأ يقول :

حامِ إذا ما كنتَ ذا حَمِيَّه بدارميٍّ بنتُهُ صَبيَّه
صَمَحْمَحٍ مِثلِ أبي مَكِّيَّه

وحدث سليمان ابن عباس السعدي قال : كان كثير يلقى حاج أهل المدينة بقديد على ست مراحل ، ففعل عاماً من الاعوام غير يومهم الذي نزلوا فيه فوقف حتى ارتفع النهار فركب جملًا في يوم صائف ووافى قديداً وقد كل بعيره وتعب ، فوجدهم قد ارتحلوا وقد بقى فتى من قريش فقال الفتى لكثير : اجلس قال : فجلس كثير الى جنبي ولم يسلم علي ، فجاءت امرأة وسيمة جميلة فجلست الى خيمة من خيام قديد واستقبلت كثيراً فقالت : أنت كثير ؟ قال : نعم ، قالت : أنت ابن أبي جمعة ؟ قال نعم قالت : أنت الذي تقول :

وكنتُ إذا ماجئتُ أجْلَلْنَ مَجلسي وأضمرْنَ مني هيبةً لا تَجَهُّما

قال : نعم ، قالت : فعلى هذا الوجه هيبة ان كنت كاذباً فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، قال : فضجر كثير وقال : ومن أنت ؟ فسكتت ولم تجبه بشيء ، فسأل الموالي التي في الخيام عنها فلم

يخبرونه ، فضجر واختلط عقله ، فلما سكن قالت : أنت الذي تقول :

متى تَنْشُرَا عنيَّ العِمامةَ تُبْصِرَا ... جميلَ المُحَيَّا أغفلتْهُ الدَّواهِنُ

أهذا الوجه جليل ؟ ان كان كاذباً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، فاختلط وقال لو عرفتك لفعلت وفعلت ، فلما ، سكن قلت له : أنت الذي تقول :

يَرُوقُ العُيونَ النَّاظِرَاتِ كأنَّهُ ... هِرَقْلِيُّ وَزْنٍ أحْمَرُ التِّبْرِ راجحُ

أهذا الوجه الذي يروق الناظرات ؟ ان كنت كاذباً فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين قال : فازداد ضجراً واختلط وقال : لو عرفتك والله لقطعتك وقومك هجاء ، ثم قام فاتبعته طرفي حتى توارى عني ، ثم نظرت الى المرأة فاذا هي قد غابت عني فقلت : لمولاة من بنات قديد لك الله على أن أخبرتني من هذه المرأة أن أطوي لك ثوبي هذين اذا قضيت حجي ثم أعطيكهما فقالت : والله لو أعطيتني زنتهما ذهباً ما أخبرتك من هي ؟ هذا كثير مولاي لم أخبره ، قال القرشي : فرحت وبي أشد مما بكثير . قيل : وقدم كثير الكوفة وكان شيعياً من أصحاب محمد بن الحنفية فقال : دلوني على منزل قطام ، قيل له : وما تريد منها ؟ قال : أريد أن أوبخها في قتل علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فقيل له : عد عن رأيك فان عقلها ليس كعقول النساء ، قال : لا والله لا أنتهي حتى انظر اليها وأكلمها ، فخرج يسأل عن منزلها حتى دفع اليها فاستأذن فأذنت له ، فرأى امرأة برزة قد تخددت وقد حنا الدهر من قناتها فقالت : من الرجل ؟ قال : كثير بن الرحمن ، قالت : التيمي الخزاعي ؟ قال : التيمي الخزاعي ، ثم قال لها : أنت قطام ؟ قالت : نعم ، قال : أنت صاحبة علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، قالت : بل صاحبة عبد الرحمن بن ملجم ، قال : أليس هو قتل علياً ؟ قالت : بل مات

بأجله ، قال : والله اني كنت احب أن أراك فلما رأيتك نبت عيني عنك ، وما ومقك قلبي ، ولا احلوليت في صدري قالت : انت والله قصير القامة صغير الهامـــة ضعيف الدعامة كما قيل : لأن تسمع بالمعيدي خير من ان تراه ، فأنشأ كثير يقول :

رأتْ رَجُلاً أوْدَى السِّفارُ بجِسْمِهِ فلمْ يَبْقَ إلاَّ مَنْطِقٌ وجَناجِنُ

قالت لله درك ما عرفت إلا بعزة تقصيراً بك ، قـال : والله لقـد سار لها شعري ، وطار بها ذكري ، وقرب من الخلفـــاء مجلسي ، وإنها لكما قلت فيها :

وإنْ خَفِيَتْ كانَتْ لعينيكَ قُرَّةً وإنْ تبدُ يوماً لمْ يَعُمَّكَ عارُها

منَ الخَفِرَاتِ البِيضِ لمْ تَرَ شِقْوَةً وفي الحَسَبِ المَحْضِ الرَّفيعِ نجارُها

فَما رَوْضَةٌ بالحَزْنِ طَيِّبَةُ الثَّرَى يَمُجُّ النَّدَى جَثْجَاثُها وعَرَارُها

بأطيَبَ منْ فيهـا إذَا جئْتَ طارِقـاً

وقدْ أوقِدَتْ بالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نارُها

قالت : والله ما سمعت شعراً أضعف من شعرك هـذا ، والله لو فعل هذا بزنجية طاب ريحها ألا قلت كما قال امرؤ القيس :

ألمْ تَرَ أني كُلما جِئْتُ طارِقاً وجدْتُ بها طِيباًوإنْ لمْ تَطَيَّبِ

قال فلله در بلادك وخرج وهو يقول :

ألحقُّ أبلجُ لا تَزيغُ سبيلُهُ والحَقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو الألبابِ

قال : وقال المسيب رواية كثير : انطلق كثير مرة فقال لي : هل

الك في عكرمة بن عبد الرحمن بن هشام ؟ وهو يومئذ علي حنظلة بن عمرو ابن تميم ، فقلت : نعم قال : فخرجنا نريده حتى اذا صدرنا عن المدينة اذا نحن بامرأة على راحلة تسير فسرت حذاءهـا فقالت : أتروي لكثير شيئاً قلت : نعم قالت أنشدني ، فأنشدتها من شعره : فقالت : أين هو ؟ قلت هو ذاك الذي تربن على غير الطريق فقالت بعد ان دنت منه : قاتل الله زوج عزة حيث يقول :

لعَمْرُكَ ما رَبُّ الرِّبابِ كُثَيِّرٌ بفحلٍ ولاَ آباؤُهُ بفحولِ

فغضب كثير وسار وتركها ، ثم نزل منزلا فجاءت جارية لها تدعوه فأبى كثير ان يأتيها فقلت : ما رأيت مثلك قط امرأة مثل هـذه ترسل اليك فتأبى عليها فلم أزل به حتى أتاها قال : فسفرت عن وجهها ، فاذا هي اجمل الناس واكملهم ظرفاً وعقلا ، واذا هي غاضرة ام ولد بشر بن مروان فصحبناها حتى كنا بزبالة فمالت بنا الطريق فقالت له : هل لك أن تأتي الكوفة فأضمن الك على بشر الصلة والجائزة ؟ فأبى وامرت له بخمسة آلاف درهم ولي بألفين فلما اخذنا الخمسة الآلاف قال : ما اصنع بعكرمة ، وقد اصبت ما ترى فذلك قوله حيث يقول :

شَجا أظعانُ غاضِرَةَ الغَوادِي بغيرِ مشُورَةٍ عِوَضاً فُؤَادِي
أغاضِرَ لوْ رَأيت غَـداةَ بنتم حُنُوَّ العـائدَاتِ عَلى وِسادِي
رَثَيْتِ لعاشقٍ لَمْ تَشكُمِيهِ جَوانِحُهُ تَلَذّعُ بالزِّنادِ

ــ الشكيمة ــ العطيه و ــ الزناد ــ جمع زند وهو عود يقدح منه النار ، قـال الحكم بن صخر الثقفي : حججت فرأيت بأُقرّة امرأتين لم أر كجمالهما وظرفهما وثيابهما ، فلما حججت وصرنا باقرة اذا أنا باحـدى الجاريتين قـد جاءت فسألت سؤال منكر فقلت : فلانة ؟ قالت : فداك

أبي وأمي رأيتك عاماً أول شابا سوقة والعام شيخا ملكا وفي وقت دون ذلك ما تنكر المرأة صاحبها ، فقلت : ما فعلت أختك ؟ فتنفست الصعداء وقالت : قدم علينا ابن عم لنا فتزوجها فخرج بها الى نجد فــذاك حيث أقول :

إِذا ما قَفَلْنا نَحْوَ نَجْدٍ وأَهْلِهِ فَحَسْبِي مِنَ الدُّنيا الْقفُولُ إِلى نَجْدِ

فقلت : أما اني لو أدركتها لتزوجتها ، قالت : فداك أبي وأمي ، فما يمنعك من شريكتها في حسنها ، وشقيقتها في حسبها ، قلت : قول كثير :

إِذا وَصَلَتْنا خُلَّةٌ كَيْ تُزيلَنا أَبَيْنا وَقُلْنا الحاجِبِيَّةُ أَوَّلُ

قالت : وكثير بيني وبينك أليس هو الذي يقول :

هَلْ وَصْلُ عَزَّةَ إِلاَّ وَصْلُ غانِيَةٍ في وَصْلِ غانِيَةٍ مِنْ وَصْلِها خَلَفُ

قال : فتركت جوابها ولم يمنعني منه الا العي .

٣٢ ــ محاسن النساء

قيل : أحسن النساء الرقيقة البشرة النقية اللون يضرب لونها بالغداة الى الحمرة وبالعشي الى الصفرة . وقالت العرب : المرأة الحسناء أرق ما تكون محاسن ، صبيحة عرسها ، وأيام نفاسها ، وفي البطن الثاني من حملها . وقيل لاعرابي أتحسن صفة النساء ؟ قال : نعم اذا عذب ثناياها ، وسهل خداها ، ونهد ثدياها ، وفعم ساعداها ، والتف فخذاها ، وعرض وركاها ، وجدل ساقاها فتلك هم النفس ومناها . ووصف أعرابي امرأة فقال : كان وجهها السقم لمن رآها ، والبرء لمن ناجاها ، وذكر أعرابي امرأة فقال : أرسل الحسن الى خديها صفائح نور ورشق السحر عن لحظها بأسهم حداد ، ولقد

تأملت فوجدت للبدر نورا من بعض نورها . وذكر أعرابي امرأة فقال : هي شمس تباهي بها شمس سمائها ، وليس لي شفيع اليها غيرها في اقتضائها ، ولكني كتوم لفيض النفس عنـــد امتلائها . وذكر أعرابي امرأة فقال : ما أحسن من حبها نعاما ولا أنظر اليها الا اختلاساً ، وكل أمرىء منها يرى ما أحب . وذكر أعرابي امرأة فقال : لها جلد من لؤلؤ رطب مع رائحة المسك الاذفر في كل عضو منها شمس طالعة (ومما جـــاء في الحسن من الشعر) قال عبدالله بن المعتز : أنشدني أبو سهل أسمعيل بن علي لأبي الصواعق :

وَمَرِيضِ طَرْفٍ لَيسَ يَصْرِفُ طَرْفَهُ
نَحْوَ المَـدَى إلاَّ رَمـاهُ بِحَتْفِهِ

ظَبيٌ لَهُ نَظَرٌ ضَعِيفٌ كُلَّما ... قَصَدَ القَوِيَّ أَتَى عَلَيْهِ بِضَعْفِهِ
قَـدْ قُلْتُ لَمَّا مَرَّ يَخْطِرُ مائِساً ... والرِّدْفُ يَجْـذِبُ خَصْرَهُ مِنْ خَلْفِهِ
يا مَنْ يُسَلِّـمُ خَصْرَهُ مِنْ رِدْفِهِ ... سَلِّمْ فُؤادَ مُحِبِّهِ مِنْ طَرْفِهِ

فقلت في هذا المعنى وعلى هذا الوزن :

وَحَياةِ مَنْ جَرَحَ الْفُؤادَ بِطَرْفِهِ ... لأُحَبِّرَنَّ قَصائدِي في وَصْفِهِ
قَمَرٌ بِهِ قَمَرُ السَّماءِ مُتَيَّمٌ ... كالْغُصْنِ يَعْجَبُ نِصْفُهُ مِنْ نِصْفِهِ
إنِّي عَجِبْتُ لِخَصْرِهِ مِنْ ضُعْفِهِ ... ماذا تَحَمَّلَ مِنْ ثَقالَةِ رِدْفِهِ
هَذا وما أدْرِي بِأَيَّةِ فِتْنَةٍ ... جَرَحَ الْفُؤادَ بِلُطْفِهِ أمْ ظَرْفِهِ
أمْ بِالدَّلالِ أمِ الجَمالِ أمِ الضِّيا ... مِنْ وَجْهِهِ أمْ بِالْقَفا مِنْ خَلْفِهِ

وأنشد ابو الحسين بن فهم لابي نواس :

كَفاكَ ما مَرَّ على راسِي مِنْ شادِنٍ قَطَّعَ أَنفاسِي
أَكْثَرُ ما أَبْلُغُ في وَصْفِهِ تَحَيُّري مِنْ قَلْبِهِ القاسِي
أَغارُ أَنْ أَنعَتَ منهُ الذي يَنْعَتُه النَّاسُ من النَّاسِ
ولم أَرَ العُشَّاقَ قَبلي رأوا بوَصْفِ مَن يَهْوَوْنَ مِن باسِ
كلٌّ أَحادِيثِي نَعْتٌ لهُ مُنكَشِفٌ مِنِّي لجلاَّسِي

فقلت في هذا المعنى وهذا الروى والوزن :

لوْ عُشْرُ ما مَرَّ على راسي مَرَّ بصَلْدِ حَجَرٍ قاسي
لانصَدَعَتْ فيهِ صُدُوعٌ كما صَدَّعَ قلبي طولُ وَسْواسي
يا غُصْنَ آسٍ ومُحالٌ إذَا قَصَّرْتُ تشبيهَكَ بالآسِ
ماذا على طرْفِكَ لوْ أَنَّهُ أعارَ لحظاً منهُ قِرْطاسِي
لِيَتَكَ عللتَ بمَطْلٍ ولمْ تَقْطَعْ رجائي منكَ باليأسِ

وقال آخر :

وزائرةٍ يحتَثُّها الشَّوْقُ طارِقَه أَتَتْنا مِنَ الفرْدَوْسِ لا شَكَّ آبِقَه
إذا ما تَثَنَّتْ قالَ للرِّيحِ قَدُّها
كذا حَرِّكي الأغصانَ إنْ كنتِ صادِقه

وقال آخر :

قدْ أقبَلَ البَدْرُ في قَراطِقهِ يَسْلُبُ بالدَّلِّ قلبَ عاشقه

يَسْطو عليهِ بسيفِ مُقلَتِهِ لا بالذِي شُدَّ في مناطقهِ

وقال آخر :

قلْ للمِلاحِ الحدَقِ وللحِسانِ الخلَقِ

هل في فؤادي للقُوَى أوْ جسَدِي شيءٌ بَقِي

إن لم تُروُّوا عطَشي بُخلاً فَبلُّوا رَمَقي

يا مُقْلةً أجفانُها مَحْشوَّةٌ بالأرَقِ

بَقِيتِ في رِقِّ الهوَى شَقِيَّةً فيمَنْ شَقي

وقال آخر :

يا مِلاحَ الدَّلالِ والاغتِناجِ ماأرى القلبَ مِنْ هوا كُنَّ ناجي

أنتَ زَرْفَنْتَ فوْقَ خدَّيكَ صُدْغاً مِنْ عَبيرٍ على صَفائحِ عاجِ

أشرَقَتْ وَجْنَتاكَ بالنُّورِ حتَّى أغنَتا الخَلقَ عَنْ ضِياءِ السِّراجِ

فعلَتْ مُقلَتاكَ بالقلبِ منِّي فَعْلةَ القَرْمَطيِّ بالحُجَّاجِ

يا هِلالاً أنِسْتُ منهُ بضوءٍ جُنْحَ ليلٍ من الظَّلامِ الدَّاجي

وقال آخر :

نَشَرتْ غدائرَ فرْعِها لِتُظلّني حَذَرَ العُيونِ مِنَ العُيونِ الرُّمَّقِ
فكأنّهـا وكأنّهُ وكأنّني صُبْحانِ باتا تحتَ ليـلٍ مُطْبِقِ

وقال آخر :

يا غزالاً وهِـلالاً وقضِيبـاً وكَثِيبـا
كمْ وكمْ أُضمِرُ وجْداً بكَ مكتوماً عَجيبا
كيف يُرْجى بُرْءُ مَن قد كَتَمَ الدّاءَ الطّبيبـا

وقال آخر :

شَمْسٌ مُمثَّلةٌ في خَلْقِ جارِيةٍ كأنّما بطْنُها طَيُّ الطوامِيرِ
فالجِسْمُ مِنْ جوهرٍ والشعرُ من سَبَجٍ
والثّغْرُ منْ لؤلؤٍ والوَجهُ منْ عاجِ

وقال آخر :

نَتيجُ دَلالٍ حارَ في حُسْنِهِ الطرْفُ
فَفِكْرَتُهُ قَبْرٌ ومَنْطِقُهُ لُطفُ
بَديعُ جَمالٍ زانَهُ العَقْلُ والظّرْفُ سَماوِيُّ لَوْنٍ لا يُحيطُ بِهِ وَصْفُ
لَهُ رِيقَــةٌ عُلّتْ بِماءِ قَرَنْفُلٍ يُمازِجُها التُّفاحُ والْخَمْرَةُ الصِّرْفُ
تَجسّمَ في جِسْمٍ مِنَ النُّورِ ساطِعٍ تَمكّنَ في دِعْصٍ يَنوءُ بِهِ رِدْفُ

عَلى صَحْنِ خَدَّيْهِ بَهارٌ مُنَوِّرٌ ووردٌ جَنيٌّ لا يَليقُ بِهِ الْقَطْفُ

تَكامَلَ فيهِ الْحُسْنُ والنُّورُ والبَها

كَبَدْرِ الدُّجى إِذ تَمَّ مِنْ شَهرِهِ النصْفُ

بَرَاهُ إِلٰهي لي عَذاباً وفِتْنَةً فما عِنْدَهُ عَدْلٌ ولا عِنْدَهُ عَطْفُ

وقال آخر :

لَكَ مِنْ قلْبِي المَكانُ المصونُ كلُّ لَوْمٍ عَليَّ فيكَ يهونُ

قَدَّرَ اللهُ أنْ أكونَ شَقِيّاً بِكَ والصَّبْرُ عَنْكَ ما لا يكونُ

يا غَزالاً بِلَحْظِهِ يَفتِنُ النّا سَ وفي طَرْفِهِ الرَّدَى والمَنون

لَكَ صَبْرٌ وليْسَ لي عَنْكَ صَبْرٌ فأنا الْيَوْمَ هائِمٌ مَحزونُ

قَدْ خَلَعْتُ الْعِذارَ فيكَ حَبِيبي ما أُبالي بِما رَمَتْني الظُّنونُ

وقال آخر :

يا نَظْرَةً جاءَتْ عَلى ياس مِنْ ساحِرِ المُقْلَةِ مَيَّاسِ

أَطرافُهُ تُعْقَدُ مِنْ لِينِها وقلْبُهُ كالْحَجَرِ الْقاسِي

يلومُني النَّاسُ عَلى حُبِّهِ أعانَني اللهُ على النَّاسِ

وقال آخر :

يا وَيحَ جِسْمٍ يَذوبُ مِنْ قَلَقِه مِنْ حُبِّ مَنْ لَمْ أَقِفْ عَلى خُلُقِه

مِنْ حُبِّ ظَبْيٍ مُهَفْهَفٍ لَبِقٍ يَهْتَزُّ مِثْلَ القَضيبِ في وَرَقِه

لمْ ترَ عَيْني ولَنْ ترى أبـداً أحسنَ مِنْ نَحْرِهِ ومِنْ عُنُقِه
كأنّما المسكُ حينَ تسحقُهُ بماء وَرْدٍ يفوحُ مِنْ عَرَقِه
أوْ خمرَةٌ في الزُجاجِ صافيَةٌ شيبَتْ بماء السّحابِ في نَسَقِه

وقال آخر :

أرْبعَةٌ قرّحتْ فؤادي فطالَ وَجْدي وعيلَ صَبْري
مُقْلَةُ خشْفٍ وقدُّ غُصْنٍ وطيبُ وَرْدٍ وحُسْنُ بَـدْرِ
نفْسي ومالي فِدَاءُ ظَبيٍ أذابَ جِسْمي ولَيْسَ يَدْري
فَمَنْ لِصَبٍّ أسيرِ شَوْقٍ قَتيلُ صَبٍّ بِسَيْفِ هَجْرِ

وقال آخر :

وماريحُ رَيْحانٍ بِمسْكٍ وعَنبَرٍ يُعَلُّ بِكافورٍ ودُهْنَةِ بانِ
بِأطْيَبَ مِنْ رَيَّا حبيبي لَوَ انّني وَجدْتُ حَبيبي خالِياً بِمكانِ

٣٣ ـ محاسن التزويج !

روي أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله اني أريد أن أتزوج فادع الله أن يرزقني زوجة صالحة ، فقال : (لو دعا جبريل وميكائيل وأنا معهما ما تزوجت الا المرأة التي كتب الله لك فانه ينادي في السماء ألا ان امرأة فلان بن فلان فلانة بنت فلانة) . وقال صلى الله عليه وسلم (عليكم بالابكار فانهن أطيب أفواها وأنتق أرحاما) . وقال عمر رضي الله عنه : عليكم بالابكار واستعيذوا بالله من شرار النساء وكونوا

من خيارهن على حذر قال الشاعر :

لاتَنكِحَنَّ عجوزاً إنْ دُعيتَ لها ... وإنْ حُبيتَ على تزويجها الذَّهبا
فانْ أتوكَ وقالوا إنها نَصَفٌ ... فإنَّ أطيبَ نصفيها الذي ذَهبا

وقال آخر :

عَلَيكَ إذا ما كُنْتَ لا بُدَّ ناكِحاً ... ذَوات الثَّنايا الغُرِّ والأعيُنِ النُّجْلِ
وكلَّ هَضيمِ الكَشْحِ خَفَّاقةِ الحشا ... قَطوفَ الخُطا بَلْهاءَ وافِرةَ العَقْلِ

وقال الحارث بن كلدة : لاتنكحوا من النساء إلا الشابة ، ولا تأكلوا من الحيوان إلا الفتي ، ولا من الفاكهة إلا النضيج . وقال مغيرة بن شعبة : حصنت تسعاً وتسعين امرأة ما أمسكت واحدة منهن على حب ولكني أحفظها لمنصبها وولدها ، فكنت أسترضيهن بالباه شابا ، فلما أن شبت وضعفت عن الحركة استرضيتهن بالعطية . وقال بعضهم : لذة المرأة على قدر شهوتها ، وغيرتها على قدر لذتها ، وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : (إنما النساء لعب فاذا تزوج أحدكم فليستحسن) . وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : تزوجها سمراء ذلفاء عيناء فان فركتها فعلى صداقها . وقال الحجاج بن يوسف : من تزوج قصيرة فلم يجدها على ما يريد فعلى صداقها . وروي عن علي صلوات الله عليه أن رجلا أتاه فقال : اني تزوجت امرأة مجنونة ، فقالت المرأة : يا امير المؤمنين انه يأخذني عند الجماع غشية ، فقال للرجل : ما أنت لها بأهل . وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (إياكم وخضراء الدمن — وهي المرأة الحسناء في المنبت السوء —) ، وقال بعضهم : لا تتزوجن حنانة ولا انانة ولا منانة ولا عشبة الدار ولا كية القفا — فأما الحنانة — فالتي قد تزوجها رجل من قبل فهي تحن اليه — والانانة — التي تئن من غير علة — والمنانة — التي لها مال تمتن — وعشبة الدار — الحسناء في أصل السوء — وكية القفا — التي اذا قام

زوجها من المجلس قال الناس فعلت امرأة هذا كذا وفعلت كذا . وقال محمد بن علي رضي الله عنهما : اللهم ارزقني امرأة تسرني اذا نظرت ، وتطيعني اذ أمرت ، وتحفظني إذا غبت . وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : اذا خطب أحدكم إمرأة فلا جناح عليه أن ينظر اليها وإن كانت لا تعلم ، وقال بعض الشعراء في تزويج الشبه :

إذا أَرَدْتَ حُرَّةً تَبْغيها ... كَرِيمَةً فانْظُرْ إلى أخيها

يُنْبيكَ عَنْها وإلى أبيها ... فإنَّ أَشْباهَ أبيها فيها

وقال آخر :

إذا كُنْتَ مُرْتاداً لِنَفْسِكَ أَيِّمًا ... لِنَجْلِكَ فانْظُرْ مَنْ أبُوها وخالُها

فإِنَّهما مِنْها كَما هِيَ مِنْهُما ... كما النَّعْلُ إنْ قِيسَتْ بِنَعْلٍ مِثالِها

وقال آخر :

إذا كُنْتَ عَنْ عَيْنِ الصَّبِيَّةِ باحِثاً ... فأَبْصِرْ تَرَى عَيْنَ الصَّبِيِّ فذلِكا

قال خالد بن صفوان لدلال : أطلب لي امرأة بكراً أو كبكر حصانا عند جارها ماجنة عند زوجها قد أدبها الغنى وذللها الفقر ، لا ضرعة صغيرة ، ولا عجوزاً كبيرة ، قد عاشت في نعمة وأدركتها حاجة ، لها عقل وافر ، وخلق طاهر ، وجمال ظاهر ، صلة الجبين ، سهلة العرنين ، سوداء المقلتين ، خدلجة الساقين ، لفاء الفخذين ، نبيلة المقعد ، كريمة المحتد ، رخيمة المنطق ، لم يداخلها صلف ولم يشن وجهها كلف ، ريحها أرج ، ووجهها بهج ، لينة الاطراف ، ثقيلة الارداف ، لونها كالرق ، وثديها كالحق ، أعلاها عسيب ، وأسفلها كثيب ، لها بطن مخطف ، وخصر مرهف ، وجيد أتلع ، ولب مشبع ، تتثنى تثني الخيزران ، وتميل ميل السكران ، حسنة المآق ، في حسن البراق ،

لاالطول أزرى بها ولا القصر قال الدلال: استفتح ابواب الجنان ، فانك سوف تراها .
وقال أيضاً : لا تتزوج واحدة فتحيض اذا حاضت وتنفس اذا نفست وتعود اذا عادت وتمرض اذا مرضت ، ولا تتزوج اثنتين فتقع فيما بين الجمرتين ، ولا تتزوج ثلاثا فتقع بين أثافي ، ولا تتزوج اربعا فيحقرنك ويهرمنك ويفلسنك، فقال له رجل : حرمت ما احل الله ، فقال : طمران وكوزان ورغيفان وعبادة الرحمن . وعن صالح بن حسان قال : رأيت امرأة بالمدينة يقال لها حواء وهي التي علمت نساء المدينة النقع وعو النخر والحركة والغربلة والرهز ، وكانت لها سقيفة تتحدث اليها رجالات قريش ولم يكن في المدينة اهل بيت إلا وتأخذ صبيانهم وتمصهم ثديها أو ثدي إحدى بناتها فكان أهل المدينة يسمونها حواء . ولم يكن بالمدينة شريف ممن يجلس في ممن يجلس في سقيفتها الا واصل اليها في السنة ثلاثين وسقا وأكثر من طعام وتمر مع الدنانير والدراهم والخدم والكساء ، فجاءها ذات يوم مصعب بن الزبير وعمرو بن سعيد بن العاص وابن لعبدالرحمن ابن ابي بكر فقالوا لها : يا خالة قد خطبنا نساء من قريش ولسنا ننتفع الا بنظرك اليهن فارشدينا بفضل علمك فيهن ، فقالت لمصعب : يابن ابي عبدالله ومن خطبت ؟ قال : عائشة بنت طلحة ، قالت : فأنت يابن الصديق قال : أم القاسم بنت زكرياء بن طلحة ، قالت : فأنت يابن أبي أحيحة قال : زينب بنت عمرو بن عثمان . فقالت : يا جارية علي بنقلي — تعني خفيها — فأتتها بها فخرجت ومعها خادم لها فأتت عائشة بنت طلحة فقالت : مرحبا بك يا خالة فقالت : يا بني انا كنا في مأدبة لقريش فلم تبق امرأة لها جمال الا ذكرت وذكر جمالك ، فلم أدر كيف أصفك فتجردي لانظرك فألقت درعها ثم مشت فارتج كل شيء منها ، ثم أقبلت على مثل ذلك فقالت : فداك أبي وأمي خذي ثوبك وانتهن جميعاً على مثل ذلك ، ثم رجعت

الى السقيفة فقالت : يابن ابي عبــد الله ما رأيت مثل بنت طلحة عائشة قط ممتلئة الترائب زجاء العينين عدبة الأشفار مخطوطة المتنين ضخمــة العجيزة لفاء الفخذين مسرولة الساقين ، واضحة الثغر نقية الوجه فرعاء الشعر الا انني رايت خلتين هما اعيب ما رايت فيها : اما احداهما فيواريها الخف وهي عظم القدم ، والأخرى يواريها الخمار وهي عظم الاذن ، وامــا انت يا بن احيحة فما رايت مثل زينب بنت عمرو فراهة قط الا ان في الوجه ردة ولكني مشيرة عليك بأمر تستأنس اليه وهي ملاحة تعتز بها واما انت يابن الصديق فوالله ما رايت مثل ام القاسم ما شبهتها إلا بخوط بانة تتثنى او خشف يتقلب على رمل ولم أرها إلا فوق الرجل واذا زادت على الرجل المرأة لم تحسن لا والله الا من يملأ المنكبين فتزوجوهن . وقــال أعرابي في أخت له تزوجت بغير كفؤ :

وَلَوْ رَكِبَتْ ما حَرَّمَ اللهُ لمْ يَكُنْ   بأَقْبَحَ عِنْدَ اللهِ مِمَّا اسْتَحَلَّتِ

قال : وكان بالمدينة رجل قد اعطي جودة الرأي ولم يكن فيها من يريد إبرام امر الا شاوره ، فأراد رجل من قريش ان يتزوج فأتاه فقال : انا اريد ان اضم الي اهلا فأشر علي ، قال : افعل تحصن دينك وتصن مؤونتك وإياك والجمال البارع قال : ولم نهيتني وانما هو نهاية ما يطلب النــاس ؟ قال : لانه مافاق الجمال الا لحقه قول اما سمعت قول الشاعر ؟ :

ولَنْ تُصادِفَ مَرْعًى مونِقاً أَبداً   إلاَّ وَجَدْتَ بِهِ آثارَ مَاكولِ

قيل : وكانت جارية من بنات الملوك تكره التزويج فاجتمع عندهــا نسوة يتذاكرن التزويج وقلن لها ما يمنعك منه ؟ قالت : وما فيه من الخير ؟ قلن : وهل لذة العيش الا في التزويج ؟ قالت فلتصف كل واحدة منكن ما عندها فيه من الخير حتى اسمع ؟ فقالت احداهن : زوجي عوني في الشدائد وهو عائدي دون كل عائد ان غضبت عطف وان مرضت لطف قالت :

نعم الشيء هذا ، قالت الاخرى : زوجي لما عناني كاف ولما استقمني شاف عرقه المسك المداف وعناقه كالخلد ولا يمل طول العهد ، قالت : هذا خير منه ، قالت الاخرى : زوجي الشعار حين ابرد وانيسي حين افرد ، فتزوجت فقلن لها : يا فلانة كيف رأيت ؟ قالت : انعم النعيـــم وسرورا لا يوصف ولذة ليس منها خلف

٣٤ ـ أمثال في التزويج

قيل : ان اول من قال لاهنـــك انقيت ولا ماءك ابقيت : الضب بن اروى الكلاعي ، وذاك انه خرج من ارضه فلما سار اياما حار في تلك المفاوز التي تعسفها وتخلف عن اصحابه وبقي فردا يعسف فيها ثلاثة ايام حتى دفع الى قوم لا يدري من هم ، فنزل عليهم وحدثهم وكان جميلا وان امرأة من افاضل اولئك هويته ، فأرسلت اليه ان احطبني فخطبها ، وكانوا لا يزوجون الا شاعرا او رجلا يزجر الطير او يعرف عيون المـــاء فسألوه فلم يحسن شيئاً من ذلك فلم يزوجوه ، فلما رأت امراة ذلك زوجته نفسها على كره من قومها فلبث فيهم مالبث ، ثم ان رجلا من العرب أغـــار عليهم في خيل فاستأصلهم فتطيروا بضب وأخرجوه وامرأتـــه وهي طامث فانطلقا ، واحتمل ضب شيئاً من ماء ومشيا يوماً وليلة الى الغد حتى اشتد الحر وأصابهما عطش شديد فقالت له : ادفع الي السقاء حتى اغتسل به فانا ننتهي الى الماء ونستقي فاغتسلت بما في السقاء ولم يقع منها موقعا ، وأتيا العين فوجداها ناضبة وأدركهما العطش فقال ضب : لاهنك أنقيت ولا ماءك أبقيت ، فذهبت مثلا ثم استظلا تحت شجرة كبيرة فأنشأ ضب يقول :

تاللهِ ما ظِلَّةٌ أصابَ بِهـا   سَوادَ قَلْبي قـارِعُ العَطَبِ
ظَلَّ كَئِيبَ الفُؤَادِ مُضْطَرِباً   وتَكْتَسِي مِـنْ غدائِرٍ قُلُبِ

أنْ يَعْرِفَ الماءَ تحتَ صُمِّ صَفاً　　أوْ يُخبِرَ النَّاسَ مَنْطِقَ الخُطْبِ
أخْرَجَني قَوْمُها بِأنَّ رَحاً　　دارَتْ بِشُؤْمٍ لَهمْ عَلى قُطْبِ

فلما سمعت ذلك فرحت وقالت : قم فارجع الى قومي فانك شاعر فانطلقا راجعين حتى انتهيا اليهم فاستقبلوهم بالسيف والعصا فقال لهم ضب : اسمعوا شعري ثم ان بدا لكم أن تقتلوني بعد فافعلوا فتركوه فصار فيهم عزيزاً . وقيل ان أول من قال :

* في الصيف ضيعت اللبن * فتنول بنت عبد وكانت تحت رجل من قومها فطلقها وأنها رغبت في أن يراجعها فأبى عليها ، فلما يئست خطبها رجل يقال له : عامر بن شوذب فتزوجها فلما بني بها بدا للزوج الأول مراجعتها وهوى بها هوى شديداً فجاء يطلبها ويرنو بنظره اليها ففطنت به فقالت :

أتَرَكْتَني حَتَّى إذا　　عُلِّقْتُ أبيَضَ كالشَّطَنْ
أنشَأتَ تَطْلُبُ وَصْلَنا　　في الصَّيْفِ ضَيَّعْتِ اللَّبَنْ

فذهبت مثلا ، فقال لها زوجها الأول واسمه الأشق فهل بقي شيء ؟ قالت : نعم فاصله عن جميع مالك وطلاقي فان فصلته تزوجتك فرضي بذلك ، ثم راجع نفسه فقال لها ذلك فقالت : أما اذا ضننت بمالك فانطلق الى مكان اذا أنت تكلمت سمع زوجي كلامي وكلامك ثم اقعد كأنك لا تشعر به وقل :

لحا اللهُ بِنْتَ العَبْدِ إنَّ وِصالَها　　وِصالُ مَلولٍ لا تَدومُ عَلى بَعْلِ
تُحَدِّثُني أنْ سَوْفَ تَقْتُلُ عامِراً　　لأنْ لَمْ يَكُنْ في مالِهِ عامِرٌ مِثْلي
فَهَيْهاتَ تَزويجُ التي تَقْتُلُ الفَتَى　　إذا ما أبَتْ يَوْماً وإنْ كانَ مِنْ أجْلي

فَتَقْتُلُني يَوْماً إِذا هَوِيَتْ فَتىً ‏ ‏ ‏ سِوايَ وإِنِّي اليَوْمَ مِنْ وَصْلِها مُجْلِي

فانطلق الأشق ففعل ما أمرته به فسمعه عامر فوقع في قلبه قوله ، وقد كان عرف حبهـا له فصدق ذلك ودخل عليها فطلقها وتزوجها الأشق . وذكروا أن بطنا من قريش اشتدت عليهم السنة ، وكان فيهم جـارية يقال لها زينب من أكمل نسائهم جمالا وأتمهن تماماً وأشرفت فرآها شاب يقال له عروة ، فوقعت في قلبه فجعل يطالعها ولا يقـدر على أكثر من ذلك ، فاشتد وجده بها ، فلما انقضت السنة وأرادوا الرجوع الى منازلهم دعا بعض جواري الحي فقال : يا ابنة الكرام هل لك في يد تتخذين بها عندي شكراً ؟ قالت : ما أحوجني الى ذلك ، قال : تنطلقين الى خيمة فلانة كأنك تقتبسين ناراً فاذا أنت جلست فقولي حيث تسمع زينب :

أَلاَ هَلْ لَنا قَبْلَ التَّفَرُّقِ لَيلَةٌ ‏ ‏ ‏ وَيَوْمٌ فَتَقضِي كلُّ نَفْسٍ مُناها

فانطلقت الجارية ففعلت ذلك ، فلما سمعت زينب قولهـا وكانت تفلي رأس زوجها وكان عنده أخ له . فقالت مجيبة لها :

لَعَمْري لَقَدْ طالَ المُقامَةُ هاهُنا ‏ ‏ ‏ لَوْ أَنَّ لِحِبٍّ حاجَةً لَقَضاها

فسمع أخو الزوج قول الجارية وجواب زينب فقال :

أَلاَ يعلمُ الزَّوْجُ المُفَلَّى بأَنَّها ‏ ‏ ‏ رِسالةُ مَشغوفِ الفُؤَادِ رَجاها

فانتبه الزوج لأمرهم وعرف ما أرادت فقال :

لَحى اللهُ مَـنْ لا يستَقيمُ بِوُدِّهِ ‏ ‏ ‏ وَمَنْ يَمْنَحُ النَّفسَ الطَّروبَ هَواها

انطلقي يا زينب فأنت طـالق ، فخرجت من عنده وبعثت الى عروة

فأعلمته وأقامت حتى انقضت عدتها ثم تزوجته .

٣٥ - في الناشزة

ذكروا أن الاخطل كانت عنده امرأة وكان بها معجباً ، فطلقها وتزوج بمطلقـة رجل من بني تغلب ، وكانت بالتغلبي معجبة فبينا هي ذات يوم جالسة مع الاخطل اذ ذكرت زوجهـا الاول فتنفست الصعداء ثم ذرفت دموعها فعرف الاخطل ما بها فذكر امرأته الاولى وأنشأ يقول :

كِلانا على وجْدٍ يَبيتُ كأنّما بجنبيهِ منْ مَسّ الفِراشِ قُروحُ
على زَوجها الماضي تَنُوحُ وزَوجُها على الطَّلَّةِ الأُولى كَذاكَ ينُوحُ

قيل : وخاصمت امرأة زوجها الى زياد فجعلت تعيبه وتقع فيه ، فقال الزوج : أصلح الله الامير ان شر المرأة كبرها ان المرأة اذا كبرت عقم رحمها وبذأ لسانها وساء خلقها ، والرجل اذا كبر استحكم رأيه وقل جهله ، قال : صدقت وحكم له بها ، وذكروا أن امرأة أتت عبيد الله بن زياد وكانت ذات شحم وجسم وجمـال مستعدية على زوجها وكان أسود دميم الخلقة فقال : ما بال هذه المرأه تشكوك ؟ قال : أصلح الله الامير سلهـا عما ترى من جسمها وشحمها أمن طعامي أم من طعـام غيري ؟ قالت من طعامك أفتمن علي بطعام أطعمتنيه والكلاب تأكل ؟ قـال : سلها عن كسوتها من مالي هي أم من مال غيري ؟ قالت : من مالك أفتمن علي بثوب كسوتنيه ، قال : وسلها عما في بطنها مني هو أم من غيري ؟ قالت منك وودت أنه في بطني من كلب ، قـال الرجل : أصلح الله الامير فما تريد المرأة الا أن تطعم وتكسي وتنكح ، قـال : صدقت فخذ بيدها . قال : خرج رجل مع قتيبة بن مسلم الى خراسان وخلف امرأة

يقال لها هند من أجمل نساء زمانها فلبث هناك سنين فاشترى جارية اسمها جمانة ، وكان له فرس يسميه الورد فوقعت الجارية منه موقعاً فأنشأ يقول :

ألا لا أبالي اليومَ ما فعلَتْ هِندُ ... إذا بَقِيَتْ عندي الجُمانةُ والوَرْدُ
شَديدُ مناطِ القُصْرَيَينِ إذا جرَى ... وبيضاءُ مثلُ الرِّئمِ زَيَّنها العِقْدُ
فهذَا لِأيامِ الهِيَاجِ وهذِهِ ... لحَاجةِ نفسي حينَ ينصرِفُ الجُنْدُ

فبلغ ذلك هنداً فكتبت اليه :

ألا أقْرِهِ منِّي السلامَ وقُلْ لهُ ... غُنِينا بفِتْيانٍ غَطارفةٍ مُرْدِ
فهذَا أميرُ المُؤمنينَ أميرُهُمْ ... سَبانا وأغناكُمْ أرَاذِلَةَ الجُنْدِ
إذَا شَاءَ منهُمْ ناشئٌ مَدَّ كَفَّهُ ... إلى كَبِدٍ مَلْسَاءَ أو كَفَلٍ نَهْدِ

فلما قرأ كتابها أتى به الى قتيبة فأعطاه إياه فقال له : أبعدك الله هكذا يفعل بالحرة وأذن له في الانصراف . قال وسمع عمر بن الخطاب امرأة تنشد وتقول :

فمِنهُنَّ منْ تُسقَى بعَذْبٍ مُبَرَّدٍ ... نُقَاخٍ فتلْكُمْ عندَ ذلكَ قَرَّتِ
ومنهُنَّ مَنْ تُسقَى بأخضَرَ آجنٍ ... أجاجٍ فلولاَ خَشْيةُ اللهِ فرَّتِ

فأمر باحضار زوجها فوجده متغير الفم فخيره جارية من المغنم او خمسمائة درهم على طلاقها فاختار الخمسمائة فدفعت اليه وخلى سبيلها . وحكي عن الفضل بن الربيع انه كان بمكة ومعه الفرج الرُّخجيّ ، وكان الفضل صبيحاً ظريفاً والفرج دميماً قبيحاً ، فخرجا الى الطواف ثم انصرفا الى بعض طرقات مكة وقعدا يتغديان ، فبينا هما كذلك على طعامهما اذ وقفت عليهما

امرأة جميلة بهية حسنة شكلة وعليها برقع فرفعته عن وجهها فاذا وجه كالدينار وذراع كالجمار ، فسلمت وقعدت وجعلت تأكل معها قال الفضل : فأعجبني ما رأيت من جمالها وهيئتها فقلت . هل لك من بعل ؟ قالت : لا ، قلت : فهل لك في بعل من أصحاب أمير المؤمنين حسن الخلق والخلق ؟ قالت : وأين هو ؟ فأشار الى فرج فقالت : جوابك عند فراغنا فلما أكلت قالت للفضل : تقرأ شيئاً من كتاب الله ؟ قال : نعم ، قالت : أفتؤمن به ؟ قال : نعم ، قالت : فان الله يقول « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » فضحك الفضل ودخل على الرشيد فأخبره فأمر باحضارها ، فلما نظر اليها أعجب بها فتزوجها وحملها الى مدينة السلام . قال وحج اسماعيل بن طريح فوقفت عليه أعرابية جميلة قال : فقال لها هل لك أن تزوجيني نفسك ؟ فقالت من غير توقف :

يكى الحسبُ الزّكي بعيْنٍ غزيرةٍ ... منَ الحسَبِ المنْقُوص أنْ يُجْمَعا معَا

وانصرفت . قال العتبي : كنت كثير التزوج فمررت بامرأة فأعجبتني فأرسلت اليها ألك زوج ؟ قالت : لا ، فصرت اليها فوصفت لها نفسي وعرفتها موضعي فقالت : حسبك قد عرفناك ، فقلت لها : زوجيني نفسك ؛ فقالت : نعم ولكن ها هنا شيء تحتمله ، قلت : وما هو ؟ قالت : بياض في مفرق رأسي ، قال : فانصرفت فصاحت بي ارجع فرجعت اليها فأسفرت عن رأسها فنظرت الى وجه حسن وشعر أسود فقالت : انا كرهنا منك عافاك الله ما كرهت منا وأنشدت :

أرَى شيبَ الرجال منَ الغَواني ... بِمَوْضعِ شَيْبِهنّ منَ الرِّجالِ

وعن عطاء بن مصعب قال : جاءت امرأة الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقالت : يا أمير المؤمنين لا أنا ولا زوجي ، فقال لها : وما لك من زوجك ؟ قالت : مر باحضاره فأحضر ، فاذا رجل قذر الثياب قد

طـال شعر جسده وأنفه ورأسه ، فأمر عمر ان يؤخذ من شعره ويدخل الحمام ويكسى ثوبين أبيضين ثم يؤتى به ففعل ذلك ، ودعا المرأة فلما رأت الزوج قالت : الآن ، فقال لها عمر : اتقي الله وأطيعي زوجك ، قالت : أفعل يا أمير المؤمنين ، فلما ولت قال عمر : تصنعوا للنساء فانهن يحببن منكم ما تحبون منهن . ويقال : ان المرأة تحب اربعين سنة وتقوى على كتمان ذلك وتبغض يوماً واحداً فيظهر ذلك بوجهها ولسانها ؛! والرجل يبغض اربعين سنة فيقوى على كتمان ذلك وان احب يوماً واحداً شهدت جوارحه .

٣٦ ـ نساء الخلفاء

علي بن محمد بن سليمان قـال : أبي يقول : كان المنصور شرط لأم موسى الحميرية أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى وكتبت عليه بذلك كتاباً أكدته وأشهدت عليه بذلك ، فبقي مدة عشر سنين في سلطانه يكتب الى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق وجهد أن يفتيه واحد منهم في التزويج وابتياع السراري فكانت أم موسى اذا علمت مكانه بادرته وارسلت اليه بمال فاذا عرض عليه أبو جعفر الكتب لم يفته حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد فأتته وفاتها وهو بحلوان ، فأهديت اليه مائة بكر وكان المنصور أقطع أم موسى الضيعة المسماة بالرحبة فوقفتها قبل موتها على المولدات الاناث دون الذكور ، فهي وقف عليها الى هذا الوقت . حدثنا يحيي بن الحسن عن محمد بن هشام قاضي مكة قال : كانت الخيزران لرجل من ثقيف فقالت لمولاهـا الثقفي اني رأيت رؤيا ، قال وما هـي ؟ قالت : رأيت كأن القمر خرج من قبلي وكأن الشمس خرجت من دبري ، قال لهـا : لست من جواري مثلي أنت تلدين خليفتين : فقدم بها مكة فباعها في الرقيق فاشتريت وعرضت على المنصور فقال : من أين أنت ؟ قالت : المولد مكة

والمنشأ بجرش قال : فلك أحد ؟ قالت : مالي أحد إلا الله وما ولدت أمي غيري ، قال يا غلام اذهب بها الى المهدي وقل له : تصلح للولد ، فأتى بها المهدي فوقعت منه كل موقع فلما ولدت موسى وهرون قالت : ان لي أهل بيت بجرش ، قال : ومن لك ؟ قالت : لي أختان اسمها أسماء وسلسل ولي أم واخوان ، فكتب فأتي بهم فتزوج جعفر بن المنصور سلسل فولدت منه زبيدة واسمها سكينة تزوجها الرشيد وبقيت اسماء بكرا فقال المهدي للخيزران قد ولدت رجلين وقد بايعت لهما وما احب ان تبقين امة واحب ان اعتقك وتخرجين الى مكة وتقدمين فأتزوجك ، قالت : الصواب رأيت ، فأعتقها وخرجت إلى مكة فتزوج المهدي اختها أسماء ومهرها الف الف درهم ، فلما احس بقدوم الخيزران استقبلها فقالت : ما خبر اسماء وكم وهبت لها ؟ قال : من أسماء ؟ قالت : امرأتك ، قال : إن كانت اسماء امرأتي فهي طالق ، فقالت له : طلقتها حين علمت بقدومي ، قال : أما اذا علمت فقد مهرتها الف الف درهم ووهبت لها الف الف درهم ثم تزوج الخيزران . قال : كانت نخلة جارية الحسين الخلال قبل أن يتولى المتوكل الخلافة تقعد بين يديه وتغنيه فولدت للحسين ابنا فلما ولى المتوكل الخلافة طرقه ليلا فقال له الحسين : زرتنا جعلت فداك ، قال اشتهيت أن اسمع غناء نخلة فأخرجها اليه مطمومة الشعر فقال : ياخلال أليس قد ولدت منك ابناً ؟ قال : بلى ، قال فأنا احب ان تعتقها ، قال : فانها حرة ، قال : فاشهد اني قد تزوجتها قومي يا نخلة ، فاشتد ذلك على الحسين فعوضه منها خمسة عشر الف دينار وحول اليه نخلة . قيل ووصف للمتوكل ابنة لسليمان بن القاسم بن عيسى بن موسى الهادي وعدة من الهاشميات فحملن اليه وعرضن عليه فاختارها من بينهن وصرف البواقي ونزلت منه منزلة حتى ساوى بينها وبين قبيحة في المنزلة ، وكانت جارية لها لباقة وملاحة ووصفت له ريطة بنت العباس بن علي فحملت اليه فتزوجها ثم سألها أن تطم شعرها وتتشبه بالمماليك فأبت عليه فأعلمها ان لم تفعل فارقها فاختارت الفرقة فطلقها ، ووصفت له عائشة بنت عمرو بن الفرج

الرخجي فوجه في جوف الليل والسماء تهطل الى عمر أن احمل الي عائشة فسأله ان يصفح عنها فانها القيمة بأمره فأبى فانصرف عمر وهو يقول : اللهم قني شر عبدك جعفر ثم حملها بالليل فوطئها ثم ردها الى منزل أبيها قال : وكان الهادي يشاور من أصحابه عبد العزيز بن موسى وعيسى بن دأب والعزيزي وعبد الله بن مالك فخرج ذات يوم اليهم وهو مغضب كأنه جمل هائج منتفخ الأوداج منتقع اللون فأقبل حتى جلس في مجلسه وكان العزيزي أجرأهم عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين انا نرى بوجهك ما كدر علينا عيشنا وبغض الدنيا الينا فان رأى امير المؤمنين ان يخبرنا بالسبب فان كان عندنا حيلة أعلمناه بها وان تكن مشورة أشرنا بها وان امكن احتمال الغم عنه وقيناه بأنفسنا وحملنا الغم عنه ، قال : فاطرق طويلا والعزيزي قائم فقال له : اجلس يا عزيزي فاني لم أر كصاحب الدنيا قط أكثر آفات وأعظم نائبة ولا أنغص عيشا قال العزيزي : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : لبابة بنت جعفر بن أبي جعفر قد علمتم موقعها مني واثرتها عندي كلمتني بادلال فأغلظت فلم يكن لها عندي احتمال ولا عندها اقصار حتى وثبت عليها وضربتها ضربا موجعا ، قال وسكت فقال ابن دأب : يا أمير المؤمنين انك والله لم تأت منكرا ولا بديعا قد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤدبون نساءهم ويضربونهن هذا الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ وابن عمته وثب على امرأته اسماء بنت أبي بكر وهي فضل نساء أهل زمانها فضربها في شيء عتب عليها فيه ضربا مبرحاً حتى كسر يدها وكان ذلك سبب فراقها ، وذلك انها استغاثت بولدها عبدالله فجاء يخلصها من أبيه فقال : هي طالق ان حلت بيني وبينها ففعل وبانت منه ، وهذا كعب بن مالك الانصاري عتب على امرأته وكانت من المهاجرات فضربها حتى حال بنوها بينه وبينها فقال :

فلوْلا بنوها حوْلَها لَخبطْتُها كَخَبْطةِ فَرُّوجٍ ولَمْ أتَلَعْثَمِ

قال : فسرى عن موسى الغضب وطابت نفسه ودعـا بالطعام فأكلنا وأمر له بعشرة آلاف درهم وثلاثين ثوبا فتلهفت وتعجبت عن انقطاعي عن الحديثين وهما في بالي وأنا اعلم بهما منه .

٣٧ ـ المطلقات

قيل : كانت أم الحجاج بن يوسف الفارغة بنت همام بن عروة بن مسعود وكانت عند المغيرة بن شعبة فرآها يومـاً تتخلل بكرة فقال : أنت طالق والله لئن كان هذا من غذاء يومك لقد شرهت ، وان كان من عشاء امسك لقد انتنت فقالت : لا يبعد الله غيرك والله ما هو إلا من السواك فخلف عليها بعده يوسف ابو الحجاج فأولدها الحجاج ، وفيها أشعار : منها

أهاجَتْـكَ الظَّعائنُ يوْمَ بانوا　　　بِذِي الزِّيِّ الجَميلِ مِنَ الأثاثِ

ظَعائنُ أسلكَتْ نَقْبَ المُنَقَّى　　　تُحثُّ إذا وَنَتْ أيَّ احتِثاثِ

كأنَّ على الحَدائِجِ يوْمَ بانوا　　　نِعاجاً تَرْتَعي بَقْـلَ البِرَاثِ

تُؤَمِّلُ أنْ تُلاقي أهلَ بُصْرَى　　　فيالكَ منْ لقـاءِ مُسْتَرَاثِ

تُهَيِّجُنا الحَمامُ إذا تَداعى　　　كما سَجَـعَ النَّوائـحُ بالمَراثي

وفي زينب أخت الحجاج يقول النميري :

ولم تَرَ عَيْني مثلَ سِرْبٍ رأيتُهُ　　　خَرَجْنَ مِنَ التَّنعيمِ مُعتَمِراتِ

ولَّما رأتْ رَكْبَ النُّميرِيِّ أعرَضتْ

وكُنَّ مِنْ أنْ يَلقَيْنَهُ حَذِراتِ

تَضَوَّعَ مِسكًا بطنُ نُعمانَ إِذْ مَشَتْ
بهِ زَينبٌ في نِسْوَةٍ عَطِرَاتِ

مَرَرْنَ بفَخٍّ ثمَّ رُحْنَ عَشِيَّةً ... يُلَبِّينَ للرَّحمٰنِ مُؤْتَجِرَاتِ
دَعتْ نِسْوَةً شُمَّ العَرانينِ بُدَّناً ... نواعمَ لا شُعثًا ولا غَبِرَاتِ
فأَدْنَينَ لَمَّا قُمْنَ يَحْجُبْنَ دُونَها ... حِجاباً مِنَ القَسِّيِّ والْحِبراتِ
أَجلَّ الذي فوقَ السَّموات عَرْشُهُ ... أَوانِسَ بالبَطْحاءِ مُعْتَجِراتِ
يُخَبِّينَ أَطرافَ البَنانِ مِنَ التُّقى ... ويَخرُجْنَ بالأسحارِ مُعْتَمِراتِ

عوانة عن محمد بن زياد عن شيخ من كندة قال : خرج الحارث بن سليل الأسدي زائراً لعلقمة بن حفصة الطائي فلما قدم عليه بصر بابنة له يقال لها : الزباء وكانت من اجمل نساء أهل عصرها فأعجب بها فقال لأبيها : أتيتك زائراً وقد ينكح الخاطب ويكرم الطالب ويفلح الراغب ، فقال : انت امرؤ كريم يقبل منك الصفو ويؤخذ منك العفو فاقم ننظر في أمرك ، ثم انكفأ إلى أهله فقال : ان الحارث بن سليل سيد قومه منصباً وحسباً وبيتاً ولا ينصرفن من عندنا الا بحاجته فأريدي ابنتك عن نفسها فخلت بالزباء فقالت : يابنية أي الرجال أحب اليك الكهل الجحجاح الفاضل المناح أم الفتى الوضاح ، قالت : الزمور الطماح قالت : يابنية ان الشيخ يميرك ولا يغيرك وليس الكهل الفاضل الكثير النائل كالحديث السن الكثير الظن ، قالت : يا اماه اخشى الشيخ ان يدنس ثيابي ويشمت بي أترابي ويبلي شبابي ، قال : فلم تزل بها أمها حتى غلبتها على رأيها فتزوجها الحارث بن سليل على خمسين ومائة من الابل وألف درهم وابتنى بها ثم رحل بها الى قومه ، فبينا هو جالس ذات يوم وهي الى جانبه إذ أقبل فتية من بني أسد نشاوى يتبخترون ، فلما نظرت اليهم تنفست الصعداء وبكت فقال : ما شأنك ؟

قالت : مالي وللشيوخ الناهضين كالفروخ قـــال : ثكلتك امك تجوع الحرة ولا تأكل بثديها فذهبت مثلا أما وأبيك لرب غارة شهدتها . وخيل وزعتها . وسبية أردفتها ، وخمرة شربتها إلحقي بأهلك فأنت طالق وقال :

تَهزّأتْ أنْ رأَتني لابساً كِبَراً وغايةُ النَّاسِ بينَ الموْتِ والكِبَرِ

فإنْ يكنْ قدْ علا رأسي وغيَّره صَرْفُ الزّمانِ وتغييرٌ مِنَ الشَّعَرِ

فقدْ أرُوحُ لِلَذّاتِ الفتى جَذِلاً وقَدْ أصيدُ بها عِيناً مِنْ البَقَرِ

عنّي اليكِ فإني لا تُوافقُني

عُورُ الكَلامِ ولا شُرْبٌ على الكَدَرِ

قال : وقال الحجاج لأبن القرية : ما تقول في التزويج ؟ قال : وجدت أسعد الناس في الدنيـــا ، وأقرهم عيناً وأطيبهم عيشاً ، وأبقـــاهم سروراً وأرخاهم بالا وأشبهم شباباً من رزقه الله زوجـــة مسلمة أمينة عفيفة حسنة لطيفة نظيفة مطيعة ان ائتمنتها زوجها وجدها أمينة ، وان قتر عليها وجدها قانعة وان غاب عنها كانت له حافظة تجد زوجها أبداً ناعماً وجارهـا سالماً ومملوكها آمنا ، وصبيها طاهرا قد ستر حلمها جهلها ؛ وزين دينها عقلها ، فتلك كالريحانة والنخلة لمن يجتنيها وكاللؤلؤة التي لم تثقب والمسكة التي لم تفتق قوامة صوامة ضاحكة بسامـــة ان أيسرت شكرت ، وان أعسرت صبرت فأفلح وأنجح من رزقه الله مثل هذه ، وانما مثل المرأة السوء كالحمل الثقل على الشيخ الضعيف يجره في الارض جراً فبعلهـا مشغول وجارها متبول وصبيها مرذول وقطها مهزول ، قال : يابن القرية قم الآن فاخطب لي هندا بنت أسماء ولا تزد على ثلاث كلمات : فأتاهم فقال جئت من عنـد من تعلمون والامير يعطيكم ما تسألون أفتنكحون أم تدعون ؟ قالوا أنكحنا وغنمنا فرجع الى الحجاج فقال : أصلح الله الامير صلاح من رضي عمله ، ومد في

الخيرات أجله وبلغ به امله جمع الله شملك ، وأدام طولك ، وأقر عينك ، ووقاك حينك ، وأعلى كعبك ، وذلل صعبك ، وحسن حالك على الرفاء والبنين والبنات والتيسير والبركة وأسعد السعود وأيمن الجدود ، وجعلها الله ودوداً ولوداً ، وجمع بينكما على الخير والبركة ، فتزوجهـا الحجاج ثم انه دخل ذات يوم عليها وهي تقول :

وما هِنْدُ إلا مُهْرَةٌ عَرَبِيَّـةٌ ... سَليلةُ أفراسٍ تَجلَّلها بَغْلُ
فإنْ نُتِجَتْ مُهْراً كريماً فبالحرَى ... وإنْ يكُ إقرافٌ فما أنجبَ الفَحْلُ

فخرج من عندها مغضبا ودعا ابن القرية فدفع اليه مائة الف درهم وقال ادخل على هند وطلقها عني ولا تزد على كلمتين وادفع اليها المال ، فحمل ابن القريـة المال ودخل عليها فقال : ان الامير يقول كنت فبنت وهذه المائة ألف صداقك ، فقالت يابن القرية ما سررت به اذ كان ولا جزعت عليه إذ بان ، وهذا المال بشارة لك لمـا جئتنا به . فكان القول أشد على الحجاج من فراقها . وذكروا أن عبدالرحمن بن ابي بكر الصديق رضي الله عنه كانت عنده عاتكة بنت زيد بن نفيل فأحبها حباً شديداً فأمره أبوه بفراقها وان يطلقها تطليقة واحدة ففعل ثم ندم على فعله فقال :

فَلمْ أرَ مِثلي طَلَّقَ اليومَ مِثْلها ... ولا مثلَها في غيرِ جُرْمٍ تُطلَّقُ
لها خُلُقٌ سَهْلٌ وحُسنٌ ومَنْصِبٌ ... وخَلْقٌ سَويٌّ ما يُعابُ ومَنْطقُ
أعاتِـكَ قلبي كلَّ يومٍ وليـلةٍ ... إليكِ بما تُخفي القلوبُ مُعلَّقُ
أعاتِكَ ما أنساكِ ما ذَرَّ شارِقٌ ... وما لاحَ نَجْمٌ في السَّماءِ مُحلِّقُ

فسمع أبو بكر ذلك فرق له وامره بمراجعتها . وعن علي بن دعبـل قال : حدثني ابي قال خرجت ومعي اعرابي ونبطي الى موضع يقال له

بطياثا من امصار دجلة متنزهين فأكلنا وشربنا ، فقال الاعرابي : قل بيت شعر فقلت :

نِلْنا لذيذَ العيشِ في بَطْياثا

فقال الأعرابي :

لمّا حَثَثْنا أقدُحاً ثلاثا

فقال النبطي :

وأمرأتي طالقٌ ثلاثا

وما زال يبكي حتى الصباح فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال ذهبت امرأتي بقافية . قال اسحاق بن ابراهيم الموصلي كنت أنا والحسين بن الضحاك يوماً عند المعتصم وحضرت قينة تعرض عليه فأعجب بها فقال للمدنيين : كيف ترونها ؟ فقال أحدهم : امرأته طالق ان كان رأى مثلها ، وقال آخر : امرأته طالق ان لم .. وسكت فقال المعتصم : ان لم ... ، قال : لا شيء ، فضحك وقال له : ويحك ما دعاك الى طلاق أهلك بلا سبب ، فقال : يا أمير المؤمنين كلنا قد طلق امرأته بلا سبب . ومما قيل في ذلك من الشعر :

رَحلَتْ أُمَيّةُ بالطَّلاقِ ... ونَجوْتُ منْ رِقِّ الوِثاقِ
بانَتْ فلْم يَجْزَعْ لهـا ... قلبي ولمْ تدْمَعْ مآقي
لوْ لمْ أرُحْ بِفرَاقِها ... لأرَحْتُ نفسي بالاباق
وَخصيتُ نفْسي لا أريـدُ ... حَليلةً حتّى التّلاقي

وقال آخر :

رَأيتَ أثاثَها فَطَمِعْتَ فيها ... وقدْ نَصَبَتْ لغيرِكَ بالأثاثِ

فطَلقْها وعَـدِّ النَّفْسَ عنهـا سريعاً إنَّ نَفْسَكَ في التِواثِ
وإلا فالسلامُ عليـــكَ إنّي سآخُذُ منْ غَدٍ لكَ في المَراثِي

٣٨ ــ محاسن وفاء النساء

قال الكسروي : كتب بلاش بن فيروز الى ملك الهند يخطب ابنتـه فلم ينعم له ورد رسوله خائبا ، فتجشم وسار اليه في خيله ورجله ، فلمـا اصطفت الخيلان دعاه بلاش الى المبارزة وقال : انه عار على الملوك أن يوردوا جنودهم الهلاك ويفوزوا بأنفسهم ، فبرز اليه ملك الهند فاختلفت بينهما ضربتان : فمنعت بلاشاً حصانة درعه وضرب بلاش الهندي على عاتقه فقطع حبله حتى انتهى السيف الى ثندوته فخر ميتاً وانهزمت خيله ، فافتتح بلاش مدينته وأمر ثقاته فأحدقوا بقصر ابنة الملك ، فلما احتوى على أمواله بعث الى ابنة الملك ان تأتيه ، فقالت للرسول وهي تبكي : قل للملـك المزين بالحلم المحبب في رعيته السعيد بالظفر انك قد ملكتني وصرت ممن يستحق عطفك ورأفتك ، فان رأيت ان تطيب نفساً عن النظر الي حتى ترجع الى دار مملكتك وافعل ، فانصرف الرسول الى بلاش فأخبره فأجابها الى ما سألت ، وسار وحملها حتى قدم دار المملكة فهيأ لها مقصورة مفردة عن سائر حرمه فأنزلها فيها وامر لها بعتيق الديباج وفاخر الجوهر واسفاط من الذهب والصلاة والجوائز والأثاث مالم يأمر لغيرها مـــن نسائه ، واستأذنها في الدخول عليها وأذنت له ، فدخل عليها وأقام عندها سبعة أيام ولياليها عجباً منه بها لا يحير اليها جوابـاً ولا يخف عن صدر مجلسها ، فخرج من عندها اليوم الثامن وقـد وقع في قلبه ما أظهرت من خفـة

مجلسه عليها ولبثت أشهراً لا يدخل عليها فقالت يوماً لحاضنتها . ما أعجب أمر الملك بذل دمه في طلبي حتى اذا ظفر سلا عني انطلقي حتى تسألي عن عدة نسائه وأيهن أكرم عليه وأتيني بعلم ذلك ، فانطلقت حتى عرفت ذلك وانصرفت فقالت : اني وجدت له أربعمائة امرأة ما بين أمة وحرة وليس فيهن أكرم عليه من ابنة سائس من سواسه أعجبته فتزوج بها ، فقالت : انطلقي اليها واقرئيها مني السلام واعلميها اني أريد مؤاخاتها والانقطاع اليها فانطلقت الحاضنة الى ابنة السائس فأبلغتها رسالة مولاتها ، فقالت لهـا : اقرئيها مني السلام واعلميها اني قد أحببتها وأجبتها الى ما سألت فتصير الي ، فانصرفت فأخبرتها بمـا قالت ، فتهيأت بأحسن هيئة وأقبلت اليها ودخلت عليهـا ، فرفعت مجلسها وأقبلت عليها ، فذكرت حبها لهـا ورغبتها في مواصلتها فردت عليها ابنة السائس أحسن الرد وأعلمتها سرورها بذلك ، ثم تحدثا ساعة وانصرفت وجعلت الهندية تأتيها غبا وتظهر الأنس ، فلما أنست بها قالت لها : انك قـد استلبت قلب الملك وقهرت جميعنا بفضلك وليس لواحدة منا نصيب فاعلمينا الأمر الذي فضلتينا به لنزداد سروراً بما أوتيت ومحبة الك والانقطاع اليك ، قالت : اني لما عرفت ضعف نسبي وقلة جمالي علمت أنـه لا يرجع الملك مني الى شيء أحظى به عنده مثل المؤاتاة في الخلوة وان أبسطه اذا هم بالحركة واستميل قلبـه باللطف وفضل الخدمة ، فلما رآني عـلى ذلك مستمرة ورأى من سائر نسائه أنفة الاكفاء وزهو الجمال وخيلاء الملك ، وعلمت اني ان أخذت مـا أخذنه مع خمول نسبي وقلة جمالي ودقة خطري لا يليق بي مثل الذي يليق بهن ، ففضلني عـلى جميع نسائه بذلك . فلما سمعت ابنة الملك ذلك علمت أن قلوب الرجال لا تستمال إلا بالمؤاناة وسرعة الاجابة في الباه عند المشغلة ، فعزمت أن تجعل ذلك عدة لاستعطاف قلب الملك ، فانصرفت الى قصرها وقالت لبعض جواريها : اذهبي الى فلانة — تعني ابنة السائس — فـان رأيت الملك عندها فاعلميها اني عليلة من وجع عرض لي ، فانطلقت الجـارية فاذا الملك

عندها ، فأخبرتها بذلك ، فرق الملك لها وذكر غربتها وقتله أباهـا فقال لابنة السائس : ما ترين في اتيانها ؟ فقالت أيها الملك : إنه ليس في نسائك من لها عندي مثل منزلتها فصر اليها فانها غريبة قد فارقت أهلها وهي في موضع رحمة ، فقام الملك حتى دخل عليها وانتهى الى باب مجلسها ، فقامت اليه تمشي بأحسن هيئتها متكسرة في حليها وزينتها عبقة بطيبها وعطرهـا فقبلت بين عينيه وأخذت بيده حتى أجلسته في صدر فراشها وجعلت تقبل يديه ورجليه ضاحكة اليه مظهرة السرور به . فجذبها الى نفسه ودعاها الى المضاجعة فاتته ولم يرد في الخلوة شيئاً الا أجابته اليه ، فلما قضى حاجته نازعها الى المحادثة فقـال : اين ما ذكر رسولك من وجعك ؟ قالت : يا سيدي كنت متوجعة لفراقك حتى شفاني لقـاؤك ، وقلت ذلك لمـا نالني من تباريح الشوق اليك وطول صدودك وسلوتك ، ثم أخذ معها في المداعبة ، وأقـام عندهـا سبعة أيام فبينما همـا يتلاعبان ويتذاكران ويتعانقـان اذ دخلت جارية لابنة السائس فحيت الملك بتحية الملوك ثم قالت للهندية : ان سيدتي — تعني ابنة السائس — تقول قد اجتمع فيك ثلاث خصال : الأولى الغدر بمعلمتك ، والثـانية فضل تطاولك ، والثالثة كفران النعمة المنعم واني عن قريب رادتـك من الملك الى غصص الغيظ . فأفحمتها وهملت عيناها ونظرت الى الملك كالمستغيثة به ، فقـال لها الملك : يا حبيبتي ما تنكرين من أمتك قد وهبتها لك وجميع ما تملك ، فتجلى عنها غمها فقالت لرسولتها : انطلقي اليها فاعلميها أن الملك قد وهبهـا وما تملك لي ، وقولي لها : أرجعك فحش نفسك الى لؤم حسبك واهمال أدبك إئتيني الساعة بصغار المذلة ورقة العبودية ، فلما أبلغتها الرسول ذلك أقبلت فدخلت عليها فحيت الملك وقامت بين يديه ، فقالت لها الهندية : ما كان أعظم زهوك في رسالتك ، قالت : يا سيدتي أتأذنين لي في الكلام ؟ قالت : تكلمي قالت : أيتها السيدة لست متوجهة اليك بشيء هو أملك بك من حلمك ، ولا أعطف علي من فضلك ، ولم يظلم من رفع فرقي

من هو أفضل مني ، وكل فرع يرجع الى أصله ، وكل زهـــر ينسب الى سنخه ، فقالت : صدقت فدعي عنك كلام الأدب فقد ملكتك على رغم أنفك وانا مزوجتك من فـــلان خادمي فليس لك فضل عليه ، قالت ابنة السائس : من اعتاد معالي الأمور لم تطلب نفسه بأسافلهـا ، ومن صاحب العظماء أبت غريزته الادنياء ، وانما ترقبت عطفك ورجوت حسن نظرك ، فأما اذا عزمت على هـــذا فقد طاب الموت وما الذي أستبقي منك ، ثم قالت : أيها الملك ان جذل المسرة منك لا يستقر ويقع موقعـــه الا بعد المخالفة عندك ، فاحترس من هذه الهندية فانها لا تؤمن عليك ، لانهـا ليست من جنسك فيعطفها عليك الرحم ، ولا من أهـل مملكتك فتعرف تطولك عليها ، وانمـــا هي شبيهة بموتورة قد قتلت أباها وهدمت عزها ، فاحترس منها ولا يلهينك موقعها من قلبك ، فانها متى احتالت في قتلك لم يكن في أيدينا مـــن الظفـــر الا قتلهـــا كما كان من أمر الثعلب وعظيم الطير ، فقال الملك : وما كان من حديثهما ، قالت : يقال ان ثعلباً جاع في ليلة فرقى شجرة ليأكل منها ، فسال الوادي الذي فيه تلك الشجرة بسيل شديد فاقتلعها والثعلب عليها ، ثم رفعها ووضعها حتى ألقى الثعلب الى أرض بعيدة من ارضه ، فأصبح وقد ألقاه السيل الى سفح جبل كثير الاشجار مثمر الاغصان ، وعلى تلك الاشجار جنس من الطير لا يحصى عدداً ، فأفعى الى شجرة قصياً مقشعراً لا يعرف أرضه ولا يقدر على مؤالفة الدواب فمر به عظيم الطير فقال له : ما أنت ؟ فقال : أنا دابة سال بي السيل فألقاني في جبلكم وقد أصبحت غريباً ، فقال له عظيم الطير : فهل لك حرفة ؟ قال : نعم أعرف الثمار اذا بلغت حد بلوغهـا واصنع للطير أكنافاً في الأرض تكن فيها فراخها من الحر والبرد ، فقال له عظيم الطير : قد أدركت عندنا بغيتك فأقم عندنا نواسك ونعرف حق مجاورتك ، فأقام الثعلب عند ملك الطير فكان يعرفهم الثمار المدركة ويحفر لهن بمخاليبه قبوراً في الارض يفرخن فيها ، وكان الثعلب اذا جن عليه الليل وقرم الى اللحم

أدخل يده في جحر من تلك الاجحرة فاخرج طيراً أو فراخاً فاكله ودفن ريشه وجعلت الطير تتفقد ما كان يأكل واحداً بعد واحد فقال بعضها لبعض : ما فقدنا أفاضلنا الا منذ صارت هذه الدابة بين أظهرنا وما كانت هذه الطير تطيل الغيبة وما تدري ما دهاها فقال عظيمها : ان هذا حسد منكن لهذه الدابة فلا تغفلن ما أصبحتن فيه من فضل المطعم وما فيه فراخكن من هذه الاكنان التي لا يخاف عليها برد فيها ولا حر فقالت الطير : أنت سيدنا وأبصر بالامور منا ، قال : وعلي أن أقطع هذا القول وأبين حق ذلك من باطله بنفسي ، فلما أظلم الليل نزل من الشجرة فدخل بعض تلك الاكنان وأقبل الثعلب على العادة التي اعتادها الى ذلك الكن فادخل يده فقبض على رأس الملك فقال الملك للثعلب : لقد نصحتني الطير لو قبلت نصحها ، قال الثعلب : أنت هو ، قال : نعم ، قال : ما ظننت أن يبلغ من حمقك كل هذا ? قال ملك الطير : دعني أردك في منزلتك بحسب ما رأيت من فضل علمك ولطيف حيلتك ، قال له الثعلب : ان أبوي أدباني أن لا أعلق اباليي بشيء وأتركه إذ ليس من جهلك ان لا تتجزأ من الثمار ومن الاكنان بما كان آباؤك يكتفون به ولم ترض حتى اختبرت امري بنفسك ولم تجعل التغرير في ذلك بغيرك ثم أكله ودفن ريشه ، وفقدت الطير عظيمها فاستوحشت وضربت الثعلب ضرباً بمخاليبها ومناقيرها حتى قتلته ولم يصلن في عظيم خطر ملكهن الى اكثر من قتل الثعلب فاحترس من هذه الهندية قالت الهندية : انما تقر عين المرأة باربعة رجال بابيها واخيها وولدها وبعلها وافضل النساء المختارة بعلها على جميع اهلها ، والمؤثرة له على نفسها فكيف بمن ذهب ابوها واخوها فبقي بعلها ? أفتحب ان تهلكه على أن مثلك في رداءة همتك وخبث نيتك مثل الغراب والحمامة ، قال الملك : وما كان من حديثهما ? قالت : زعموا ان غرابا الف مطبخاً لبعض الملوك . فأخذ من اطيب اللحمان التي قد صارت فيه شيئاً فظنوا ان الغراب اخذه لقلة وفائه ولؤم جوهره فطردوه

عن مطبخهم وقالوا : ما نرجو من هذا الغراب وهو من الطيور التي تعاف ويتطير منها ، فأفشى ذلك الغراب امره الى حمامة قد كان بينهما معرفـــة وفزع الى رأيها واخبرها ما كان فيه من نعيم المأكل والمشرب فقالت لـه الحمامة : انطلق بي حتى تريني هذا المطبخ فانطلق حتى اتى سطح المطبخ فقالت الحمامة : اني ارى هذا البيت ليس فيه موضع مدخل فاحفر لي بمنقارك قدر ما ادخل فان منقاري يضعف عن ذلك ، فحفر الغراب في سقف البيت بمنقاره حتى دخلت فيه الحمامة وتوسطت في البيت فأعجبهم حسن خلقهـــا وصفاء لونها ، فجعل لها خازن المطبخ موضعاً تأوى اليه ، فلبثت في ذلك البيت قريرة عين ، فناداها الغراب ما هكذا قدرت فيك فقالت الحمامة : لو وفيت لك حل بي غدرك وان القوم عرفـــوا وفائي وحسن جواري وعرفوا غدرك وقلة وفائك ونكث عهدك ، فهذا مثلي ومثلك يا ابنة السائس اني لو وفيت لك ارداني غدرك وقتلني مكرك ! قالت ابنة السائس : ايتها السيدة ان الذي سمعت مني كان لشدة الأنفة فأردت أن أنفي عـــن نفسي الذي اردت من انكاحي خادمك فلانا ، قالت الهندية : لابد من ذلك ، فقالت ابنة السائس : من اعتاد معالي الامور لم تطب نفسه بأسافلها ، الآن استعذبت الموت فعمدت الى سم كان معها فقذفته في فيها فخرت ميتة ووفت الهندية لزوجها فأملحا . ومنهن شيرين امرأة ابرويز فان شيرويه بن ابرويز لما قتل أباه وتوطد له الملك بعث الى شيرين يدعوها الى نفسه فامتنعت عليـه وابت ان تجيبه الى ذلك فغصبها ضياعها وعقارها وذخائرها واموالها وقذفها بكل فاحشة ورماها بكل معضلة ، فلما بلغها ذلك هان عليها ما أخذه مـن أموالها مع ما رماها به فبعثت اليه وقالت : ايها الرجل ان لم يكن ممـــا سألت بد فاقض لي ثلاث حوائج حتى أتابعك على ما تريد : فقال : ومـا هذه الحوائج ؟ قالت : أحدها أن ترد علي ضياعي وأموالي ، والثانية أن تصعد منبرك بمحضر مرازبتك وأساورتك وعظماء اهل مملكتك وتتبرأ ممـا قذفتني به ، والثالثة ان اباك اودعني وديعة فتأمر ان يفتح لي باب الناووس

لهـــا ومعها خاتم وفيه سم ساعة فنثرته في فيها وعانقت قبر زوجها فماتت .

(ضده)

قيل : كان لكسرى أبرويز خال يقال له : بسطام ، فخالف على كسرى وجمع جمعا كثيرا وواقع أبرويز ، فلما اعيت ابرويز الحيلة فيه دعا بكردي أخي بهرام جور ويقال : ان كردياً كان غلاما له رباه وبلغ منه مبلغ الرجال وكان من خاصته والناصحين له فقال له : قد ترى ما نزل بنا من هذا العدو بسطام ، وقد رأيت رأيا ان طابقتني عليه رجوت الظفر ، قال كردي : وما ذاك أيها الملك أخبرني فما شيء يزيدك الله به عزاً ويزيد أعداءك به ذلا الا بادرت اليه بنصح وصدق لعظيم حقك ووجوب طاعتك . قال له كسرى قد عرفت حال كردية أختك امرأة بسطام وجراءة قلبها وبسطام يأوي اليها كل ليلة اذا انصرف عن الحرب وأنا جاعل لها عهد الله وميثاقه وذمة أنبيائه ان هي أراحتني من بسطام واحتالت لي في قتله ان أتزوجهـــا وأجعلها سيدة نسائي وأبلغ في اكرامها والسمو بها أفضل ما بلغ ملـــك بامرأته ، قال كردي : يأيها الملك ما أشك في قدرتها عليه فاكتب اليها بخطك بما رأيت لأوجهه في الكتاب اليها مع امرأتي أرجية فان لها عقلا ورفقـــا وبصيرة فكتب كسرى بخطه « بسم اللهِ الرَّحمَن الرَّحيم » هـــذا كتاب لكردية بنت بهرام جستاسب كتبه لها كسرى ابرويز بن هرمز ان لك عندي عهد الله وذمته وذمة أنبيائه ورسله ان انت قتلت بسطام وأرحتني منه ان أتزوج بك وأجعلك سيدة نسائي وأبلغ من كرامتك ما لا يبلغ ملك من الملوك لاحد ، وأشهد الله على ذلك ، وكفى بالله شهيـــداً وكتب كسرى بخطه وختمه بخاتمه يوم كذا من شهر كذا ، فسارت أرجية حتى دخلت عسكر بسطام كهيئة الزائرة لكردية بالنظر اليها وكان بينهما قرابة ، فلمـــا جلست وسكنت دفعت اليها كتاب كسرى وقالت لها : يا بنة عم اجيـــبي الملك الى ما سألك واغنمي بذلك الرجوع الى وطنك فرغبت لشدة شوقها الى أهلهـــا

فأجابتها الى ذالك وانصرفت أرجية الى عسكر كسرى وعرفت زوجها ما كان بينها وبين كردية فمضى كردي الى كسرى فأعلمه ، ثم ان بسطام دخل على كردية فأتته بعشاء فتناول منه ثم أتته بشراب فسقته وجعلت تحدثه وتظهر له المحبة حتى مضى ثلث الليل ، فنام بسطام ، فلما استثقل نوما قامت اليه كردية بسيفها فوضعته على ثندؤته ثم اتكأت فاخرجته من ظهره فمات ، وعمدت من ساعتها الى دوابها فحملت حشمها وأثقالها على البغال وخرجت نحو عسكر كسرى وقد كانت وجهت مع أرجية الى اخيها ان يجلس لها على الطريق ، فلما وافته سار معها حتى أدخلها على كسرى ففرح بذالك فرحا شديداً فلما أصبح أصحاب بسطام ورأوه قتيلا ولوا هاربين على وجوههم فانصرف كسرى الى المدائن فاتخذ لكردية تاجا مكللا بالدروصنوف الجوهر وأعدلها وليمة عظيمة دعا فيها جنوده فطعموا وشربوا ، ثم دعا كرديا أخاها فزوجه اياها ومهرها وأعطاها خاتما فصه من الكبريت الأحمر يضيء في الليلة الظلماء كما يضيء السراج ، فلما دخل بها كسرى ونظر الى جمالها وعقلها سر بها وأعطاها الاموال وأقطعها الضياع واكرم اخاها كرديا وولاه أرض فارس وبلغ بها من رفعه اياها وتشريفه لها ما لم تبلغه امرأة قبلها ولا بعدها ، ثم ان كردية قالت لكسرى : يا سيدي اخرج بنا الى الميدان لألعب بين يديك بالكرة والصولجان فخرج معها الى الميدان وخرجت امرأته شيرين وخواص نسائه ودعا بخيل فأسرجت وركبت وركب هو وجعلت تلاعبه بالصوالج وتناولت السيف وركضت في الميدان ولعبت بالسيف لعبا معجباً ثم اخذت الرمح فلعبت به فقالت : شيرين : أيها الملك ما يؤمنك من هذه الشيطانة ، قال : هيهات انها أعرف بحقنا وأشد حبا لنا من أن نخافها على أنفسنا ، فلما نزلت قال كسرى : لنا في كل ربع من أرباع مملكتنا قائد في اثني عشر الف رجل وفي قصري اثني عشر ألف امرأة ، وقد جعلتك قائدة عليهن ، قالت : يا سيدي ما للنساء والفروسية وانما علينا ان نتزين لك ونتطيب ونسرك بأنفسنا واردت بما كان مني

سرورك وتسلية همومك ، فأمر كسرى بحمل طعامه وشرابه الى منزلها وبقي عندها أسبوعا لم يخرج الى الناس ولم يأذن لاحد بالدخول عليه ثم خرج من عندها الى منزل شيرين ، فأتاه صياد بسمكة عظيمة فأعجب بها وأمر له بأربعة آلاف درهم . فقالت له شيرين : أمرت لصياد بأربعة آلاف درهم فان أمرت بها لرجل من الوجوه قال : انما أمر لي بمثل ما أمر للصياد ، فقال : كيف أصنع وقد أمرت له ؟ قالت : اذا أتاك فقل له اخبرني عن السمكة أذكر هي أم أنثى ؟ فان قال أنثى فقل : لا تقع عيني عليك حتى تأتيني بالذكر ، وان قال ذكر فقل : مثل ذلك ، فلما غدا الصياد على الملك قال له : أخبرني عن السمكة أذكر هي أم أنثى ؟ قال : بل أنثى . قال : فأتني بذكرها . فقال عمر الله الملك انها كانت بكراً لم تتزوج بعد ، قال الملك : زه زه وأمر له بأربعة آلاف درهم وأمر أن يكتب في ديوان الحكمة : ان الغدر ومطاوعة النساء يورثان الغرم . قال : وكان الموبذان اذا دخل على كسرى قال : عشت أيها الملك بسعادة الجد ، ورزقت على أعدائك الظفر وأعطيت الخير وجنبت طاعة النساء ، فغاظ ذلك شيرين وكانت أجمل نساء عصرها وأتمهن عقلا فقالت لكسرى : أيها الملك ان هذا الموبذان قد طعن في السن ولست مستغنياً عن رأيه ومشورته وقد رأيت لحاجتك اليه ان أهب له مسكدانة جاريتي وقد عرفت عقلها وجمالها فان رأيت أن تسأله قبولها فافعل ، فكلم كسرى الموبذان في ذلك ، فهش للجارية لمعرفته بجمالها وفضلها فقال : قد قبلتها أيها الملك لايثارها إياي بأفضل جواريها ، فقالت شيرين لمسكدانة : اني اريد ان تأتي هذا الشيخ فتبدي له محاسنك وتجيدي خدمته ، فاذا هش لمضاجعتك فامتنعي عليه حتى توكفيه وتوكبيه وتعلميني الوقت الذي يتهيأ لك ذلك حتى لا يعود أن يريد في تحية الملك — ووقيت طاعة النساء — فقالت مسكدانة : افعل يا سيدتي ، ثم انطلقت الى الشيخ فصارت عنده في داره التي يحلها من قصر الملك فجعلت تخدمه وتبره وتظهر له

الكرامة وهي مع ذلك تبرز له محاسنها وتكشف له عن صدرها ونحرها وتبدي له ساقيها وفخذيها فارتاح الموبذان اليها وشرح صدره لمضاجعتها فجعلت تمتنع عليه فيزداد في ذلك حرصا فلما ألح عليها قالت له : ايها القاضي ما أنا بمجيبتك الى ما سألت حتى أوكفك وأركبك فان اجبتني الى ذلك صرت طوع يدك فيما تريد وتدعو اليه من مسرتك فامتنع عليها اياما وبقيت تتزين له بزينتها وتكشف له عن محاسنها حتى عيل صبره فقال لها : افعلي ما أحببت ، فهيأت له برذعة صغيرة وإكافا صغيراً وحزاما وثفرا وأقامته عريانا على أربع ووضعت على ظهره البرذعة والاكاف وجعلت الثفر تحت خصيتيه وهي قائمة وركبته وهي تقول : خرخر وأرسلت الى سيدتها شيرين تعلمها بذلك فقالت شيرين للملك : اصعد بنا الى ظهر بيت الموبذان لننظر من الروزنة ما يكون بينه وبين الجارية فصعدا ونظرا فاذ هي قد ركبته فوق الاكاف ، فناداه كسرى : ويحك أي شيء هذا ؟ فرفع الموبذان ، رأسه ونظر الى الروزنة ورأى الملك فقال : هو ما كنت أقول لك في اجتناب طاعة النساء ، فضحك كسرى وقال : قبحك الله من شيخ وقبح مستشيرك بعد هذا .

حديث الزباء

ومنهن الزباء واسمها هند وملكت الشام بعد عمها الضنور ، وكان جذيمة الأبرش قتل عمها فبعث اليها جذيمة يخطبها فاظهرت البشر والسرور لرسوله وكتبت اليه بالقدوم عليها لتزوجه نفسها ، فاستشار نصحاءه فقالوا : ايها الملك ان تزوجت بها جمعت ملك الشام وملك الجزيرة الى ملكك ، فاستخلف ابن اخيه عمرو بن عدي وسار في ألف فارس من خاصته فلما انتهى الى مكان يسمى بقة وهو حد مملكتها ومملكته نزل في ذلك المكان واستشار أصحابه أيضاً في المصير اليها بالانصراف ، فزينوا له الالمام

بها وقالوا : انك ان انصرفت من ههنا أنزله الناس منك على جبن ووهن ، فدنا منه مولى له يقال له قصير بن سعد فقـال له : أيها الملك لا تقبل محورة هؤلاء وانصرف إلى مملكتك حتى يتبين لك أمرهـا فانها امرأة موتورة ومن شأن النساء الغـدر ، فلم يحفـل بقوله ومضى حتى اقتحم مملكتها فقال قصير – ببقة صرم الامر – ثم أرسلها مثلاً ، فلما بلغ المرأة قدومه عليها امرت جنودها فاستقبلوا الملك فقال قصير : ايهـا الملك اني رأيت جنودها لم يترجلوا لك كما يترجل للملوك ولست آمن عليك فاركب العصا وانج بنفسك والعصا كانت فرساً لجذيمة لا يشق غبارها – فلم يعبأ جذيمة بقوله وسار حتى دخل المدينة ، وامرت هند الزباء باصحابه ان ينزلوا فانزلوا ، وأخذت منهم أسلحتهم ودوابهم وأذنت لجذيمة فدخل عليها وهي قصر لها ولم يكن معها في قصرها الا الجواري فأومأت اليهن بان يأخذنه واجتمعن عليه ليكتفنه فامتنع عليهن فلم يزلن يضربنه بالأعمدة حتى أثخنه وكتفنه ، ثم دعت بنطع فأجلسته فيه وكشفت عن عورتها فنظر جـذيمة فاذا لها شعرة وافية فقالت : كيف ترى عروسك أشوار عروس أم مـا ترى ؟ قال : أرى بظرا ناتئاً ونبتاً فاشياً ولا اعلم مـا وراء ذلك ، قالت : اما انه ليس من عدم المواسي ولا لقلة الأواسي ولكنه شيمة من اناسي ، ثم امرت به فقطعت عروقه فجعلت دماؤه تشخب في النطع فقالت لا يحزنك ما ترى فانه دم هراقه أهله فارسلتها مثلاً ، واحتال قصير للعصا حتى وصل اليها وركبها ثم دفعها فجعلت تهوي به كأنهـا الريح وكان المكان الذي قصد فيه جذيمة مشرفاً على الطريق ، فنظر جذيمة اليه وقد دفع الفرس فقال : لله حزم على رأس العصا فلم تزل دماؤه تشخب حتى مات ، ثم امرت باصحابه فقتلوا باجمعهم وكان عمرو بن عدي يركب كل يوم من الحيرة فياتي طريق الشام يتجسس عن خبره وحاله فلم يبلغه احد خبره ، فبينا هو ذات يوم في ذلك اذ نظر الى فرس مقبل على الطريق ، فلما دنا منه عرف الفرس وقال : يا خير ما جاءت به العصا فذهبت مثلا فلما دنا منه

قصير قال له : ما وراءك ؟ قال : قتل خالك وجنوده جميعاً فاطلب بثارك ، قال : وكيف لي بها وهي امنع من عقاب الجو ؟ فذهبت مثلا ، ثم ان قصيرا امر بانف نفسه فجدع ، ثم ركب وسار نحو الزباء فاستأذن عليها فقيل لها : ان مولى لجذيمة وقهرمانه واكرم الناس عليه قد أتاك مجدوعاً فاذنت له فدخل عليها قالت : من صنع بك هذا ؟ قال: ايتها الملكة هذا فعل عمرو بن عدي اتهمني وتجنى علي الذنوب وزعم اني أشرت على خاله بالمصير اليك حتى فعل بي ما ترين ولم آمنه أن يقتلني فخرجت هارباً اليك وقد أتيتك لاكون معك وفي خدمتك ولي جداء وعندي غناء ، قالت : نعم أقم فعندي لك ما تحب وولته نفقتها فخف لها ورأت منه الرشاقة فيما اسندته اليه ، فاقام عندها حولا ثم قال لها : ايتها الملكة ان لي بالعراق مالا كثيراً فاذا أذنت لي في الخروج لحمله فافعلي فدفعت اليه مالا كثيراً وامرته ان يشتري لها ثياباً من الخز والوشي ولآلىء وياقوتاً ومسكاً وعنبراً والنجوجا فانطلق حتى اتى عمراً فاخبره فاخذ منه ضعفي مالها وانصرف نحوها فاسترخصت ما جاء به وردته الثانية والثالثة فكان ياخذ في كل مرة مثل اضعاف مالها فيشتري لها جميع ما تريد فتسترخصه ووقع قصير بقلبها فاستخلفته ثم بعثته في الدفعة الرابعة بمال عظيم وامرته ان يشتري أثاثا ومتاعاً وفرشاً وآنية فانطلق الى عمرو فقال قد قضيت ما علي وبقي ما عليك ، فقال وما الذي تريد ؟ قال : اخرج معي في الفي فارس من خدمك وكونوا في أجواف الجواليق على كل بعير رجلان فانتخب عمرو الفي فارس من اصحابه فخرج وخرجوا معه في الجواليق كل رجل بسيف وكان يسير النهار فاذا امسى الليل فتح الجواليق ليخرجوا ويطعموا ويشربوا ويقضوا حوائجهم حتى اذا كان بينه وبين مدينتها مقدار ميل تقدم قصير حتى دخل عليها وقال : أيتها الملكة اصعدي على القصر لتنظري ما اتيتك به فصعدت فنظرت الى ثقل الاحمال على الجمال فقالت :

مَا لِلجِمَالِ مَشْيُهَا وَئِيدَا أَجَنْدَلاً يَحْمِلْنَ أَمْ حَدِيدَا

أم صَرَفاناً بارِداً شدِيدا

فأجابها قصير سراً وقال :

بلِ الرِّجالَ جُثَّماً قُعودا

فقال : لما عليها من المتاع الثقيل النفيس فأمرت بالأحمال فادخلت قصرها وكان وقت المساء فقالت إذا كان غداً نظرنا الى ما أتيتنا به ، فلما جن عليهم الليل فتحوا الجواليق وخرجو فقتلوا جميع من في القصر ، وكان لها سرب قد اعدته للفزع والهرب ان حل بها روع تخرج الى الصحراء ، وقد كان قصير عرف ذلك المكان ووصفه لعمرو ، فبادر عمرو الى السراب فاستقبلته الزباء فولت هاربة نحو السرب ، فاستقبلها بالسيف فمصت فصها وكان مسموماً وقالت : بيدي لابيدك ياعمرو ولا بيدي العبد ، فقال عمرو يده ويدي سواء ، وفي كليهما شفاء وضربها بسيفه حتى قتلها ، واقبل قصير حتى وقف عليها فجعل يدخل سيفه في فرجها ويقول :

ولو رأوْني وسيْفي يومَ أُدْخِلُهُ　　في جوْفِ زَبَّاءَ ماتوا كُلُّهم فَرَحا

وغنم عمرو واصحابه من مدينتها اموالا جليلة وانصرفوا الى الحيرة ، فكان الملك بعد خاله جذيمة ، وعمرو هذا هو جد النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدي . ومنهن صاحبة الجعد بن الحسين أبي صخر بن الجعد ، وكان جعد قد طمن في السن ، وكان يكنى أبا الصموت ، وكانت له وليدة سوداء فقالت يا أبا الصموت زعم بنوك ان يقتلوني اذا انت مت قال : ولم ذاك ؟ قالت : مالي اليهم ذنب غير حبك فاعتقني ، فأعتقها فبقيت يسيراً ثم قالت : يا أبا الصموت هذا عرابة من أهل عدن يخطبني ، قال : ما كان هذا ظني بك ، قالت : انما أريد ماله لك ، فقال : ائتيني به فجاءت به فزوجها منه فولدت منه وقربته من مال جعد ، وكانت تأتي الجعد ، فتخضب

رأسه ثم قطعته فقال الجعد :

أبلغْ لديكَ بني عَمْرٍ مُغَلْغَلَةً ... عوْفاً وعَمْراً فما قوْلي بمَرْدودِ

بأنَّ بيتي أمسَى فوْقَ داهِيةٍ ... سوْداءَ قد وَعدَتْني شَرَّ مَوْعُودِ

تُعْطى عُرَابةَ بالكفينِ مُخْتَضَباً ... مِنَ الخَلوقِ و تُعْطيني على العودِ

أمسى عُرابةُ ذا مـالٍ وذا وَلَدٍ ... مِنْ مالِ جَعْدٍ وجَعْدٌ غيرُ محمودِ

ومنهن امرأة مروان بن الحكم ، وكانت ام خالد بن يزيد بن معاوية وهي ابنة هشام بن عتبة فأراد مروان الخروج الى مصر فقـال لخالد : أعرني سلاحك وأعاره ، فلما رجع قال له خالد : رد علي سلاحي ، فابى عليه وكان مروان فحاشاً فقال له : يا بن الربوخ الرطبة ، فجاء خالد الى امه فقال : هذا ما صنعت بي سبني على رؤوس الملأ وقال لي كيت و كيت قـالت : اسكت فاني اكفيك امره ، فجاء مروان فرقد عندها فامرت جواريها فطرحن عليه الشواذكين ـ يعني الملاحف ـ ثم غططنه حتى قتلنه وخرجن يصحن : وا أمير المؤمنيناه ، فدعا عبد الله بامرأة أبيه ليقتلها فقالت : ان الذي يبقى عليك من العار أعظم من قتل ابيك ، قال : وما ذاك ؟ قالت : يقول الناس ان أباك قتلته امرأة ، فامسك عنها :

٣٨ ـ محاسن مكر النساء

ذكروا ان الحجاج بن يوسف أرق ذات ليلة فبعث الى ابن القرية فقال: فقال : أرقت فحدثني حديثاً يقصر على طول ليلي ولكن من مكر النساء وفعالهن ، فقال أصلح الله الأمير ذكروا أن رجلا يقال له عمرو بن عامر من أهل البصرة كان معروفـاً بالنسك والسخاء ، وكانت له زوجة يقال لها جميلة ، وله صديق من النساك فاستودعه عمرو ألف دينار وقال : ان حدثت

بي حادثة ورأيت أهلي محتاجين فاعطهم هذا المال فعاش ما عاش ثم دعى فأجاب ، فمكثت جميلة بعده حيناً ثم ساءت حالها وأمرت خادمتها يوماً ببيع خاتمها لغداء يوم أو عشاء ليلة فبينا الخادمة تعرض الخاتم على البيع إذ لقيها الناسك صديق عمرو فقال : فلانة ؟ قالت : نعم ، قال : حاجتك ؟ فأخبرته بسوء الحال وما اضطرت اليه مولاتها من بيع خاتمها ، فهملت عيناه دموعا ثم قال : ان لعمرو قبلي ألف دينار فاعلمي بذلك صاحبتك ، فاقبلت الجارية ضاحكة مستبشرة وهي تقول : رزق حلال عاجل من كد مولاي الكريم الفاضل ؛ فلما سمعت مولاتها ذلك سألتها عن القصة فأخبرتها فخرت ساجدة ، وحمدت ربها وبعثت بالجارية الى الناسك ، فأقبل الناسك ومعه المال ، فلما دخل الدار كره أن يدفع المال الى أحد سواها ، فخرجت فلما نظر الى جمالها وكمالها أخذت بمجامع قلبه وفارقه النهي وذهب عنه الحياء وأنشأ يقول :

قدْ سَلَبْتِ الجسم والقلبَ معاً   وبَرَيتِ العَظمَ مِمَّا تَلْحَظِينْ
فارْدُدي قَلْبَ عَمِيدٍ واقبَلي   صِلَةَ الضِّعفينِ مِمَّا تَرْتَجِين

فأطرقت جميلة لقوله طويلا ثم قالت : ويحك ألست المعروف بالنسك المنسوب الى الورع ؟ قال : بلى ولكن نور وجهك سل جسمي فتداركيني بكلمة تقيمين بها أودي فهذا مقام اللائذ بك ! قالت : أيها المرائي المخادع أخرج عني مذموماً مدحورا فخرج عنها وقد هام قلبه ، وأضحت جميلة تعمل الحيلة في استخراج حقها ، فاتت الملك ترفع اليه ظلامتها فلم تصل اليه ، فاتت الحاجب فشكت اليه فاعجب بها اعجابا شديدا وقال : ان لوجهك صورة أدفعها عن هذا ولا يجمل بمثلك الخصومة فهل لك في ضعفي مالك في ستر ورفق ؟ فقالت : سوءة لامرأة حرة تميل الى ريبة ، فانصرفت الى صاحب الشرطة فانهت ظلامتها اليه فاعجب بها وقال : ان حجتك على الناسك

لا تقبل الا بشاهدين عدلين : وانا مشتر خصومتـــك ان انت نزلت عند مسرتي ، فانصرفت عنه الى القاضي فشكت اليه فاخذت بقلبه وكاد القاضي يجن إعجاباً بها وقال : يا قرة العين انه لا يزهد في أمثالك فهـــل لك في في مواصلتي وغناء الدهر ؟ فانصرفت وباتت تحتال في استخراج حقهـــا ، فبعثت الجارية الى نجار فعمل لها تابوتا بثلاثة أبواب : كل منها مفرد ، ثم بعثت الجارية الى الحاجب أن يأتيها اذا أصبح ، والى صاحب الشرطة أن يأتيها ضحوة ، والى القاضي أن يأتيها اذا تعالى النهار ، والى النـاسك ان يأتيها اذا انتصف النهار ، فأتاها الحاجب فأقبلت عليه تحدثه فما فرغت من حديثهـــا حتى قالت لها الجارية : صاحب الشرطة بالبـــاب فقالت للحاجب ليس في البيت ملجأ الا هذا التابوت فادخل أي بيت شئت منه فدخل الحاجب بيتاً من التابوت فأقفلت عليه : ودخـــل صاحب الشرطة ، فاقبلت جميلة عليه تضاحكه وتلاطفه فما كان باسرع من ان قالت الجارية القاضي بالباب ، فقال صاحب الشرطـــة : اين أختبىء ؟ فقالت لا ملجأ الا هذا التابوت وفيه بيتان فادخل أيها شئت ، فدخل فاقفلت عليه ، فلما دخل القاضي قالت : مرحبا واهلا واقبلت عليه بالترحيب والتلطيف فبينـا هي كذلك اذ قالت الجارية : الناسك بالباب ، فقال القاضي : ماذا ترين في رده ؟ فقالت : ما لي الى رده سبيل قال : فكيف الحيلة ؟ قالت : اني مدخلتك هذا التابوت ومخاصمته فاشهد لي بما تسمع واحكم بيني وبينـه بالحق قال : نعم فدخل البيت الثالث فاقفلت عليه ، ودخل الناسك فقالت له مرحبا بالزائر الجاني كيف بدا لك في زيارتنا ؟ قال : شوقا الى رؤيتك وحنينا الى قربك قالت : فالمال ما تقول فيه ؟ اشهد الله على نفسك برده اتبع رأيك قال : اللهم إني أشهدك أن لجميلة عندي ألف دينار وديعـــة زوجها ، فلما سمعت ذلك هتفت بجاريتها وخرجت مبادرة نحو باب الملك فانهت ظلامتها اليه ، فارسل الملك الى الحاجب وصاحب الشرطة والقاضي فلم يقدر على واحد منهم ، فقعد لها وسألها البينة فقالت : يشهد لي تابوت

عندي فضحك الملك وقال : يحتمل ذلك لجمالك ، فبعث بالعجلة فوضع التابوت فيها وحمل الى بين يدي الملك ، فقامت وضربت بيدها الى التابوت وقالت : أعطي الله عهداً لتنطقن بالحق ، وتشهدن بما سمعت ، أو لأضرمنك نارا ، فاذا ثلاثة أصوات من جوف التابوت تشهد على اقرار الناسك لجميلة بالف دينار : فكبر ذلك على الملك ، فقالت جميلة : لم أجد في المملكة قوما أو في ولا أقوم بالحق من هؤلاء الثلاثة فأشهدتهم على غريمي ، ثم فتحت التابوت وأخرجت ثلاثة النفر وسألها الملك عن قصتها فاخبرته وأخذت حقها من الناسك ، فقال الحجاج : لله درها ما أحسن ما احتالت لاستخراج حقها . قال : وكان يعقوب بن يحيى المدائني ويحيى الكاتب كاتب سهل بن رستم يتحدثان الى مهدية جارية سليمان بن الساحر فقال يعقوب يوما ليحيى أنا أشتهي ان أرى بطن مهدية ، فقال يحيى : ما تجعل لي ان أنا احتلت لك بحيلة حتى تراه ؟ قال : ما شئت قال : برذونك هذا قال : نعم ، قال : فتوثق منه ، وأتى مهدية فقال لها : كان لي برذون موافق فاره فنفق وانت لو شئت لحملتني على برذون فاره ، قالت : انا افعل واشتريه لك بما بلغ الثمن ، قال : انت قادرة عليه بغير الثمن ، قالت : كيف ذلك ؟ فاخبرها بالقصة فقالت : قد حملك الله على البرذون واربحك النظر الى بطن حسن ، فاذا كان غداً فتعال انت ويعقوب فاجلسا ، فان سليمان يعبث بوصيفته فلانة كثيرا ، فاذا فعل ذلك وجئت انا فقل : انت يا مهدية لو علمت ما صنع فلان لقتلته ، قال : نعم ، فلما جاءت مهدية ، قال لها : ان امر سليمان مع وصيفته اشنع مما تقدرينه ، فوثبت مستشيطة غضباً وقالت : مثلك يابن الساحر يفعل هذا مرة بعد اخرى ، وشقت جيبها الى ان جاوزت اسفل البطن وهي قائمة ، فنظر الى بطنها فتأملناها ساعة وهي تشتم ابن الساحر ، فقام اليها يترضاها ويسكنها ويعقوب يقول

وابرذوناه فاخذه منه يحيى . وعن المساور قال : كان عندنا بالاهواز رجل متأهل وكانت له ارض بالبصرة وكان في السنة يأتيها مرة او مرتين فتزوج بها امرأة ليس لها الا عم في الدار ، وكان يكثر الانحدار بعد ذلك الى البصرة فانكرت الأهوازية حاله فدست من يعرف خبره ، ثم احتالت وبعثت من اورد خطاً لعم المرأة البصرية وسألت من كتب كتابا من عم البصرية الى زوجها على خطه بان ابنة أخيه توفيت ويسأله القدوم لأخذ ما خلفت ودست الكتاب مع انسان شبيه بالملاح ، فلما أتى بالكتاب خرج اليه فدفع الكتاب ولم يشك ان امرأته البصرية ماتت فقال لامرأته اجعلي لي سفرة ، قالت : ولم ؟ قال : اريد الخروج الى البصرة ، قالت وكم هذه البصرة ؟ قد رابني امرك : وما اشك ان هنالك لك امرأة : فأنكر ذلك ، فقالت : ان كنت صادقاً فاحلف بطلاق كل امرأة لك غيري ، فقال في نفسه : تلك قد ماتت ، وليس علي أن احلف بطلاقها فأرضى هذه ، فحلف لها بطلاق كل امرأة له سوى الأهوازية ، فقالت الاهوازية : يا جارية هات السفرة فقد أغناه الله عن الخروج ، قال ، وما ذلك ؟ قالت : قد طلقت الفاسقة ، وقصت عليه القصة ، فعرف مكرها وأقام .

٣٩ ـ مساوئ مكر النساء

وذكروا أن لقمان بن عاد صاحب لبد خرج يجول في قبائل العرب فنزل بحي من العماليق ، فبينا هو كذلك اذ ظعن القوم فظعن معهم فسمع بامرأة تقول لزوجها : فلان لو حملت سفطي هذا حتى تجاوز به الثنية فان فيه من متاع النساء ما لابد لهن منه ، ولعل البعير يقع فيتكسر وذلك من لقمان بمنظر ومسمع فقال : أفعل ، فاحتمله على عاتقه فلما انحدر وجد بللا في صدره فشمه فاذا هو ريح بول قد جاء من السفط الذي على رأسه ففتح

السفط فاذا هو بغلام قد خرج منه يعدو ، فلما نظر لقمان قال : يا إحدى بنات طبق - وبنات الطبق أن تأتي الحيـة السلحفاة فتلتوي عليها فتبيض بيضة واحدة فتخرج منها حية شبراً أو نحوه لا تضرب شيئاً الا أهلكته - فتبعه لقمان حتى لحقه ، فجاء به يحمله واجتمع الناس اليه وقالوا : يا لقمان احكم فيما ترى فقال : ردوا الغلام في السفط يكون ؛ مثوى حتى يرى ويعلم أن العقاب فيما أتى وتحمله المرأة بفعلها حملوها ما حملت زوجهـا ثم شدوا عليها فان ذلك جزاء مثلها فعمدوا الى الغلام فشدوه في السفط ثم شدوه في عنق المرأه ثم تركوهما حتى ماتا ثم فارقهم لقمان ، فاتى قبيلة أخرى فنزل بهم ، فبينا هو كذلك اذ بصر بامرأة قد قامت عن بنات لها فسألت احداهن أين تذهبين ؟ قالت : الى الخلاء ثم خرجت الى بيوت الحي فعارضها رجل فمضيا جميعاً ولقمان ينظر ، فوقع الرجل عليها وقضى حاجته منها فقالت المرأة : هل لك أن أتماوت على أهلي فانما هو ثلاثة أيام أكون في رجمي ثم تجيء فتستخرجني فنتمتع فقال الرجل : افعلي ؛ وكان اسمه الخلي وزوج المرأة اسمه الشجي فقال لقمان - ويل للشجي من الخلي - فذهبت مثلا فلم تلبث المرأة الا ايام حتى تماوتت على أهلها وكان الميت منهم اذا مات تجعل فوقه الحجارة ولم تكن اذ ذاك قبور ، فلما كان اليوم الثالث جاءها خليلها فأخرجها وانطلق بها الى منزله وتحول الحي من ذلك المكان وخافت المرأة أن تعرف فجزت شعرها وتركت لنفسها جمة ، فبيناهم كذلك اذ خرج بنات المرأة فاذا هن بامرأة جالسة ذات جمة ، فقالت الصغرى : أمي والله قالت الوسطى : صدقت والله قالت المرأة كذبتما ما أنا لكما بأم ، قالت الكبرى ، صدقت والله لقد دفنا أمنا غير ذات جمة ما كان لأمنا الالمة ، قالت الصغرى ، هبك أنكرمت اعلاها أما تعرفين أخراهـا فتعلقت بـه فقالت : صغراهن مراهن فذهبت مثلا ، واجتمع الناس وجاء زوج المرأة فارتفعوا الى لقمان فقالوا احكم بيننا ، فقال لقمان : * عند جهينة الخبر اليقين *

فذهبت مثلا وكان يلقب بجهينة فقال لقمان للمرأة : أخبرك أم تخبريني؟

قالت بل قل ، قال : انك قلت لهذا اني متماوتة على أهلي فاذا دفنوني في رجمي جئت فاستخرجتني وأتنكر لهم فلا يعرفوني فنتنعم ما بقينا ، فاعترفت المرأة فقيل للقمان : احكم بيننا ، قــال ارجموها كما رجمت نفسها ، فحفر لها حفرة وألقوها فيهــا ورجموها ، وكانت أول مرجومة في العرب ، ثم ان زوجها تعلق بالحلي فقال : يا لقمان هذا فراق بيني وبين أهلي فقال لقمان : لكل ذكر أنثى ولكل اول آخر فرق بينك وبين أنثاك ، ونفرق بــين ذكره وبين أنثييه فقطع ذكره فمات

٤٠ ـ محاسن الغيرة

روى انه إذا أغير الرجل في أهله او في بعض مناكحه او مملوكته فلم يغر بعث الله جل اسمه اليه طيراً يقال له : القرقفنة حتى يسقط على عارضة بابه ، ثم يمهله أربعين صباحا يهتف به : إن الله غيور يحب كل غيور ، فان هو تغير وأنكر ذلك والا طار حتى يسقط على رأسه فيخفق بجناحيه على عينيه ثم يطير عنه ، فينزع الله منه روح الايمان ، وتسميه الملائكة الديوث . وقال النبي صلى الله عليه وسلم (باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء فان كانت المعاينة واللقاء كان الداء الذي لا دواء له) وروى ان امرأة ذات عقــل ورأي حملت من فاجر فقيل لها في ذلك فقالت : قرب الوساد وطول السهاد ــ تريد قرب مضجعه منها وطول مسارته اياها ــ وقال صلى الله عليه وسلم (النساء حبائل الشيطان) ، وقال سعيد بن مسلم : لأن يرى حرمتي ألف رجــل على حال تكشف وهي لا تراهم أحب إلي من أن ترى حرمتي رجلا مواجهة وقيل لعقيل بن علفة ألا تزوج بناتك ؟ فقال : أجيعهن فلا يأشرن واعريهن فلا يظهرن ، فوافق احدى كلمتيه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (الصوم وجاء السيئة) ، والأخرى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنــه : استعينوا عليهن بالعري . وغاية اموال الرجال وكسبهم وهمهم وما يملكون إنما

هو مصروف الى النساء ، فلو لم يكن الا ما يعد لهن من الطيب والحلى والكساء والفرش والآنية كان في ذلك ما كفى ، ولو لم يكن الا الاهتمام بالحفظ والحراسة وخوف العار من خيانتهن والجناية عليهن لكان في ذلك المئونة العظيمة والمشقة الشديدة غير أن أولي الاشياء بالرجال حفظهن وحراستهن ، فليس شيء لهن أصلح من مباعدتهن عن الرجال وقمعهن بالعري والجوع ، ومن حق الملوك أن لا يرفع أحد من خاصتها وبطانتها رأسه الى حرمة لها صغرت أم كبرت ، فكم من فيل وطىء هامة عظيم وبطنه حتى بدت أمعاؤه ؟ وكم من شريف وعزيز قوم قد مزقته السباع ونهشته ؟ وكم من جارية كريمة على قومها عزيزة في أهلها وقد أكلها حيتان البحر وطير الماء ؟ وكم من جمجمة كانت تصان وتعل بالمسك والبان قد ألقيت بالعراء وغيبت جثتها في الثرى بسبب الحرم والخدم والغلمان ، ولم يأت الشيطان أحداً قط من باب حتى يراه بحيث من يهوى مستقيم اللحم والأعضاء هو أبلغ من مكيدته وأخرى ان يرى فيه أمنية من هذا الباب اذ كان من ألطف مكايده وأدق وساوسه وأجل تزايينه . وقيل لابنة الخس لم زنيت بعبدك ولم تزن بحر ؟ قالت : طول السهاد وقرب الوساد . وقيل : لو أن أقبح الناس وجها ، وأنتنهم رائحة ، وأظهرهم فقراً وأسقطهم نفسا ، وأوضعهم حسبا قال لامرأة تمكن من كلامها ومكنته من سمعها : والله يا مولاتي لقد أسهرت ليلي ، وأرقت عيني ، وشغلتني عن مهم أمري ، فما اعقل أهلا ولا ولداً ولو كانت ابرع الناس جمالا ، واكملهم كمالا ، واملحهم ملاحة ، وان كانت عينه تدمع بذلك ، ثم كانت تكون مثل أم الدرداء ، أو معاذة العدوية ، أو رابعة القيسية لمالت اليه وأحبته . ومنها قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اضربوهن بالعري ، فان النساء يخرجن الى الأعراس ، ويقمن في المناحات ، ويظهرن في الاعياد ، ومتى كثر خروجهن لم يعد بد أن يرين من هو شكلهن ولو كان بعلهن أتم حسنا وأحسن وجها والذي رأت أنقص حسنا ، ولكان ما لا تملكه أظرف عندها مما تملكه ، ولكان

ما لم تملكه أو تستكثر منه أشد لها اشتغالا واجتذابا قال الشاعر :

وَلِلعَيْنِ مَلْهىً بالنِّساء وَلَمْ يَقُدْ
هَوَى النَّفْسِ شَيْءٌ كَاقْتِيَادِ الطَّرَائِفِ

وكانت الأكاسرة إذا امتحنت الخاصة من أصحابها وخف الواحد عنهم على قلب الملك ، وكان الرجل عالماً بالحكمة موضعاً للامانة في الدماء والفروج والأموال على ظاهره ، فيأمره أن يتحول إلى منزله ، وان تفرغ اليه حجرة ، وان لا يتحول اليه بامرأة ولا جارية ولا حرمة ويقول له : أريد بك الانس في ليلي ونهاري ، وكان معك بعض حرمك قطعك عني فاجعل منصرفك إلى منزلك في كل خمس ليال ، فاذا تحول الرجل أنس به وخلا معه وكان آخر من ينصرف من عنده فيتركه على هذه الحالة أشهراً . امتحن ابرويز رجلا من خاصته بهذه المحنة ثم دس اليه جارية من بعض جواريه ووجه معها اليه بألطاف وهدايا ، وامرها ان لا تقعد عنده في اول مرة فأتته بألطاف الملك وقامت بين يديه ، ولم تلبث أن انصرفت حتى إذا كانت المرة الثانية أمرها ان تقعد هنيهة وان تبدي عن محاسنها حتى يتأملها ففعلت ، ولاحظها الرجل وتأملها ، وجعل الرجل يحد النظر اليها ويسر بمحادثتها ، ومن شأن النفس أن تطلب بعد ذلك الغرض من هذه المطايبة ، فلما أبدى ما عنده قالت : اخاف ان يعثر علينا ولكن دعني حتى أدبر في هذا ما يتم به الأمر بيننا ، ثم انصرفت فأخبرت الملك بذلك وبكل شيء جرى بينهما ، فلما كانت المرة الثالثة امرها ان تطيل القعود عنده وان تحدثه وان أرادها على الزيادة في المحادثة أجابته اليه ففعلت ، ووجه اليه أخرى من خواص جواريه وثقاتهن بالطافه وهداياه فلما جاءت قال لها : ما فعلت فلانة ؟ قالت : اعتلت فاربد لون الرجل ، ثم لم تطل القعود عنده كما فعلت الاولى ، ثم عاودته فقعدت

أكثر من المقدار الاول وأبدت بعض محاسنها حتى تأملهـــا ، وعاودته في المرة الثالثة وأطالت القعود والمضاحكة والمهازلة فدعاها الى ما في تركيب النفس من الشهوة فقالت : انا من الملك عـــلى خطأ يسيرة ومعه في دار واحدة ، ولكن الملك يمضي بعد ثلاث الى بستانه الذي بموضع كذا فيقيم هناك ، فان أرادك على الذهاب معه فأظهر أنك عليل وتمارض ، فان خيرك بين الأنصراف الى نسائك أو المقام ههنا فاختر المقام وأخبره أنك لا تقدر على الحركة ، فان أجابك الى ذلك جئت من أول الليل فأكون معك الى آخره ، فسكن الرقيع الى قولهـــا ، وانصرفت الجارية فأخبرت الملك بكل ما دار بينهما ، فلما كان الوقت الذي وعدته أن يخرج الملك فيه دعاه الملك فقال للرسول : أخبره أني عليل ، فلما جاءه الرسول وأخبره تبسم وقال هذا أول الشر ؛ فوجه اليه محفة يحمل فيها فأتاه وهو معصب ، فلما بصر به قال : والمحفة الشر الثاني فبين العصابة فقال : والعصابة الشر الثالث ، فلما دنا من الملك سجد فقال له : متى حدثت بك هذه العلة ؟ قال هـــذه الليلة قال : فأي الامرين أحب اليك الانصراف الى نسائك لتمريضك أم المقام ههنا لوقت رجوعي ؟ قـــال المقام ههنا أيها الملك أوفق لقلة الحركـــة ، فتبسم أبرويز وقـــال حركتك ههنا ان تركت اكثر من حركتك في منزلك ، ثم أمر له بعصا الزناة التي كان يوسم بها من زني فأيقن الرجل بالشر وأمر أن يكتب مـــا كان من أمره حرفـــاً حرفاً فيقرأ عـــلى الناس إذا حضروا ؛ وان ينفى الى اقصى مملكته ، وتجعل العصا في رأس رمح يكون معـــه حيث كان ليحذر من يعرفـــه منه ، فلمـــا خرج الرجل من المدائن متوجهاً به نحو فارس أخـــذ مدية كانت مع بعض الموكلين به فجب بها ذكره وقال : من اطاع عضواً صغيراً من اعضائه أفسد عليه جميع اعضائه فمات من ساعته . وفيما يذكر عن أنوشروان انه اتهم رجلا من خاصته في بعض حرمه فـلم يدر كيف يقتله ؟ لا هو وجـد أمراً ظاهراً يحكم بمثله الحاكم فيسفك به دمه ، ولا قـــدر على

كشف ذنبه لما في ذلك من الهوان على الملك والمملكة ، ولا وجد عذراً لنفسه في قتله غيلة اذ لم يكن في شرائع دينهم ووراثة سلفهم فدعا الرجل بعد جنايته بسنة في خلوة فقال : قد حزبني أمر من أسرار ملك الروم وبي حاجة الى علمها . وما أجدني اسكن الى أحد سكوني اليك اذ حللت من قلبي المحل الذي انت به ، وقد رأيت ان تحمل لي مالا الى هناك للتجارة وتدخل بلاد الروم فتقيم بها ، فاذا بعت ما معك حملت مما في بلادهم من تجاراتهم واقبلت الي وفي خلال ذلك تصغي الى اخبارهم وتطلع الي ما بنا الحاجة الى معرفته من امورهم واسرارهم فقال : افعل ايها الملك وارجو ان ابلغ في ذلك محبة الملك ورضاه فأمر له بمال وتجهز الرجل وخرج بتجارته ، فأقام في بلاد الروم حتى باع واشترى ، وفهم من كلامهم ولغاتهم ما عرف به مخاطباتهم وبعض اسرار ملكهم ، وانصرف الى أنوشروان بذلك فأراه الايثار به وزاد في بره ورده الى بلادهم وامره بالمقام والتربص بتجارته ، ففعل حتى عرف واستفاض ذكره فلم تزل تلك حاله ست سنين ، حتى اذا كانت السنة السابعة امر الملك ان تصور صورة الرجل في جام من جاماته التي يشرب فيها ، وتجعل صورته بازاء صورة انوشروان ، ويجعل مخاطباً لأنوشروان ومشيرا عليه واليه ، ويدني رأسه من رأس الملك في تلك الصورة كأنه يساره ثم وهب ذلك الجام لبعض خدمه وقال : ان الملوك يرغبون في مثل هذا الجام ، فاذا اردت بيعه فادفعه الى فلان اذا خرج نحو بلاد الروم بتجارته وقل له : يبيعه من الملك نفسه فانه ينفعك ، فان لم يمكنه بيعه من الملك باعه من وزيره او بعض خاصته فجاء غلام الملك بالجام وقد وضع الرجل رجله في الركاب فسأله ان يبيع جامه من الملك وان يتخذ عنده بذلك يدا وكان الملك يعز ذلك الغلام ، وكان من خاصة غلمانه وصاحب شرابه فأجابه الى ذلك ، وامر بدفع الجام الى صاحب خزانته وقال : احفظه ، فاذا صرت الى باب الملك فليكن مما اعرضه عليه ، فلما صار الى باب الملك دفع صاحب الخزانة اليه

الجام فعرضه على الملك فيما عرض عليه ، فلما وقع الجام في يد الملك نظر اليه ونظر الى صورة أنوشروان فيه والى صورة الرجـــل وتركيبه عضواً عضواً وجارحة جارحة فقال للرجل : أخبرني هل يصور مع صورة الملك رجـــل خسيس ؟ قال : لا قال : فهل تصور في آنية الملك صورة لا أصل لها ولا علة؟ قال : لا قال : فهل في دار الملك اثنان يتشابهان في صورة واحدة حتى يكون هذا كأنه ذاك في الصورة وكلاهما نديما الملك ؟ قال : لا أعرفه قال له : قم قائماً فقام فوجد صورته في الجام فقال له أدبر فأدبر ، فتأمل صورته في الجام فوجدهمـــا بحكاية واحدة ، فضحك ولم يجسر الرجل أن يسأله عـــن سبب ضحكه اجلالا له واعظاما فقال ملك الروم : الشاة أعقل مـــن الانسان اذ كانت تخفي مديتها وتدفنها وإنما أهديت الينا مديتك بيدك فقال للرجل تغديت ؟ قال لا : قال قربوا له طعاما قال : أيها الملك أنا عبد والعبد لا يأكل بحضرة الملك قال الملك : أنت عبد ما دمت عند ملك الروم مطلعاً على أموره متتبعاً لأسراره ملك اذا قدمت بلاد فارس ونديم ملكها أطعموه فأطعم وسقى الخمر حتى اذا ثمل قال من سير ملوكنا ان لا نقتل الجاسوس الا في أعلى موضع نقدر عليه ولا نقتله جائعاً ولا عطشانا فأمر به فأصعد الى سطح كان يشرف منه على كل من كان في المدينة اذا صعد فضربت عنقه هناك ، وألقيت جثته من ذلك السطح ، ونصب رأسه للناس ، فلما بلغ ذلك كسرى أمر صاحب الجرس ان يضرب بأجراس الذهب ويمر على دور نساء الملك وجواريه ويقول : كل نفس ذائقة الموت كل أحد اذا وجب عليه القتل ففي الارض يقتل الا من تعرض لحرمة الملك فانه يقتل في السماء ، فلم يدر أحد من اهل المملكة ما أراد به حتى مات .

(ومثله من أخبار العرب) ذكروا أنه كان لطسم وجديس ملك يقال يقال له عمليق ظلوم غشوم ، وكانت لانزف جارية الى زوجهـا إلا بدءوا بها فافترعها وردها الى بعلها ، ثم أن رجلا من جديس تزوج غفيرة بنت غفار عظيم جديس ورئيسها ، فلما أرادوا أن يهدوهـا اليه بدءوا بها عمليق

فادخلوها عليه معها و القيان يتغنين ويضربن بالدفوف ويقلن :

إِبدِي بعِمْليقَ ومعْهُ فارْكَبي　　وبادِرِي الصُّبحَ بأمرٍ مُعجِبِ

فسوْفَ تَلْقيْنَ الذِي لم تطلبي　　ولمْ يَكنْ مِنْ دونهِ مِنْ مَذْهَبِ

فجعلت تقول وهي تزف :

ما أحدٌ أذَلُّ مِن جَدِيس　　أهكذَا يُفعَلُ بالعَرُوسِ

يَرْضَى بهذَا يا لَقَوْمِي حُرٌّ　　مِنْ بَعْدِ ما أهدَى وَسِيقَ المَهْرُ؟!

لَأَنْ يُلاقِي المرْءُ موْتَ نفْسهِ　　خَيْرٌ لهُ مِن فِعْلِ ذَا بِعِرْسِهِ

فلما دخلت عليه افترعها ، ثم خلى سبيلها فخرجت ووقفت على أخيها الاسود بن غفار وهو قاعد في نادي قومه وقد رفعت ثوبها عن عورتها وأنشأت تقول :

أيصلحُ ما يُؤتي إلى فَتياتكمْ　　وأنتمْ رجالٌ كثْرةً عددَ الرَّمْلِ

وتَرْضوْنَ هذَا يا لقومي لأُخْتِكُمْ　　عَشيَّةَ زُفّتْ في النِّساءِ إلى البَعلِ

فإنْ أنتمُ لمْ تَغضَبوا بعدَ هذِهِ　　فكونوا نساءً في المَنازِلِ والحَجْلِ

ودونكُمُ طِيبَ النِّساءِ وإنّما　　خُلِقتُمْ جميعاً للتَّزَيُّنِ والكُحْلِ

فلوْ أنّنا كنّا رِجالاً وكنتُمُ　　نِساءً لكُنّا لا نُقيمُ على ذَحْلِ

فقُبْحاً لبَعلٍ ليسَ فيهِ حَمِيَّةٌ　　ويَخْتالُ يَمْشي بيننا مِشْيَةَ الفَحْلِ

فموتوا كِراماً أو أصيبوا عدُوَّكُمْ

بِداهيَةٍ تُورِي ضِراماً منَ الجَزْلِ

وإلاّ فخَلُّوا دارَكُمْ وتَرَحَّلوا إلى بَلَدٍ قَفْرٍ خَلاءٍ منَ الأهلِ
ولا تَخرُجوا للحَرْبِ ياقومْ إنَّها تَقُومُ بأقوامٍ شِدَادٍ على رجلِ
فيهلِكُ فيها كلٌّ وَغْدٍ مُواكلٍ ويسلَمُ فيها ذُوالطِّعانِ وذوالقَتْلِ

فلما سمعت جديس شعرها أنفت انفاً شديداً وأخذتهم الحمية فتآمروا بينهم وعزموا على اغتيال الملك وجنوده فقالوا : ان نحن بادهناهم بالحرب لم نقو عليهم لكثرة جندهم وأنصارهم فاتفقوا على ذلك ، ثم ان الاسود أتى الملك فقال : إني أحب أن تجعل غداءك عندي أنت وجنودك ، فقال عمليق : ان عدد القوم كثير وأحسب أن البيوت لا تسعهم فقال الأسود : فنخرج لهم الطعام الى بطن الوادي فقـــال لقومه : اذا اشتغل القوم بالاكل فسلوها سيوفكم واعملوا على ان تحملوا حملة رجل واحـــد واقتلوهم عن آخرهم ، وهيأ الاسود ما احتاج اليه من الطعام ، وجاء الملك فلما أكب القوم على الأكل بادرت جديس الى سيوفهم ، ثم حملت على الملك وعلى جنوده والاسود يرتجز ويقول :

يا صُبْحةً ياصُبْحةَ العَرُوسِ حتّى تَمَشّتْ بـدَمٍ جميسِ
ياطَسْمُ مالقيْتِ مِنْ جَدِيسِ هَلَكْتِ ياطَسْمُ فهيسي هِيسي

فقتلوه وجنوده جميعاً . ومثله الفطيون ملك تهامة والحجاز ، فانه سلك مسلك عمليق في ملك طسم وجديس في أمر النساء ، فأمر ان لا تزف من اليهود في مملكته امرأة الا بدءوه بها فلبث على ذلك عدة أحوال حتى زوجت امرأة من اليهود من ابن عم لها ، وكانت ذات جمال رائع ، وكانت أخت مالك بن عجلان من الرضاعة ، فلما أراد أن يهدوها الى زوجها خرجت الى نادى الاوس والخزرج رافعة ثوبها الى سرتها ، فقام اليها مالك بن العجلان فقال : ويحك وما دهاك ؟ فقالت : وما يكون من الداهية اعظم من

ان ينطلق بي الى غير بعلي بعد ساعة ، فأنف من ذلك أنفا شديداً فدعا ببزة امرأة فلبسها ، فلما انطلقوا بالمرأة الى الفطيون صار كواحدة من نسائها اللواتي ينطلقن بها متشبها بامرأة ، وقد اعد سكينا في خفه ، فلما دخلت المرأة على الفطيون مال مالك الى خزانة في ذلك البيت فدخلها فلما خرج النساء ودخلت المرأة قام اليها ليفترعها فخرج اليه مالك بالسكين فوجأه فقتله ثم قال لليهود : دونكم جنوده فاقتلوهم فاجتمعت عليهم فقتلوهم عن آخرهم .

[ومنه أخبار وأمثال] ذكروا أن أول من قال (العجب كل العجب بين جمادي ورجب) عاصم بن المقشعر الضبي ، وذلك الخنيفس بن خشرم كان أغير أهل زمانه وأشجعهم ، وكان لعاصم أخ يقال له عبيدة عزيز في قومه فهوي امرأة كانت تأتي الخنيفس فبلغ الخنيفس ذلك فتواعده عبيدة وركب الخنيفس فرسه وأخذ رمحه وانطلق يتربص عبيدة حتى وقف على ممره وأقبل عبيدة وقد قضى من المرأة وطراً وهو يقول :

ألا انَّ الخُنَيْفِسَ فاعْلَمُوهُ	كما سمَّاهُ والِدُه لعِينُ
بَهِيمُ اللَّونِ مُحتَقَرٌ ضَئِيلٌ	لَئيماتٌ خَلائقُهُ ضَنِينُ
أيُوعِدُني الخُنَيْفِسُ مِنْ بعِيدٍ	ولما يَلْقَ مَأْبَضَهُ الوَتِينُ
لَهَوْتُ بجارَتِيهِ وحادَ عنِّي	ويَزْعُمُ أنَّهُ أنِفٌ شَفُونُ

فعارضه الخنيفس وهو يقول :

أيابنَ المُقْشعِرِّ لقيتَ لَيثاً	لهُ في جوفِ أيْكَتهِ عرِينُ
تقولُ لهُ صَدَدْتَ حِذارَ حَينٍ	وأنَّكَ نَشْوَ أبْطالٍ مُبِينُ
وأنَّكَ قدْ لَهوْتَ بجارَتينا	فهاكَ عُبَيدَ لاقاكَ القَرِينُ

سَتَعلَمْ أيُّنــا أحْمى ذِماراً　　إذا قَصُرَتْ شِمالكَ واليَمينُ
لَهوْتَ بهـا لقدْ أُبدِلتَ قَبْراً　　وباكِيةً عليـكَ لها رنـينُ

فقال عبيدة أذكرك الله وحرمة خشرم فقال والله لأقتلنك فقتله ، فلما بلغ أخاه عاصماً خرج اليه ولبس أطماراً وركب فرسه وكان في آخر يوم من جمـادى ، فأقبل يبادر دخول رجب لأنهم كانوا لا يقتلون في رجب أحداً ، فانطلق حتى وقف بباب خنيفس ليلا وقـال : أجب المرهوق قال : وما ذاك ؟ قال : العجب كل العجب بين جمـادى ورجب ، واني رجل من ضبة غصب أخ لي امرأة فخرج يستنقذها فقتل وقد عجزت عن قاتله ، فخرج الخنيفس مغضباً وأخذ رمحه وركب معه ، فلما نحن به عن قومه دنا منه فقنعه بالسيف فأبان رأسه . ويقال ان أول من قال (سبق السيف العذل) ضمضم ابن عمرو اللخمي كان يهوى امرأة فطلبها بكل حيلة فأبت عليه وطلبها عزيز بن عبيد بن ضمضمة فأتته وتأبت على ضمضم ، وكان ضمضم من أشد قومـه بأساً فاغتاظ لذلك ليلة وهو متقلد سيفه حتى صار بمكان يراهما اذا اجتمعا ولا يريانه ، فلما نام الناس وطال هدو ضمضم اذا العزيز قد أقبل على فرسه وهو يقول :

أمـامَ توَليني وتأبى بنفسِهـا　　علىضَمْضَمٍ تَعساً ورَغماً لضَمْضَمِ

وضمضم يسمع فنزل وربط فرسه ومشى الى ناحية خبائها فصدح صدوح الهام وكان آية ما بينهما ، فخرجت اليه فعانقها وضمضم ينظر ثم واقعها ، فلما رآها مشى اليهما بالسيف وهو يقول :

ستعلمُ أني لستُ أعشَقُ مُبغِضاً　　فكانَ بنا عنها وعنكَ عَزَاءُ

وقتله ، فعـلم القوم بضمضم فأخذوه . فلما أصبـح أبرز الى النادي

ليقتل ، فجعلوا يلومونه على قتله ابن عمه فقال : سبق السيف العذل . ويقال ان أول من قال (خير قليل وفضحت نفسي) فائرة امرأة مرة الاسدي ، وكانت من أجمل النساء في زمانها ، وكان زوجها غاب عنها أعواما فهويت عبدا له حبشيا يرعى ابلها فامرته ان يحضر مضجعها وكان زوجها منصرفا قد نزل تلك الليلة منها على مسيرة يوم ، فبينا هو يطعم ومعه أصحابه اذ نعق غراب فأخبره ان امرأته لم تعهر قط ولا تعهر الا تلك الليلة ، فركب فرسه ومر مسرعا وهو يرجو ان هو منعها تلك الليلة امنها فيما بقى فانتهى اليها حين قام العبد عنها وندمت وهي تقول : خير قليل وفضحت نفسي ، فسمعها زوجها وهو يرعد لما به من الغيظ فقالت له : ما يرعدك فقال يعلمها أنــه قد علم : خير قليل وفضحت نفسي ، فشهقت شهقة خرت ميتة ، فقتــل زوجها العبد وجعل يقول :

لَعَمْرُكِ ما تعتادُني مِنكِ لوْعةٌ ولا أنا مِنْ وَجدٍ بذِكراكِ أسْهدُ

قيل : وكانت هند بنت عتبة تحت الفاكه بن المغيرة المخزومي ، وكان الفاكه من فتيان قريش ، وكان له بيت ضيافة يغشاه الناس من غير إذن ، فخلا ذلك البيت يوما فضجع الفاكه ، وهند فيه ، فخرج الفاكه لبعض حوائجه وأقبل رجل ممن كان يغشى ذلك البيت فولجه ، فلما رأى المرأة ولى هاربا فرآه الفاكه وهو خارج من البيت فاقبل الى هند فضربها برجله وقال : من هذا الرجل الذي خرج من عندك ؟ قالت : ما رأيت أحدا ولا انتبهت حتى نبهتني فقال لها : الحقي بأهلك فتكلم الناس فيها فقال لها ابوها يا بنية ان الناس قد أكثروا فيك فاصدقيني ، فان كان الرجل في قوله صادقاً سببت له من يقتله فتنقطع عنك القالة ، وان كان كاذبا حاكمته الى بعض كهــان اليمن فحلفت له بما يحلفون به في الجاهلية انه لكاذب فقال عتبة للفاكه : يا هذا انك قد زميت ابنتي بأمر عظيم فحاكمني الى بعض كهان اليمن ، فخرج عتبة في جماعة من بني عبد مناف وخرج فاكه في جماعة من بني مخزوم . وأخرجوا

معهم هندا ونسوة معها ، فلما شارفوا البلاد قالوا : غدا نود على الكاهن فتغير لون هند فقال لها ابوها : اني ارى ما بك فهلا كان هذا قبل خروجنا قالت لا والله يا ابتاه ما ذلك لمكروه ، ولكـــن ستأتي بشرا يخطىء ويصيب فلا نأمن ان يسومني مما يكون فيه سبة على باقي عمري قـــال : اني سوف اختبره قبل ان ينظر في أمرك فأخذ حبة من حنطة فأدخلها في إحليل فرسه وأوكى عليها بسير ، فلما دخلوا على الكاهن قال له عتبة ما كان مني في طريقي قال : ثمرة في كمرة قال : أحتاج الى ابين من هذا قال : حبة بر في احليل مهر قال : صدقت ، فما بال حال هؤلاء النسوة؟ فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بمنكبها حتى أتى الى هند فضرب بمنكبها وقال : انهضي غير رسحاء ولا فاحشة ولتلدين ملكا يقـــال له معاوية ، فوثب اليها الفاكه فأخذ بيدها فنزعت يدها من يده وقالت : اليك عني ! والله لأجهدن ان يكون ذلك من غيرك : فتزوجها أبو سفيان بن حرب فجاءت بمعاوية . قيل وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعس بنفسه فسمع امرأة تقول :

أَلاَ سبيلٌ إلى خمرٍ فأشرَبها ... أم هل سبيلٌ إلى نصرِ بنِ حجّاجِ

إلى فتىً ماجدِ الأخلاقِ ذِي كَرمٍ ... سَهْلِ الُمحيَّا كَرِيمٍ غيرِ مِلجاجِ

فقال عمر : أما ما دام عمر إماماً فلا ، فلما أصبح قال : علي بنصر بن الحجاج فأتى به فاذا هو رجل جميل ، فقال : اخرج من المدينة ، قال : ولم وما ذنبي ؟ قال : اخرج فوالله ما تساكنني ، فخرج حتى أتى البصرة وكتب إلى عمر رضي الله عنه :

لعَمْرِي لئنْ سَيَّرْتني وحرمتَني ... ولمْ آتِ اثمًا إنَّ ذا لَحرَامُ

ومالِيَ ذنبٌ غيرَ ظَنٍّ ظَننْتُه ... وبعضُ تَصادِيقِ الظُّنونِ إِثامُ

وإنْ غَنَّتِ الذَّلفاء يوْماً بمُنْيَةٍ　　فبعضُ أمَانِيِّ النِّساء غَرامُ

فظُنَّ بيَ الظنَّ الذي لوْ أتيْتَهُ　　لَما كانَ لي في الصَّالِحينَ مُقامُ

ويَمْنعُني مِمَّا تمنَّتْ حَفيظتي　　وآباءُ صِدْقٍ سالفونَ كِرَامُ

ويَمْنعُها مِمَّا تَمَنَّتْ صَلاتُها　　وبيتٌ لها في قوْمِها وصِيامُ

فهذَانِ حالانَا فهلْ أنتَ مُرْجعي

فقدْ جُبَّ منِّي غارِبٌ وسَنَامُ

قال : فرده عمر بعد ذلك لما وصف من عفته . ويروى أيضاً أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه كان يعس بالمدينة ذات ليلة إذ سمع امرأة تهتف وتقول :

تطَاوَلَ هذَا اللَّيلُ واسوَدَّ جانبهْ　　وأرَّقني إذْ لا خَليلَ أُلاعِبُه

فوالله لوْلا اللهُ لا رَبَّ غيرُهُ　　لزُعزِعَ منْ هذَا السَّريرِ جوَانِبُه

ولَكِنَّ رَبي والحياءُ يَكُفُّني　　وأُكْرِمُ بعلي إن تُوطَا مَراكِبُه

قال : فرجع عمر الى منزله فسأل عن المرأة فاذا زوجها غائب فسأل ابنته حفصة كم تصبر المرأة عن الرجل ؟ فسكتت واستحيت وأطرقت فقال : أربعة أشهر خمسة أشهر ستة أشهر ؟ فرفعت طرفها تعلم أنها لا تصبر أكثر من ستة أشهر ، فكتب الى صاحب الجيش أن يقفل من الغزو الرجال إذا أتت ستة اشهر إلى أهاليهم . وغزا رجل من الانصار وله جار يهودي فأتى امرأته واستلقى ذات ليلة على ظهره وأنشأ يقول :

وأشعَثَ غرَّهُ الإسلامُ منِّي　　خَلوْتُ بعِرْسهِ ليلَ التَّمامِ

أبيتُ على ترائبها ويُضحى   على جَرْداءَ لاحِقةِ الحِزامِ

فسمع ذلك جار له فضربه بالسيف حتى قطعه ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : أنشد الله رجلا كان عنده من هذا علم الا قام . فقام الرجل فحدثه ، فقال : أحسنت أحسنت ، وتمام الابيات :

كأنَّ مَجامِعَ الرَّبلاتِ منها   فِئامٌ قدْ جُمِعْنَ إلى فِئامِ

[ومنه اخبار العرب] قيل : لما خرج امرؤ القيس بن جحدر الى قيصر ملك الروم ليسأله النصرة على بني اسد لقتلهم اباه جحدر بن الحارث راسل بنت قيصر ، وأراد أن يخدعها عن نفسها وبلغ ذلك قيصر وأراد أن يقتله فتذمم من ذلك وأمر بقميص فغمس في السم وقال لامرىء القيس : البس هذا القميص فاني أحببت ان اوثرك به على نفسي لحسنه وبهائه فعمل السم فمد جسمه وكثرت فيه القروح فمات منها فسمي ذا القروح ، وقد كان قيل لقيصر قبل ذلك انه هجاه فعندها يقول :

ظَلمْتُ لهُ نفسي بأنْ جئتُ راغباً   إليهِ وقدْ سيَّرْتُ فيهِ القَوافيا
فإنْ أكُ مَظلوماً فقدْماً ظَلمْتهُ   وبالصاعِ يُجزَى مِثْلَ ما قدْ جَزانيا

قيل : وكان النابغة يشبب بالمتجردة امرأة النعمان بن المنذر وكانت أكمل أهل عصرها جمالا فبلغ ذلك النعمان فهم بقتل النابغة فهرب منه وسار حتى أتى الشام والملك بها جبلة بن الأيهم الغساني ، فنزل عليه وأقام عنده ، وكتب الى النعمان :

حَلَفْتُ ولمْ أتْرُكْ لنفْسِكَ رِيبَةً   وليسَ وراءَ اللهِ للمَرءِ مَذْهَبُ

لئنْ كنتَ قدْ بُلِّغتَ عنّي خيانةً لَمُبْلِغُكَ الواشي أغشُّ وأكْذَبُ

قيل . وكانت امرأة شداد أبي عنترة ذكرت له أن عنترة أرادها عن نفسها فاخذه أبوه فضربه ضرب التلف ، فقامت المرأة فألقت نفسها عليه لما رأت ما به من الجراحات وبكته وكان اسمها سمية فقال عنترة :

أمنْ سُمَيَّة دَمْعُ العَيْنِ مَذْرُوفُ لو كانَ ذا مِنْكِ قبلَ اليومْ معْرُوفُ

كأنَّها يومَ صدَّتْ ما تُكلّمُنا ظبيٌ بعُسْفانَ ساجي العينِ مطرُوفُ

قامَتْ تُجَلِّلني لمَّا هوَى قَبلي كأنها صنَمٌ يعتادُ معْكُوفُ

المالُ مالكُمُ والعبْدُ عَبْدُكُمُ فهَلْ عَذَابُكِ عنّي اليومْ مَصْرُوفُ

قيل . ولما أنشد عبد الحسحاس عمر بن الخطاب رضي الله عنه قصيدته التي يقول فيها :

تُوَسِّدُني كفاً وتَمْضي بِمِعْصَمٍ عليَّ وتنحو رِجْلها منْ وَرائيا

فما زالَ بُرْدِي طَيِّباً منْ ثِيابِها إلى الحوْلِ حتَّى أَنْهَجَ البُرْدُ باليا

وَهبَّتْ لنَا ريحُ الشَّمالِ بقوَّةٍ ولا بُرْدَ إلا دِرْعُها ورِدائيا

أميلُ بها مَيلَ الرَّدِيفِ وأتَّقي بها الرِّيحَ والشفَّانَ منْ عن شِمالِيا

رأتْ قَتَباً رَثّاً وأخلاقَ شَمْلةٍ وأسودَ مِمَّا يلبسُ النَّاسُ عاريا

تَجَمَّعْنَ شَتَّى منْ ثلاثٍ وأربعٍ وواحِدَةٍ حتى كَمَلْنَ ثَمانيا

سُلَيْمى وسَلْمَى والرَّبابُ وتِرْبُها وأرْوَى ورَيّا والمُنَى وقطَامِيا

وأقبَلْنَ منْ أقصَى البلادِ يعُدْنني ألاَ إنَّما بعضُ العوائِدِ دائيا

قال عمر رضى الله عنه أنت مقتول فلما قال :

ولقدْ تَحَدَّرَ منْ كَريمـةِ مَعشَرٍ　　عرَقٌ على مَتْنِ الفِراشِ وطِيبُ

وجدوه شارباً ثملا فعرضوا عليه نسوة حتى مرت به التي يطلبونها فأهوى اليها فقتلوه .

٤١ ـ مساوي شدة الغيرة والعقوبة عليها

حكي عن سليمان بن عبد الملك أنـــه كان في بعض أسفاره فسمر معه قوم ، فلما تفرقوا عنه دعا بوضوء فجاءت به جارية ، فبينا هي تصب الماء على يده إذ استمدها وأشار اليها مرتين أو ثلاثا فلم تصب عليه ، فأنكر ذلك ورفع رأسه فاذا هي مصغية بسمعها مائلة بجسدها إلى صوت غناء من ناحية العسكر ، فأمرها فتنحت فسمع الصوت فاذا رجل يغني فانصت له حتى فهم ما غنى ، فدعا بجارية غيرها فتوضأ ، فلمـا أصبح أذن للناس فأجرى ذكر الغناء فلم يزل يخوض فيه حتى ظن القوم انـــه يشتهيه ؛ فأفاضوا فيه وذكروا ما جاء في الغناء والتسهيل لمن سمعه وذكروا من كان يسمعه من سروات الناس ، فقال : هل بقي احد يسمع منه ؟ فقال رجل من القوم : عندي رجلان من أهل الأيلة محكمان قال : فـاين منزلك من العسكر ؟ فأومأ الى ناحية الغناء فقال سليمان : ابعث اليهما ففعل فوجد الرسول أحدهما وأقبل به وكان اسمه سمير ، فسأله عن الغناء وكيف هو فيه قال : محكم قال: متى عهدك به ؟ قال : البارحة قال : وفي أي النواحي كنت ؟ فذكر الناحية التي سمع منها الصوت قال : وما اسم صاحبك ؟ قال : سنان قال : فأقبل سليمان على القوم فقال : هدر الفحل فضبعت الناقة ، ونب التيس فشكرت الشاة ، وهدل الحمام فزافت الحمامة ، وغنى الرجل فطربت المرأة ، ثم أمر به فخصي وسأل عن الغناء أين أصله ؟ قالوا : بالمدينة وهم المخنثون ، فكتب إلى

عامله أن اخص من قبلك من المخنثين . وحدث الأصمعي ان الشعر الذي سمعه سليمان يتغنى به هو :

مَحْجُوبةٌ سَمِعَتْ صَوتي فأرَّقَها ... مِنْ آخرِ اللَّيلِ لما بَلهـا السَّحَرُ
تُدْني على الخَدِّ منها من مُعَصْفَرَةٍ ... والحَلْيُ بادٍ على لبَّاتِها خَصِرُ
في ليلةِ البَدْرِ ما يَدْرِي مُضاجِعُها ... أوجهُها عندَهُ أبْهَى أم القَمَرُ
لمْ يَمنَعِ الصوتَ أبوابٌ ولا حَرَسٌ ... فدَمعُها لِطُرُوقِ اللَّحْنِ يَنْحَدِرُ
لو تستَطيعُ مَشَتْ نَحوي على قدمٍ ... تكَادُ من رِقَّةٍ لِلْمَشي تَنفَطِرُ

ثم دخل سليمان مضرب الخدم فوجد جارية على هذه الصفة قاعدة تبكي ، فوجه إلى سنان فاحضره ، ووجهت الجارية رسولا الى سنان يحذره وجعلت للرسول عشرة آلاف درهم ان سبق رسول سليمان فلما حضر أنشأ يقول :

اسْتَبْقني إلى الصَّباحِ أعْتذِرْ ... إِنَّ لساني بالشَّرابِ مُنكَسِرْ
فأرْسِل المَعْروفَ في قَوْمٍ نُكُرْ

فأمر به ، فخصي وكان بعد ذلك يسمى الخصي . وعن علي بن يقطين قال كنت عند موسى الهادي ذات ليلة مع جماعة من أصحابه اذا أتاه خادم فساره بشيء فنهض سريعا فقال : لا تبرحوا ، فمضى فأبطأ ، ثم جاء وهو يتنفس ساعة حتى استراح ومعه خادم يحمل طبقاً مغطى بمنديل فقام بين يده ، فأقبل يرعد وعجبنا من ذلك ثم جلس وقال للخادم ، ضع ما معك فوضع الطبق وقال : ارفع المنديل فرفعه فاذا على الطبق رأسا جاريتين لم ار والله أحسن من وجهيهما قط ولا من شعورهما فاذا على رأسيهما الجوهر

منظوم على الشعر واذا رائحة طيبة تفوح فأعظمنا ذلك فقال : أتدرون ما شأنها ؟ قلنا : لا ، قال بلغني أنهما تحابا فوكلت هذا الخادم بهما لينهي الي أخبارهما فجاءني وأخبرني أنهما قد اجتمعتا فجئت فوجدتهما كذلك في لحاف فقتلتهما ثم قال يا غلام : ارفع ورجع في حديثه كأنه لم يصنع شيئاً وحدثنا ابراهيم بن اسمعيل عن ابن القداح قال : كانت للربيع جارية يقال امة العزيز فأهداها المهدي فلما رأى حسنها وجمالها وهيأتها قال : هذه لموسى أصلح فوهبها له ؛ فكانت احب الخلق اليه ، وولدت له بنيه الاكابر ثم ان بعض اعداء الربيع قال لموسى انه سمع الربيع يقول : ما وضعت بيني وبين الارض مثل أمة العزيز ، فغار موسى فدعا الربيع فتغدى معه وناوله كأسا فيه شراب ، فقال الربيع : فعلمت أن نفسي فيها وإني أن رددتها من يدي ضرب عنقي ، فشربتها وانصرفت ، فجمع ولده وقال : اني ميت ، فقال الفضل ابنه : ولم تقول ذلك جعلت فداك قال : إن موسى سقاني شربة فانا أجد عملها في بدني ثم أوصى بماله ومات في يومه . قيل : وطرب الرشيد الى الغناء متنكراً ومعه خادمه مسرور حتى انتهى الى باب اسحق ابن ابراهيم الموصلي ، فقال يا مسرور : اقرع الباب ، فخرج اسحق ، فلما رأى الرشيد انكب على رجله فقبلها ، ثم قال : إن رأى امير المؤمنين ان يدخل منزل عبده ، فنزل الرشيد . فدخل فرأى اثر الدعوة فقال : يا اسحق اني ارى موضع الشرب من كان عندك ؟ ما كان عندي يا امير المؤمنين سوى جاريتي كنت أطارحهما ، قال : فهما حاضرتان ؟ قال: نعم قال : فاحضرهما ، فدعا الجاريتين فخرجتا مع احداهما عود حتى جلستا فأمر الرشيد صاحبة العود ان تغني فغنت :

بُنِيَ الحُبُّ على الجورِ فلو أنصفَ المعشوقُ فيهِ لَسَمُجْ
ليس يُستحْسَنُ في وصفِ الهَوى
عاشقٌ يُكثِرُ تأليفَ الحُجَج

فقليلُ الحبِّ صِرْفاً خالصاً   هو خيرٌ مِنْ كثيرٍ قد مُزِج

فقال الرشيد : يا اسحق لمن الشعر والغناء فيه ؟ قال : لاعلم لي به يا أمير المؤمنين فنكس رأسه ساعة ينكت في الارض ثم رفع رأسه ، وأخذ العود من حجر هذه فوضعه في حجر الاخرى ثم قال لها ، غني ، فغنت .

إنْ يُمْسِ حَبْلُكَ بعدَطولِ تواصُلٍ   خَلَقاً وأَصبحَ بيتُكُم مَهْجوراً
فلقدْ أراني والجديدُ إلي بِلىً   زمناً بوصْلكَ راضياً مَسْرُوراً
كنتَ الهوَى وأعزَّ منْ وَطيءَ الحَصى
عندِي وكنتُ بذاكَ منكَ جديراً

فقال يا اسحق لمن الشعر والغناء فيه ؟ قال : لا علم لي يا سيدي ، فرد المسألة على الجارية ، فقالت : لستي ، قال : ومن ستك ؟ قالت : علية أخت أمير المؤمنين فنكس رأسه ساعة ، ثم وثب وقال لمسرور خادمه : امض بنا الى منزل علية ، فلما وقف بالباب ، قال : استأذن يا مسرور فخرجت جارية ، فلما رأت الخليفة رجعت تبادر تعلم ستها ، فخرجت تستقبله وتفديه ، فقال : ياعلية هل عندك ما نأكل ؟ قالت : نعم يا سيدي ، قال : وما نشرب ؟ قالت : نعم ، فدخل وجلس ، فقدمت اليه الطعام فأكل حاراً ، وبارداً ، ورطباً ، ويابساً . ثم رفع الطعام ووضع الشراب والطيب وأنواع الرياحين ودعت جواريها وكان عندها ثلاثون جارية يغنين ، فألبستهن انواع الثياب وصفتهن في الايوان وتناول الرشيد الشراب ، فأمر الجواري يغنين ، ثم سقى اخته حتى أخذ الشراب منها واحمرت وجنتاها ، وفترت اجفانها وكانت من أجل النساء . فضرب الرشيد الى حجر بعض الجواري في اخذ العود وقال : ياعلية بحياتي غني :

فعلمت انها داهية ، فبكت ، فصاح الرشيد ، فخرج الجواري وبقي هو وهي ، فدفعها وأخذ وسادة فجعلها على وجهها وجلس عليها فاضطربت اضطراباً شديداً ، ثم بردت فنحى الوسادة عنها وقد قضت نحبها ، فخرج وقال للخادم : اذا كان غداً فادخل وعزني ، وركب متوجها الى قصره ، فلما كان الغد عزاه مسرور فبكى ، فقال :

قبرٌ عزيزٌ علينـا   لو أنَّ من فيهِ يُفْدَى
أسكَنْتُ قُرَّةَ عيني   ومُهْجةَ النَّفْسِ لَحَدا
ما إنْ أرى لي عليها   مِنَ التوجُّعِ بُدّا

ومنه ما حكي عن البهائم قال شيخ من بني قشير : كنا في نتاج فامتنع فرس من حجرة فشددنا عينه فنزا عليها ، فلما فرغ فتحنا العصاة فرأى الحجرة وكانت أمه فعمد الى ذكره باسنانه فقطعه . ومنه في خفة الغيرة قال سليمان بن داود الهاشمي لابنه : لا تكثر الغيرة على اهلك فترمى بالشر من أجلك وان كانت بريئة ، ولا تكثر الضحك فيستخفك فؤاد الرجل الحليم ، وعليك بخشية الله فانها غلبت كل شيء . وقال عبدالله بن جعفر لابنته : اياك والغيرة فانها مفتاح الطلاق ، وإياك وكثرة العتب فانه يورث البغضاء ، وعليك بالكحل فانه أزين الزينة ، واطيب الطيب الماء . قيل : وكان كسرى ابرويز يتعشق امرأة رجل كان من مرازبته يقال له البارجان ، وكانت تأتيه سراً فبلغ روجها ذلك فأمسك عن امرأته واجتنبها ودخل الى كسرى ذات يوم ، فقال كسرى : بلغني ان لك عين ماء عذبة ، وانك قد اجتنبتها فلا تقربها ، ففطن ، فقال له : ايها الملك بلغني ان الأسد ينتاب تلك العين ، فاجتنبها خوفاً منه ، فأعجب كسرى بمقالته وامر ان يتخذ له تاج لا قيمة له ثم

دخل كسرى دار نسائه فقاسمهن نصف حليهن فاجتمع من الجوهر ما لا يحصى فبعث به الى امرأة البارجان بالقادسية ، ووقع ذلك الجوهر الى السائب بن الاقرع وكان على المقسم فباعه وجعل المسلمين بكتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال بعضهم : كنت أغار على امرأتي فاشرفت علي يوماً وانا مع جارية لي ، فلقيت منها اذى حتى حلفت ان أبيع الجارية ، فخرجت أريد شراء حوائج لي ومعي الجارية ، أتيت دكان خلال تشري الخـــل فوجدته خالياً فقلت له : يا هذا تأذن لي في ملامسة جاريتي هـــذه في دكانك فاني أريد بيعها ، قال نعم : جعلت فـــداك ادخل حيث شئت فأصبت من الجارية ، فلما خرجت اذا الخلال قد كمن ناحية وهو في قميص قد أنعظ فقال : فرغت قلت : نعم ، قـــال : بسم الله أتاذن لي جعلت فداك ، قلت ويلك ما تريد ! قال : أقضي وطري منها ، قلت : يا بن الفاعـــلة حرمتي ، قال : لا يضرك شيئاً فاني اسرع . ثم وثب كأنـــه السبع ، فضاربته حتى تخلصت الجارية بعد كل جهد . قـــال ودخل رجل من بني زهرة من أهل المدينة على قينة فسمع غناءها عند مولاها ، فخرج مولاها في حاجة ثم رجع ، فاذا جاريته على بطن الزهري فقامت مذعورة فقعدت تبكي ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : لأنك لا تقبل لاجله عذراً ، قال : يا زانية لو رأيتك على قفاك قلت : صريع مغلوب ، ولو رأيتك على وجهك لقلت : وعاء مكبوب انما رأيتك فارساً مصلوباً . وحكي عن ثمامة انه قال للمهدي : ان النساء شقفن شقاً ، وان هشيمة نقبت نقباً ، وكانت هشيمة امرأة ثمامة فسأله المهدي ان ينزل عنها ففعل ، وأقام المهدي حتى انقضت عدتها ثم تزوجها وبني بها ثم طلقها وخرج الى بيت المقدس فلمـــا انقضت عدتها راجعها زوجها وقال ابو طاهر أنشدني بعض الشعراء يهجو بني القعقاع :

بني القَعقاعِ أكرَمُكُـمْ لئيمٌ ... وأعظَمُ مَجدِكُـمْ رَكَبٌ حَليقُ
وأنتُم في نِسائِكُـمُ اتّساعٌ ... وفي أخلاقِكُـمْ نَكَدٌ وضِيقُ

وعن عبد الله بن ياسين قال : كان في المهدي غزل وشدة حب للخلوة بالنساء فبلغه عن ابنة لابي عبيد الله كاتبه جمال فقال للخيزران : استزيريها ، فزارتها ، وجاءت اليها فقالت لها : هل لك في الحمـــام ؟ قالت : نعم ، فلما دخلت الحمام وافاها المهدي فبرزت له ولم تستتر عنه ، فقال لها المهدي : انا وليك تزوجيني نفسك ، فقالت : انا أمتك ، فتزوجها ونال منها ، فلما انصرفت أخبرت إخوتها بما كان فقالوا : امسكي عنه ، فلما كان بعد مدة قالوا لها : استزيري الخيزران ، فاستزارتها ، فلما صارت اليها قالت : هل لك في الحمام ؟ قالت : نعم ، فلما دخلنا معــاً ما شعرت الخيزران الا ببني أبي عبيد الله قد عمدوا عليها فاستترت عنهم ، فقالوا لو أردنا ان نفعل كما فعلتم بحرمتنا لفعلنا ولكنا لا نستحل ، فقالت لهم : والله لو رمتم ذلـك لأمرت الخدم بقتلكم ، فانصرفوا ، فلمـــا رجعت الخيزران اخبرت المهدي بذلك فكان السبب في قتل المهدي محمد ابن أبي عبيد الله على الزندقة ، وبلغه ايضاً عن عونـــة بنت أبي عون جمال وهيئة ، فقـــال للخيزران : استزيريها فاستزارتها فقالت لها الخيزران : هل لك في الحمام ؟ قالت : نعم ، فلما دخلتا ما شعرت الا بالمهدي قد وافاها فاستترت بالخيزران وقالت : والله لئن دنوت مني لأضربن بالكرنيب وجهك ، فقال : ويلك إنما أردت إن أتزوجك ، قالت : لا سبيل الى ذلك ، فانصرف عنها ، فاخبرت أباها فقال أحسنت في فعلك .

٤٢ ـ محاسن القيادة

الحسن الجرجاني قال : حدثني سهم بن عبد الحميد الحنفي قال . خرجت من الكوفة أريد بغداد ، فلما نزلت بسط غلماننا وهيئوا غداءنا ، فاذا نحن برجل حسن الوجه والهيئة على برذون فاره فصحت بالغلمان فأخذوا دابته ، فدعوت بالغداء فبسط يده غير محتشم وما أكرمته بشيء الا قبله ، وكنا

كذلك اذ جاء غلمانه بثقل كثير وهيئة جميلة فتناسبنا فاذا هو طريح بن اسماعيل الثقفي ، فارتحلنا في قافلة منا لا يدرك طرفاها ، فقال طريح : ما حاجتنا الى هذا الزحام وليست بنا اليهم وحشة ولا علينا خوف ، فاذا خلونا بالخانات والطرق كان أروح لأبداننا ، قلت : ذلك اليك ، فنزلنا من الغد الخان وتغدينا والى جانبنا نهر ظليل بالشجر ، فقال : هل لك ان تستنقع فيه ؟ فمررنا ، اليه فلما نزع ثيابه اذا بين جنبيه آثار ضرب كثير فوقع في نفسي منه شر فنظر الي ففطن وتبسم ، وقال : قد رأينا ذعرك بما ترى وحديث ذلك يجري اذا مررنا بالعشية ، فلما مررنا قلت له : الحديث قال : نعم قدمت من عند الوليد بن يزيد بالغناء واليسار ، وكتب الى يوسف بن عمر ، فلما أتيته ملأ يدي خيراً ، فخرجت مبادراً الى الطائف ، فلما امتد بي الطريق وليس يصحبني فيه أحد عن لي اعرابي على قعود له ، فحدث أحسن الحديث ، وروى الشعر ، فـــاذا هو راوية فأنشد فاذا هو شاعر ، فقلت : من أين أقبلت ؟ قال : لا أدري ، قلت : وما القصة ؟ قال : أنا عاشق لامرأة قد أفسدت علي عيشي وقد حذرني أهلها وجفاني لهـــا أهلي وانما أستريح بأن أنحـــدر الى الطريق مع منحدر وأصعد مع مصعد ، قلت : فأين هي ؟ قال . تنزل غـــداً بازائها ، فلما نزلنا أراني طريقاً عن يسار الطريق ، فقـــال : ترى ذلك الطريق ؟ فقلت : أراه ، قال فترى الخيم التي هناك ؟ قلت : نعم ! قال : فانها في الخيمة الحمراء ، فأدركتني أريحية الحدث ، فقلت : والله إني آتيهـــا برسالتك فمضيت حتى انتهيت الى الخيم فاذا امرأة ظريفة جميلة كأنها مهرة عربية فذكرته لهـــا فزفرت زفرة كادت تنتقض أضلاعهـــا قالت : أو حي هو ! قلت : نعم تركته في رحلي وراء هـــذا الطريق ! قالت بأبي أنت وامي ارى لك وجهاً حسناً يدل على الخير فهل لك في امر ؟ قلت : فقير اليه ! قالت : البس ثيابي فأقم مـــكاني ودعني حتى آتيه وذلك عند مغيربان الشمس فانك اذا أظلم الليل أتاك زوجي ، فقال الك يا فاجرة ويا هنة ابنة الهنة فيوسعك

شئما فأوسعه صمتاً ، ثم يقول في آخر كلامه اقمعي سقاءك يا عدوة الله فضع القمع في هذا السقاء وإياك وهذا السقاء الآخر فانه واه ! قلت : نعم فأجبتها الى ما سألت فجاء الزوج على ما وصفت وقال : اقمعي سقاءك فحيرني الله ان تركت الصحيح وقمعت الواهي ، فما شعر الا باللبن يتسبب بين رجليه فعدا الي كسر الخيمة وحل متاعه وتناول رشاء من قد مدبوغ ثم ثناه باثنتين فجعل لا يتقي رأساً ولا وجهاً ولا رجلاً حتى خشيت أن يبدو له وجهي فتكون الأخرى فألزمت وجهي الارض فعمل بظهري ما ترى ، فلما تغيب عني جاءت المرأة باكية فرأت ما بي من الشر واعتذرت وأخذت ثيابي وانصرفت ، قال وحدث بهذا الحديث محمد بن صالح بن عبد الله ابن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه بسر من رأى سنة أربعين ومائتين وكان حمل من البادية الى المتوكل فأطلقه وكان اعرابياً فصيحاً فعجب منه وكان حسن الوجه نجيباً فلما ما رأيت في الفتيان مثله ، قال : كان منا فتى يقال له الأشتر بن عبد الله وكان سيد بني هلال وأحسنهم وجهاً وأسخاهم كفاً وكان معجباً بجارية يقال لها جيداء بارعة الجمال ، فلما اشتهر أمرهما وظهر خبرهما وقع الشر بين أهل بيتيهما حتى قتل بينهما القتلى فافترقوا فريقين فلما طال على الأشتر البلاء جاءني يوماً وقال : يا نمير هل فيك خير ؟ قلت : عندي ما أحببت ، قال : تساعدني على زيارة جيداء ، قلت : بالحب والكرامة فانهض اذا شئت ، قال : فركبنا وسرنا يوماً وليلة والغداة حتى المساء فنظرنا الى أدنى سرب لهم فأنخنا رواحلنا في شعب وقعدنا هناك وقال يا نمير: اذهب وأنشد واذكر لمن يلقاك انك طالب ضالة ولا تعرض بذكرى بشفة ولا لسان الى ان تلقى جاريتها فلانة راعية الضأن فتقرئها مني السلام وتسألها عن الخبر وتعلمها بمكاني ، قال : فخرجت لا أتعدى ما أمرني به حتى لقيت الجارية فأبلغتها الرسالة وأعلمتها بمكانه وسألتها عن الخبر فقالت : هي مشدد عليها محتفظ بها وعلى ذلك فموعدكما عند الشجرات اللواتي عند أعقاب البيوت مع صلاة العشاء فانصرفت فأخبرته ثم قدنا رواحلنا حتى

أتينا الموعد في الوقت الذي وعدتنا فيه فلم نلبث الا قليلا حتى اذا جيداء تمشي فدنت منا فوثب اليها الأشتر فتصافحا وسلم عليها ووثبت مولياً عنهما فقالا : أقسمنا عليك الا رجعت ، فوالله ما بيننا من ريبة ولا قبيح نخلو به دونك فانصرفت اليهما وجلست معهما ، فقـال الاشتر : ما فيك حيلة يا جيداء فنتزود منك الليلة ؟ قالت : لا والله ما الى ذلك سبيل الا ان أرجع الى الذي تعلم من البلاء والشر ! فقـال : لا بد من ذلك ولو وقعت السماء على الارض ، قالت : فهل بصاحبك خير ؟ قلت : بلى ، وهل الخير الا عندي ؟ فاسألي ما بدالك فاني منته اليه ولو كان في ذلك كله ذهاب نفسي فألبستني ثيابهـا وأخذت ثيابي ثم قالت : اذهب الى خبائي فادخل في ستري فان زوجي يأتيك مع العتمة فيطلب منك القـدح ليحلب فيه فلا تعطه من يدك فكذلك كنت أفعل فيحلب ثم يأتيك بالقدح ملآنا لبنا فيقول : هاك فلا تأخذه منه حتى يطيل عليك نكدك ثم خـذه أو ذره حتى يضعه ثم يستبد بردائه ولست تراه حتى يصبح فذهبت ففعلت ما أمرتني به حتى جـاء بالقدح فيه اللبن فأطلت نكدي عليه ثم أهويت لآخذه فاختلفت يدي ويده وانكفأ القدح فاندفق منه اللبن فقال : ان هذا الطماح مفرط وضرب يده الى جانب الخباء فاستخرج سوطا فضربني مقدار ثلاثين سوطا حتى جاءت أمه وأخواته فانتزعوني منه ولا والله مـا فعلوا ذلك حتى زايلتني روحي وهممت أن أوجره بالسكين فلما خرجوا عني وهو معهم قعدت كما كتب الله فما لبثت ان جـاءت أم جيدا ، فحدثتني وهي تحسبني ابنتها فألقيتها بالسكوت وتغطيت بثوبي دونها فقالت : يا بنية اتقي الله ولا تتعرضي للمكروه من زوجك فذلك أولى بك ، ثم خرجت من عندي فقالت : سأرسل اليك أختك تؤنسك وتبيت الليلة عندك فلم ألبث أن جاءت الجارية تبكي وتدعو على من ضربني وانا لا أكلها ثم اضطجعت الي جانبي فلما استمكنت منها شددت يدي على فمها وقلت : يا هـذه تلك أختك مع الاشتر وقد قطع ظهري بسببها وأنت أولى من ستر عليهـا

فاختاري لنفسك ولهـــا فوالله لئن تكلمت لتكونن فضيحة شاملة ثم رفعت يدي عن فيها فاهتزت مثل القصبة من الروع وباتت معي ونلت منهـــا الشهوة التامة ووافقتني أصلح رفيق رافقته ولم أذق شيئاً ألذ مما ذقت منها قط فلم نزل نتحدث وتضحك مني ومما بليت به حتى برق النور وجاءت جيداء فلما رأتنا ارتاعت وقالت : من هذا عندك ؟ قلت : أختك ، قالت : ومـــا السبب ؟ قلت : هي تخبرك فانهـــا عالمة به وأخذت ثيابي وأتيت صاحبي فأخبرته بما أصابني وكشفت له عن ظهري فاذا فيه مـــا الله به عليم ، فقال : لقـــد عظمت منتك عندي ووجب شكرك وخـــاطرت بنفسك فـــلا حرمني الله مكافأتك وعن رجل من بني عـــامر أنه خرج وهو غلام ما بقل وجهه وكان ذا جمال وهيئة صاحب غزل فهجم على قوم يتحملون وقد شدوا أثقالهم وبرزوا واذا امرأة جميلة قد تخلفت على جمل لها لاصلاح شأنهـــا قال : فوقفت عليها ، فاذا هي أحسن خلق الله وجهاً وأغزله وأملحـــه فتلاقينا كلاما غير كثير ، فقالت : أسألك شيئاً فهل لك به علم ؟ قلت : سلي : ، فقالت : أيها أحسن جردة الرجل ام المرأة ، قلت : الرجل قالت : بل المرأة فان أحببت ان تعلم ذلك علمته ، قلت . وكيف أعلمه ؟ قالت : أتجرد لك من ثيابي وأرميها عني ثم أمشي حتى أبلغ الأكمة ثم أقبل حتى آتيك فتعطيني عهد الله وميثاقه لتفعلن كما فعلت ، فقلت : لك عهد الله إن فعلت لأفعلنه ، قال فألقت ثيابها عن أحسن مـــا نظرت اليه قط ، بياضاً ونظافة وحسناً ، فلما انتهت الي قالت : الوفاء ، قلت : الوفاء ونعمة عيني فخلعت ثيابي وأنا كأبهى الفتيان وأهيأهم حتى مضيت بعـــد الغاية ، فلما انتصف بي المدى سمعت خرخرة جملي فاذا هي قد جالت على ظهره لابسة ثيابي متنكبة قوسي قد لزمت المحجة ، فناديتها فلم تعرج علي ، ولبست ثيابها وتخمرت بخمارها ، وركبت بعيرها وزجرته ، فـانبعث بي أثر الحي وأخـــذت شق الوحشي حتى ما اراها وجعلت أكف عن الجمل اذ خشيت ان الحق الظعن حتى رواني من بعيد وجعلوا ينادون ويحك اقبـــلي ! وأنا

صامت لا أتكلم ولا أتقدم ، فلما طال عليهم أمري ، بعثوا بجارية لهم مولدة فأقبلت تعدو حتى أتتني ونشطت خطام الجمل من يدي وأنا متبرقع أحسن الناس وجهاً وعيناً . فنظرت الجارية في وجهي ساعة . ثم قالت لقد أمسيت حديدة الطرف وقادت الجمل حتى أتت الحي ، فقالت أم الجارية : يا بنية لقد استحيت من الناس بما دعوتك العشية ثم تأملت ونظرت وسائر النساء . وقالت إحداهن : والله انه لرجل فطن وأنزلتني العجوز وأدخلتني الستر ؛ وقالت : من أنت لا افلحت ؟ قلت : بل ابنتك لا افلحت ولا انجحت ، وقصصت عليها قصتها ، فقالت : نشدتك الله الا اعرتني نفسك هزيعاً من الليل فانا كنا على ان نبني بابنتي صاحبة الجمل الليلة وما في الحي رجل غير زوجها ، وهو انسان فيه لوثة ولا بد من ان أدخلك عليه فانك غلام امرد فلا ينكرك ولا اراه أقوي منك ان اعتركتما فلك عندي يد بيضاء واقبلت وأخت لابنتها وخالتها فألبسني ثوب العروس وطيبني: ثم دلفن بي نحو الرجل بعيد العتمة وقالت أمها : أنا لك الفداء تجلد ساعة بالامتناع فانه منصرف عنك . وستأتيك الكافرة فأدخلتني على مثل الأسد الا ان به لوثة كما قالت فاعتركنا حتى أعيا وكف عني وطال بي الليل حتى سمعت خرخرة جملي ، فلم ألبث الا هنيهة حتى جاءت أمها وخالتها وهي معها فجعلتها مكاني وفتشت عن سرها فاذا هي قد ظلت مع انسان كانت تهواه . وأتيت ثيابي فنهضت مبادرا لا ألوي على شيء حذراً مما لقيت . قال وملك النعمان بن المنذر أربعين سنة فلم تر منه سقطة غير هذه : وهو أنه ركب يوماً فبصر بجارية قد خرجت من الكنيسة فأعجبته لجمالها فدعا بعدي بن زيد وكان نديمه ووزيره ، فقال له : يا عدي لقد رأيت جارية لئن لم اظفر بها انه الموت ، ولا بد من أن أتلطف أو تتلطف لي حتى تجمع بيني وبينها ، قال : ومن هي ؟ قال : سألت عنها فقيل : هي امرأة حكم بن عمرو رجل من أشراف الحيرة ، قال : فهل أعلمت أحداً قال : لا قال : فاكتمه فاذا أصبحت فجدد الحكم كرامة وبراً . فلما أذن

للناس بدأ به فأجلسه معه على سريره وكساه ، فاستعظم الناس ذلك ، فلما اصبح بدأ أيضاً بالاذن له وحمله فأنكر الناس ذلك . فقالوا : مـــا هذا إلا لأمر فصنع به ذلك اياماً . ثم قال له عدي : ايها الملك عندك عشر نسوة فطلق إحداهن ثم قل له فليتزوجها ففعل فلما دخل عليه قال : يا حكم ما كانت نفسي تسمح بهذا لولد فتزوج فلانـــة فقـــد طلقتها فخرج حكم الى عدي فقال : يا ابا عويمر ما صنع الملك بأحد مـــا صنع بي ومـــا أدرى بما أكافيه . قـــال له عـــدي : طلق امرأتك كما طلق الك امرأته ففعل وحظي بها عدي عنده وعلم حكم أنه قد مكر به في امرأته . وفيه يقول الشاعر :

مافي البريّةِ مِنْ أنثى تعادِلُها إلاّ الذي أخذَ النُّعمانُ مِنْ حَكَمِ

وحدث الفضل بن العباس عن الزبير بن بكار عن محمد بن بشير الخارجي قال : قدم علينا رجلان من اهل المدينة بصيدان ومعهما نسوة والفساطيط مضروبة . وكان سلـــيمان بن عبدالله الاسلمي وابن أخ لـــه مقيمين بناحية الروحاء . فأرسل النسوة الى سليمان وابن أخيه أما لكما حاجة في الحديث؟ فرد الرسول ان يكن لنا فيه حاجة فكيف لنا بذلك مع ازواجكن ؟ فقلن انما خرج أزواجنا للصيد وقد بلغنا أن لكم صاحباً يعرف من طلب الصيد مالا يعرفه غيره فلو طرح لهم شيئاً من ذكره لاسرعوا إليه وتخلفتم وتحدثتم ما شئتم يعنين به محمد بن بشير ، فمضى اليه سليمان وابن اخيه فقال يا أبا محمد : أرسل الينا النسوة بكذا وكذا وسألوني أن أخرجك الى الصيد ، فقلت : لا والله لا أفعل ولا أتعب ولا أنصب وأنتم تتلهون وتتحدثون انا اذا أشد حبا وأكثر صبابة وشوقاً فارسلا الى النسوة بمقالتي ، فارسلن إلي رسول وعاهدني لئن أخرجتهم ليحتلن لي حتى أخلو معهن ليلة حتى الصبح فصرت اليهم وذكرت لهم الصيد فخرجوا معي فـــما زلت أحدثهم بالصدق حتى أخذت في الكذب بما يضارع الصدق حتى أفنيته فأقمت معهم ثلاثة أيام

ولياليها ، ثم انصرفوا من أن غير أن اصطدنا شيئاً ، فقلت في ذلك.

إني انطلقتُ معي قوم ذوو حسبٍ ... ما في خلائقهم زهوٌ ولا حمقُ

إني لأعجبُ منهم كيف أخدعهم ... أم كيف آفكُ قوماً ما بهم رهقُ

أظلُّ في الأرضِ ألهيهم وأخبرهم ... أخبارَ قومٍ وما كانوا ولا خُلِقوا

ولو صدقتُ لقلتُ القومُ قد دخلوا ... حينَ انطلقنا وإني ساعةَ انطلقوا

فلو أجاهدُ ما جاهدتُ دونكمُ

في المشركينَ لأدركتُ الأُولى سبقوا

إنْ كنتُ أبداً أجاري من حلائلكم ... والدهرُ ذو عنتٍ أيامهُ طُرُقُ

فإنَّ كلَّ جديدٍ عائدٌ خلقاً ... فلَنْ يعودَ جديداً ذلكَ الخلَقُ

قال فظفر أصحابي بالحديث والمغازلة وأنا بالجهد والخيبة مع أتم القيادة والتعب وكذب الحادثة . وحدثنا وهب بن سليمان عن عمه الحسن بن وهب قال : خرج محمد بن عبدالملك الزيات من عند الواثق ومزيد بن محمد بن أبي الفرج الهاروني وكيل عبدالله بن طاهر فاذا بجارية حسناء في منظرة لها فلما بصرت به ورأت موكبه وكان جميلا ظريفا أومأت اليه السلام وأومأت بيدها الى صدرها فأعجب بها فلما صار الى منزله دخلت اليه فرأيته بخلاف ما عهدت وكان لا يكتمني شيئاً فقلت : مالي أراك مدلها يا أبا الحسن : قال : رأيت شيئاً أنافيه مفكر ثم أنشأ يقول :

وابأبي مُخَضبٌ ... أومى إلينا بيدِه

أومى بها يُخبرُني ... راحتُهُ في كبدِه

أنّ الضّنى في جَسدِي ... يُخبِرُني عَن جَسَدِه
فليسَ للحاسدِ إلاّ ... خَصْلةٌ مِن حَسَدِه

ثم شرح لي القصة ، ثم انصرفت من عنده ووافيت مولى الجارية فسألته أن يبيعها فقال اشتريتها للامير عبد الله بن طاهر وليس الى بيعها من سبيل فلم أزل به حتى اشتريتها بخمسين ألف درهم ووجهت بها اليه وكتبت اليه :

هذا مُحبّكَ مَطويٌّ على كَمَدِه ... عَبْرَى مَدَامِعُهُ تجري على جَسَدِه
لهُ يدٌ تَسألُ الرّحمنَ راحتَها ... ممّا بهِ وَيدٌ أخرى على كَبدِه

فقبلها وحسن موقعها عنده فولاني خراج ديار ربيعة فأصبت فيها ألف ألف درهم قال السجستاني : أرق الرشيد ذات ليلة فوجه الى عبد الملك الاصمعي والى الحسين الخليع فاحضرهما وشكا اليهما مدافعة نومه وشدة أرقه وقال لهما : عللاني بأحاديثكما وابدأ أنت يا حسين ، قال : نعم يا أمير المؤمنين خرجت فى بعض السنين منحدراً الى البصرة وممتدحاً لآل سليمان فقصدت محمد بن سليمان بقصيدتي فقبلها وأمرني بالمقام ، فخرجت ذات يوم الى المربد وجعلت المهالبة طريقي فأصابني حر وعطش فدنوت من باب دار كبير لاستسقي فاذا أنا بجارية أحسن ما يكون كأنها قضيب يتثنى وسناء العينين زجاء الحاجبين مهفهفة الخصر حاسرة الرأس مفتوحة الجربان عليها قميص لاذجلناري ورداء عدني قد علت شدة بياض بدنها حمرة قميصها تتلألأ من تحت القميص بثديين كرمانتين وبطن كطي القباطي وعكن مثل القراطيس لها جمة جعدة بالمسك محشوة ؛ وهي يا أمير المؤمنين متقلدة خرزاً من ذهب والجوهر يزهر بين ترائبها وعلى صحن جبينها طرة كالسبج وحاجبان مقرونان وعينان كحلاوان وخدان أسيلان وأنف أقنى تحته ثغر

كاللؤلؤ وأسنان كالدر وقد غلب جربانها سواد المسك والغالية ودابر العود الهندي على لبتها عبق الخلوق وهي والهة حيرى واقفة في الدهليز وجائية تخطر في مشيتها قد خالط صرير نعلها أصوات خلخالها كأنها تخطر على اكباد محبيها فهي كما قال الأفوه الأودي :

لَيسَ منها ما يُقالُ لها　كَمُلَتْ لو أنَّ ذا كَمُلا
كلُّ جزءٍ منْ محَاسِنِها　كائنٌ مِنْ حُسنِها مَثَلا
لو تَمَنَّتْ في بَرَاعَتِها　لمْ تَجِدْ في حُسنِها بَدَلا

فهبتها والله يا أمير المؤمنين ثم دنوت منهـــا لاسلم عليها فاذا الدار ، والدهليز ، والشارع قد عبقت بالمسك فسلمت عليها فردت السلام بلسان منكسر ، وقلب حزين محرق فقلت لها : يا سيدتي اني شيخ غريب أصابني عطش فأمري لي بشربة من ماء تؤجري ، قالت : اليك عني يا شيخ فاني مشغولة عن سقي الماء وادخار الاجر ! فقلت لها : يا سيدتي لأية عـــلة : قالت لأني عاشقة من لا ينصفني وأريد من لا يريدني ومع ذلك فاني ممتحنة برقباء فوق رقباء قلت لها : يا سيدتي هل عـلى بسيط الارض من تريدينه ولا يريدك قالت : انـه لعمري على ذلك الفضل الذي ركب الله فيه من الجمال والدلال ، قلت لها : يا سيدتي فما وقوفك في الدهليز ، قالت : هو طريقه وهذا أوان اجتيازه . قلت لها : يا سيدتي هل اجتمعتما في خلوة في وقت من الاوقات أم حب مستحدث ؟ فتنفست الصعداء وأرخت دموعها على خديها كطل على ورد ، وأنشأت تقول :

وكنا كغُصْنَي بانةٍ وَسطَ رَوْضَةٍ　نَشُمُّ جَنَا اللَّذَّاتِ في عيشةٍ رَغْدِ
فأفْرَدَ هذا الغُصنَ منْ ذاكَ قاطعٌ　فيا منْ رأى فَرْداً يَحِنُّ إلى فَرْدِ

قلت لها : يا هذه ما بلغ من عشقك هذا الفتى ، قالت : أرى الشمس على حائطهم أحسن منها على حائط غيرهم وربما أراه بغتة فابهت وتهرب الروح عن جسدي وأبقى الاسبوع والاسبوعين بغير عقل ، قلت لها : عزيز علي وأنت على ما بك من الضنا وشغل القلب بالهوى وانحلال الجسم وضعف القوى ما أرى من صفاء اللون ورقة البشر فكيف لو لم يكن بك من الهوى شيء أراك كنت مفتنة في ارض البصرة ، قالت : كنت والله يا شيخ قبل محبتي لهذا الغلام تحفة الدلال والجمال والكمال ولقد فتنت جميع ملوك البصرة وفتنني هذا الغلام ، فقلت : يا هذه ما الذي فرق بينكما ؟ قالت : نوائب الدهر ، وأوابد الحدثان ولحديثي وحديثه شأن من الشأن وأنبيك أمري ! اني كنت افصدت في بعض أيام النيروز فأمرت فزين لي وله مجلس بأنواع الفرش وأواني الذهب ونضدنا الرياحين والشقائق والمنثور وأنواع البهار ، وكنت دعوت لحبيبي عدة من متظرفات البصرة فيهن من الجواري جارية شهران وكان شراؤها عليه من مدينة عمان ثمانمائة ألف درهم ، وكانت الجارية ولعت بي وكانت أول من أجابت الدعوة وجاءتني منهن ، فلما حصلت عندي رمت بنفسها علي تقطعني عضا وقرصا ، ثم خلونا نتمزز القهوة الى أن يدرك طعامنا ويجتمع من دعونا فتارة هي فوقي ، وتارة أنا فوقها ، فحملها السكر على ان ضربت يدها على تكتي فحلتها ونزعت هي سراويلها وصارت بين فخذي كمصير الرجال من النساء ، فبينا نحن كذلك إذ دخل علي حبيبي وقد التزق قرطي بخلخالي فلما نظر الينا اشمأز لذلك وصدف عني وعنها صدوف المهرة العربية اذا سمعت صلاصل اللجم وعض على أنامله وولى خارجا ، فانا يا شيخ منذ ثلاث سنين أسل سخيمته واستعطفه فلا ينظر إلي بعين ولا يكتب إلي بحرف ولا يكلم لي رسولا ، قلت لها : يا هذه أفمن العرب هو أم من العجم ؟ قالت : هو من جلة ملوك البصرة ، قلت من أولاد نبابها أو من أولاد تجارها ، قالت : من عظيم ملوكها ، قلت لها : أشيخ هو أم شاب ؟

فنظرت الي شزرا وقالت : انك لأحمق أقول : هو مثل القمر ليله البدر أمرد أجرد وطرة رقعاء كحنك الغراب تعلوه شقرة في بياض عطر لباس ضارب بالسيف طاعن بالرمح لاعب بالنرد والشطرنج ضارب بالعود والطنبور يغني وينقر على أعدل وزن لا يعيبه شيء إلا انحرافه عني لا نقصا لي منه بل حقداً لما رآني عليه قلت : يا هـذه وكيف صبرك عنه ؟ فأنشأت تقول :

أمّـا النّهارَ فمُستَهامٌ والهٌ وجُفونُ عيني ساجِفاتٌ تدمَعُ
والليلَ قدْ أرْعى النّجومَ مُفكِّراً حتى الصّباحِ ومُقْلَتي لا تَهْجَعُ
كيفَ اصطِباري عن غَزالٍ شادِنٍ في لحظِ عينيْهِ سِهامٌ تَصْرَعُ
وجْهٌ يُضيءُ وحاجبانِ تقوّسا وكأنّ جَبْهتَه سِراجٌ يَلمعُ
وبياضُ وجْهٍ قدْ أُشيبَ بحُمرَةٍ في وَجْنَتيـهِ كأنّه مُسْتجمعُ
والقَدُّ منهُ كالقضيبِ إذا زَهى والغُصنُ في قَنوائهِ يتَرَعْرَعُ
تمّتْ خلائـقُه وأُكْمِلَ حُسنُهُ كمِثالِ بدْرٍ بعدَ عَشْرٍ أرْبَعُ

قلت لها : يا سيدتي ما اسمه وأين يكون ؟ قالت : تصنع به ماذا ؟ قلت : أجهـد في لقائه وأتعرف الفضل بينكما في الحال . قالت : على شريطة ، قلت وما هي ؟ قالت : تلقانا إذا لقيته ، وتحمل لنا اليه رقعة قلت : لا أكره ذاك قالت : هو ضمرة بن المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة يكنى بابي شجـاع وقصره في المربد الاعلى وهو أشهر من أن يخفى ثم صاحت في الدار يا جواري دواة وقرطاساً ! وشمرت عن ساعدين كانهما طومارا فضة ثم حملت القلم وكتبت : بسم الله الرحمن الرحيم سيدي تركي الدعاء في صدر رقعتي ينبيء عن تقصيري ، ودعـائي ان دعوت يكون

هجنة ، فلولا أن بلوغ المجهود يخرج عن حد التقصير لما كان لما تكلفته خادمتك من كتب هـذه الرقعة معنى مع إياسها منك وعلمها بتركك الجواب ، سيدي فجد بنظرة وقت اجتيازك في الشارع الى الدهليز تحي بها أنفسا ميتة أسرى ، واخطط بخط يدك بسطها الله بكل فضيلة رقعة فاجعلها عوضا من تلك الخلوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات التي أناذاكرتها ، سيدي ألست لك محبة وبك مدنفة ؟ فان رجعت مولاي الى الاشبه بك وأنقذتني من عوارض التلف كنت لك خادمة ولك شاكرة ، فلما فرغت من الكتاب يا أمير المؤمنين ناولته اياي فقلت لهـا : ياسيدتي قد وجب حقك علي ولزمتك حرمتي لطول وقوفي عليك وكنت قد سألت شربة ماء ، قالت : أستغفر الله ما فهمنا عنك ، ثم صاحت في الدار أخرجن الينا شرابا من ماء وغير ماء ، فما كان الا أن أقبل ثلاثون وصيفة بأيديهن الطاسات والجامات والأقداح والاقداح مملوءة ماء وثلجا وفقاعا وشرابا فشربت الماء ثم قلت : ياسيدتي مع قدرتك على هذا من استواء الحال وكثرة الخدم والعبيد والجواري فلم لا تأمرين احدى الجواري أن تقف مراعية للغلام حتى اذا مر أعلمتك فتخرجين اليه ؟ قالت : لا تغلط يا شيخ فتمثلت :

عَبَالَةَ عُنْقِ اللَّـيثِ مِنْ أجلِ أنَّهُ إذا رامَ أمراً قامَ فيـهِ بنفْسِهِ

ثم انصرفت عنها يا امير المؤمنين ، فلما اصبحت غدوت على محمد بن سليمان فوجدت مجلسه محتفلا بالملوك وأبناء الملوك ورأيت غلاماً قد زان المجلس وفاق من فيه حسناً وجمالا قد رفعه الامير فوقه فسألت عنه فقيل : ضمرة بن المغيرة فقلت : في نفسي بالحقيقـة حل بالمسكينة ما حل هو والله قاتلها فيما أرى ، ثم قمت فقصدت المربد ووقفت على باب داره فاذا هو قد ورد في موكب جليل فوثبت اليه وبالغت في الدعـاء والثناء ثم دنوت منه وفاوضته في الذي بيني وبينها وناولته الرقعة فلما قرأها ضحك ثم قال : يا شيخ قد استبدلنا بها فهل لك في ان تنظر الى البديل ؟ قلت : نعم ، فصاح

في الدار يا جواري اخرجن الينا لذيذا فما كان الا أن طلعت جارية وضيئة الكمين ناهدة الثديين تمشي مشية مستوحل ترتج من دقة خصرها على كبر عجزها ذات فخذين وعجيزتين تختطفان الانفس اختطافا على رأسها بطيخة من الكافور مكتوب على جبينها .

آهٌ من الحبِّ آهُ ما أقتلَ الحبُّ وأضناه

ودون ذلك مكتوب :

عيَّارةٌ ميَّاسةٌ في الخُطَى رخيمةُ الدَّلِّ صيودٌ للرِّجالِ

وقد كتبت بالغالية على عصابتها ثلاثة أسطر وهي :

إذا غضِبَتْ رأيتَ النَّاسَ قتلَى وإنْ رضِيَتْ فأرْوَاحٌ تعُودُ

لها في عينِها لحظاتُ سِحْرٍ تُميتُ بها وتُحيي من تُرِيدُ

وتَسْبي العالمِينَ بمُقلتيهـا فكلُّ العالمينَ لها عَبيدُ

فناولها الرقعة وقال : اقرئي وأجيبي صاحبتك ، فلما قرأت الرقعة اصفرت وعرقت ومزقتها وضربت بها في وجه الغلام وغابت في الستر ، فقال لي : أما أنت يا شيخ فاستغفر الله بما مشيت فيه ، قلت : بل انت استغفر الله من هجرانك اياها وتركك اتيانها ، والله ما ارى لها في البشر نظيراً ، قال : لا أفعل ولو أنها في حسن يوسف وكمال حواء ، فخرجت يا أمير المؤمنين وأنا أجر ذيلي حتى وردت عليها فاستأذنت ودخلت فبدأت بي ، فقالت : ما وراء الشيخ ! قلت البؤس واليأس قالت : لا عليك فأين الله والقدر ، ثم أمرت لي بخمسمائة دينار وعشرة أثواب وخرجت من عندها وأنا ممتدح لآل سليمان فلم يكن لي والله إلا معرفة خبرها في العام الذي عدت فيه إلى البصرة ، فوردت عليها فوجدت على بابها أمراً ، ونهياً ، وأسباباً لا تكون

الا على باب والخلفاء ، فاستأذنت فدخلت فاذا فوق رأسها ثلاثون رجلا من شيوخ وشبان وخدم وقوف بسيوفهم ، فلمـــا نظرت الي عرفتني ووثبت الي وقبلت رأسي وقالت : ياشيخ الحمد لله الذي جعل العبيد بالصبر ملوكا ، وجعل الملوك بالتيه عبيداً ، إن الذين تراهم وقوفاً أصحاب ضمره يسلون سخيمتي ، ويسألونني الرجوع له ، والله لا نظرت اليه في وجه ولو أنه في حسن يوسف وكمال حواء فسجدت يا أمير المؤمنين شماتة بضمرة وتقربا الى الجـــارية فقال بعض حجاب ضمرة : مهلا يا شيخ فمن طاب محضره طاب مولده ثم انصرفوا ، فناولتني خريطة فيها أوراق فقالت : هـذا أول ما ورد علينا منه ، فاذا ثوب خز أبيض يقق مكتوب فيه بماء الذهب : بسم الله الرحمن الرحيم لولا تغاضي عليك أدام الله حياتك لوصفت شطراً من غدرك ولبسطت سوط عتبي عليك وحكمت سيف ظلامتي فيك ، إذ كنت الجانية على نفسك والمظهرة لسوء العهد وقلة الوفاء المؤثرة علينا غيرنا فخالفت هواي وفرشت نفسك لها على حالتي جد وهزل وصحو وسكر ، والمستعان الله على ما كان من سوء اختيارك . وقد ضمنت رقعتي هذه أبيات شعر أنت المتفضلة بالنظر اليهـــا وهي :

قَطَّعَ قلبي فراقُـكُـمْ قِطَـعا ... وكِدْتُ أُقضي لبينكمْ جَزَعا
ما تُكْحَلُ العــينُ بالرُّقادِ ولاَ ... يَنامُ جَنبي في اللَّيـل مُضْطَجِعا
لاعيشَ لي مُذْ نأتْ ولا وَجدَتْ ... عَيناي في الارضِ قطُّ مُتَّسعَا

قلت لها : أفلا تحدثيني كيف سليت عنه وابتلى ؟ قالت : كيف لا أحدثك اقتصدت تفاحة جارية محمد بن سليمان فدعينا الى خورنق لمحمد ابن سليمان فلما طعمنا دعت لنا بالشراب ، فبينا نحن كذلك إذا بحراقة سلطانية قد وردت وفيها عدة من أبناء الملوك وفيهم هذا العيار ولا علم لي بمكانه ، وكنت حملت العود وغنيت :

أَبْلَى فُؤَادِي وشَفَّنِي الأَرَقُ والدَّمْعُ مِنْ مُقلتيَّ يَسْتَبِقُ
مِنْ حُبِّ ظَبيٍ أغنَّ ذي دَعَجٍ وقلبُهُ للشّقاء مُنْطَبِقُ

فلما وجبت العتمة انصرفنا وأبطأت الجارية ، وأتاني هؤلاء القوم من عنده يسلون سخيمتي ، ويستعطفونني عليه ثم انصرفت عنها يا أمير المؤمنين ودخلت الحمام من ساعتي ، فما كان الا أن دخلت حتى أتاني غلامي فقال : جماعة من جلة الناس قد طرقوا دارك يطلبونك ، فلبست ثيابي وخرجت مسرعاً فاذا بضمرة قد كبس داري في عدة من الرؤساء فقال : والله لابرحنا حتى تنفق علينا الخمسائة دينار التي أخذتها من الجارية سيدتي ، قلت : اي والله بالسمع والطاعة ، ثم جذبني الى نفسه فلم يزل يناظرني في أمرها حتى أقبل المساء ، ثم انصرف الى رحله ، فلما كان من الغد وردت له رقعة مع خادم وكيس فيه ألف دينار واستزارني فقبلت ذلك وصرت معه اليه ، فلما نظر الي تنحي عن مقعده وأقعدني ثم قال : هذا قد أعددته للنيروز لسيدتي هدية ، وأنت أولى من تجشم مع الخادم اليها ، قلت : السمع والطاعة ، ثم صاح في الدار هاتوا الهدية فاذا مائة تخت من ثياب وصندوق من ذهب مقفل عليه ، فقال لي : في التخت والصندوق مبلغ ثلاثين ألف دينار وأنت أولى من تفضل بالايصال فصرنا اليها واستأذنا فلما مثلنا بين يديها أنكرتني ، وقالت : من الشيخ ؟ قلت : الخليع شاعر العراق ، ومعي هدية عبدك ضمرة ، فصاحت في الدار : تالك ، فاذا جارية كأنها الظبية المنفلتة من الشبكة ، قالت لها : خذي هذه الهدايا وفرقيها على جواري الدار ثم قالت : أيطمع الخنوص أن يجتمع معي بعد قبولي الهدية في ثلاثين سنة ؟ قلت : لها العفو عند المقدرة يعدل عتق رقبة ، قالت : ففي خمس عشرة سنة ، قلت : لها انقصيها أولى بك ، قالت : ففي ثلاث سنين ، قلت : لها حطة أخرى وقد اجتمعنا ، قالت لا : والله لا آكل ولا أشرب حتى آتيه وأمرت أن يسرج لها وبادرت الى باب ضمرة مبشراً فما وصلت أو

سمعت صلاصل اللجم فاذا هي قد سبقتني في جواريها وخدمها ، فدخلت فاذا هما يتعانقان ويتعاتبان فقلت : يا سيدتي ما أنتما إلى شيء أحوج منكما الى خلوة ، قالا : هو ذاك فانصرفت عنهما ، ثم بكرت عليهما ، فاذا هي في المرقد الأول جالسة عليها جبة وشيء مطير ، وهي تعصر الماء عن ذوائبها ، وتصلح قرونها فاستحيتني ، وقالت : لا تفكرن في ريبة ، فوالله ما صلينا البارحة حتى بعثت الى عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي فزوجت نفسي سيدي ، ولكن صر اليه فانه في المرقد الثاني ، فصعدت اليه ، فلما نظر الي وثب الي وقبل بين عيني ، وقال : يا شيخ قد جمع الله بيني وبين سيدتي بك ، ثم دعا بدواة وقرطاس وكتب الى ابن نوح الصيرفي في ثلاثة آلاف دينار فرجعت اليها ، فقالت : بماذا براك سيدي ؟ فاقرأتها الرقعة ، فقالت : نعجل اليك مثلها فدعت بمال وطيار ووزنت ثلاثة آلاف دينار ودعت بعشرة أثواب من ثياب مصر وقالت : هذه وظيفتك علينا كل عام ، فخرجت من عندها وأخذت مرفوعي من آل سليمان وانصرفت الى العراق ، وكان الرشيد متكئاً فاستوى جالساً وقال : أوه يا حسين ! لولا أن ضمرة سبقني اليها لكان لي ولها شأن من الشأن .

(ومنه مع الشعراء) قال : استأذنت بنت لعبد الملك بن مروان في الحج فأذن لها ، وكتب الى الحجاج يأمره بالتقدم الى عمر بن أبي ربيعة أن لا يذكرها في شعره ، فلما بلغ عمر مقدمها لم يكن له همة الا أن يتهيأ بأجمل ما يقدر عليه من الحلل والثياب ، وضربت لها قبة في المسجد الحرام فكانت تكون فيها نهارا فاذا أمست تحولت الى منزلها انتظر اليه وتجلس بازاء القبة ، وقد خبر عمر بشأنها فاذا أرادت الطواف أمرت جواريها فيسترنها بالمطاريف ، فكانت تتطلع الى عمر كثيرا وكانت تسأل من دخل عليها عنه رجاء أن يكون قد قال شيئاً فلم يفعل حتى قضت الحج ورحلت ونزلت من مكة على أميال ، فأقبل راكب من مكة فسألته من أين أقبلت ؟ قال : من مكة قالت : عليك وعلى فرقة أنت

منها لعنة الله قال : ولم يا بنة عبد الملك ؟ قالت : قدمنا مكة فأقمنا أشهرا فما استطاع الفاسق عمر بن أبي ربيعة أن يزودنا من شعره أبياتا كنا نلهو بها في سفرنا هـذا ، قال : فلعله قد فعل ، قالت : فاذهب اليه واسأله ولك في كل بيت تأتيني به منه عشرة دنانير . فاقبل الرجل وأتى عمر بن أبي ربيعة فاخبره الخبر . فقال له : قد فعلت ولكن أحب أن تكتم علي . قال : افعل ثم أنشده :

رَاعَ الفؤادَ تفرُّقُ الأَحبابِ ... يومَ الرَّحيلِ فهاجَ لي أطرابي
فظَلِلْتُ مُكْتَئِباً أُكَفْكِفُ عبرةً ... سَحًّا تَفيضُ كوابلِ الأَسرابِ
لمّا تنادَوا للرَّحيـلِ وقرّبوا ... بُزْلَ الجمالِ لِطيَّـةٍ وذهابِ
كادَ الأَسى يَقضي عليكَ صبابةً ... والوجهُ منكَ لِبَينِ إلفكَ كابي
قالتْ سُعَيْدَةُ والدُّموعُ ذَوارفٌ ... منهـا على الخدَّيْنِ والجِلْبابِ
ليتَ المُغيريَّ الذي لمْ نَجْـزِهِ ... فيما أطالَ تصيُّدي وطِـلابي
كانتْ تَرُدُّ لنا المُنى أيّامنا ... إذْ لا نلامُ على هوىً وتصابي
أيامَ نكتُـمُ ودَّنا ونوَدُّهُ ... سِرًّا مَخـافةَ مَنطِقِ المُغتابِ
أُخبِرْتُ ما قالتْ فبتُّ كأنَّما ... يُرْمي الحشا بنوافذِ النُّشابِ
فبعثْتُ جاريتي وقلتُ لها اذهبي ... قولي لها في خِفيـةٍ وقرابِ
أسُعيْدُ ما ماءُ الفراتِ وطيبُهُ ... منّي على ظَمَأٍ وطيبِ شرابِ
بألذَّ منكِ وإنْ نأيتِ وقلَّمـا ... تَرْعى النساءُ أمانةَ الغُيّابِ
إنْ تبذُلي لي نائلاً أشفي بهِ ... سَقَمَ الفؤادِ فقدْ أطلْتِ عذابي

وَعصيتُ فيكِ أقاربي فتقطَّعتْ بيني وبينَهمُ عُرى الأسبابِ
فبقيتُ كالمُهْريقِ فضْلةَ مائِهِ في حرِّ هاجرةٍ للَمْعِ سرابِ

ثم أتى اليها بالابيات فأعجب بها وأمرت جواريها بحفظها ، ثم وفت له بما وعدت وسلمت اليه في كل بيت عشرة دنانير . وقال : أخبرنا محمد بن خلف قال : اخبرني أبو بكر العامري قال : حدثني موسى بن عمر بن أفلح مولى فاطمة بنت الوليد بن عبدشمس بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم. قال : حدثني بلال مولى ابن أبي عتيق قال : قام الحارث بن عبدالله بن عباس بن ابي ربيعة من الحج فأتاه ابن أبي عتيق . فقال : كيف تركت أبا الخطاب ؟ فقال : هجرت الثريا عمر فقال :

مَنْ رَسولي إلى الثُّرَيّا فإنّي ضِقْتُ ذرعاً بهجْرِها والكِتابِ
سَلَبتني مُجّاجةُ المِسكِ عقلي فسَلوها بما يَحِلُّ اغتِصابي
أبرَزُوها مِثلَ المَهاةِ تَهادَى بينَ خَمْسٍ كَواعبٍ أترابِ
وهيَ مَمْكورةٌ تَحيَّرَ منها في أديمِ الخدَّينِ ماءُ الشَّبابِ
وتكَنَّفْنها كَواعبُ بيضٌ واضِحاتُ الخُدودِ والأقرابِ
في سِخابٍ مِنَ القَرَنفُلِ والدُّرِّ نَفيسٍ واهاً لهُ مِنْ سِخابِ
قلتُ لمّا ضرَبْنَ بالسَّجْفِ دوني ليسَ هذا لِودِّنا بثوابِ
فتبدَّتْ حتّى إذا جُنَّ قلبي حالَ دوني ولائدٌ بالثِّيابِ
حينَ شَبَّ القَتولَ والعُنُقَ منها حُسْنُ لونٍ يَدِفُّ كالزِّرْيابِ
ذكَّرتني ببهْجةِ الشمسِ لما طلَعتْ في دُجُنَّةٍ وسَحابِ

دُمْيةٌ عندَ راهِبٍ وقَسِيسٍ　　صوّرُوها في مَذْبَحِ المِحرابِ
فارْجَحَنّتْ في حُسْنِ خَلْقٍ عَميمٍ　　تتهادَى في مَشيِها كالحُبَابِ
ثمَّ قالوا تُحِبُّها قلتُ بَهْراً　　عدَدَ الرَّملِ والحَصا والترابِ

وقال لغلامه : انطلق بكتابي هذا الى ابن أبي عتيق بالمدينة فادفعه اليه فأقبل الغلام بالكتاب حتى دفعه اليه ، فلما قرأه قال : والله انا رسوله اليها فسار حتى قدم مكة لا يعلم به أهله ، فأتى منزله فوجده غائبا ، فانطلق غلام عمر الى عمر ، فقال : ان رجلا قدم وهو يطلبك من شأنه وهيئته كذا ، قال : ويحك ذلك ابن ابي عتيق اذهب اليه فقل له : ان مولاي يأتيك الآن ، وكان عمر على فرسخين بل على رأس ثلاثة أميال من مكة ، فأتاه الغلام فأخبره ، فقال : اسرج لي أنت برذون عمر فان دابتي قد تعبت وكلت فأسرجه له فركب وأتى الحمى ، فصهل البرذون وسمعت الثريا صهيله ، فقالت : لجواريها هذا هو برذون الخبيث عمر . ثم دعت ببغلة لها فوضعت عليها رحلها ، فخرجت فاذا هي بابن أبي عتيق ، فقالت : مرحبا بعمي ما جاء بك يا عم ، قال : أنت والفاسق جئتما بي ، قالت : أما والله لو بغيرك تحمل علينا ما أجبناه ، ولكن ليس لك مدفع أمر ربنا نحوه ، فأقبل حتى انتهى الى عمر فخرج عمر اليه وقبل يده ثم قال : انزل جعلني الله فداك ، فقال : ماء مكة علي حرام حتى أخرج منها ، ثم دعا ببغلته فركبها وانصرف الى المدينة وخلا عمر بالثريا . وحدث الزبير بن بكار عن أبي محرم عن ابراهيم بن قدامة قال : قال عمر بن أبي ربيعة ألا أحدثك حديثاً حلوا قال : قلت نعم ، قال : بينا أنا جالس إذ جاءني خالد الخريت ، فقال : يا أبا الخطاب هل لك في هند وصواحبها فقد خرجن الى نزهة ، قلت : وكيف لي بذلك ؟ قال : تلبس لبسة أعرابي ، وتعتم عمامته ، وتركب مركبه كأنك ناشد ضالة ، قال : ففعلت وجئت حتى وقفت عليهن أنشد

ضالتي فقلن : انزل ، فنزلت وقعـدت أحادثهن وأغازلهن ، فلما رمت النهوض قالت لي هند : اجلس لاجلست أنت ألا ترى أنك وقفت علينا غريباً ونحن والله وقفنا على غربتك نحن بعثنا خالدا وخدعناه وأطمعناه في أنفسنا حتى جاء بك فقال خالد : صدقن والله خدعنني وخدعنك فجلست وتحدثنا فأنشدتهن ، فقالت هند : يا سيدي لقد رأيتني منذ أيام وقد أصبحت عند أهلي فأدخلت رأسي في جيبي ونظرت الى هني ، فاذا هو ملء الكف ومنية المتمني ، فناديت يا عمراه يا عمراه ، قال عمر : فقلت يا لبيك يا لبيك يا لبيك ثلاثاً ، ومددت في الثالثة صوتي فضحكت ، وحادثتهن ساعة ثم ودعتهن وانصرفت فذلك قولي :

عَرَفْتُ مَصيفَ الحَيِّ والمُتَرَبَّعا   ببطنِ حُلَيَّاتٍ دَوارِسَ بَلقَعا
إلى السَّفحِ مِنْ وادِي المُغَمَّسِ بُدِّلَتْ
مَعالِمُهُ وَبْلاً ونكباءَ زَعزَعا
لِهندٍ وأترابٍ لِهندٍ إذِ الهوَى   جميعٌ وإذا لمْ نَخْشَ أنْ يَتصدَّعا
وإذْ نحنُ مثلُ الماءِ كانَ مِزاجُهُ   إذا صَفّقَ السَّاقي الرَّحِيقَ المُشعشَعا
وإذْ لا نُطيعُ الكاشِحينَ ولا نَرَى
لِواشٍ لَدَينا يَطلبُ الصَّرْمَ مَطْمعا

وقال عمر : ما رأيت يوما غابت عواذله ، وحضرت عواذره بأحسن من يومنا ، ولا صبوة كصبوتنا ، ولا قيادة كقيادة خالد ، ولا أملح ، ولقد وصفت ذلك في شعر ، فقلت في تمام ما تقدم :

أتاني رَسولٌ منْ ثلاثِ حَرائرٍ   ورابعةٍ يَزْكو لها الحُسْنُ أجمَعا

فقلتُ لِمُطْرِيهِنَّ في الحُسْنِ إنّما ضَرَرْتَ فهلْ تسطيعُ نفعاً فتَنفعا
لئِنْ كانَ ما حدَّثتَ حقًّا لمـا أرى كمِثْلِ الاولى أطرَيْتَ في النَّاسِ أربعا
وهَيَّجْتَ قلباً كانَ قدْ ودَّعَ الصِّبا وأشياعَهُ فاشفَعْ عسى أنْ تُشفَّعَا
فقالَ تعالَ انظُرْ فقلتُ فكَيْفَ لي أخافُ مقاماً أنْ يشيعَ ويَشنَعا
فقالَ اكتَفِلْ ثُمَّ التَثمْ وأْتِ باغياً فسلِّمْ ولاَ تُكثِرْ بأنْ تتورَّعا
فإني سأخفي العينَ عنكَ ولا تُرَى مَخافَةَ أنْ يَفْشو الحَديثُ فيُسْمعا
فاقبلْتُ أهوِي مِثلَ ماقالَ صاحبي لِمَوْعدِهِ أُزْجي قَعوداً مُوَقَّعا
فلمَّا تواقفْنا وسَلمْتُ أشرَقَتْ وُجوهٌ زهاها الحُسْنُ أنْ تتقنَّعا
تَبالَهْنَ بالعِرْفانِ لمَّا عَرفْنني فقُلْنَ امرُؤٌ باغٍ أَضلَّ وأوْضعا
فلمَّا تنازَعْنَ الأحاديثَ قُلنَ لي أخِفْتَ علينا أنْ نُغرَّ ونُخدَعا
فما جئْتَنا إلا على وَفْقِ مَوْعِدٍ على ملاٍ منَّا خرَجْنا لهُ معا
رأينا خلاءً منْ عيونٍ ومَجْلِساً دَميثَ الثَّرَى سَهْلَ المَحَلَّةِ مُمْرِعا
وقلْنَ كريمٌ نالَ وَصْلَ كرائمٍ وحقّ لهُ في اليوْمِ أنْ يَتمتعا
وفيهنَّ هِندٌ تُكمِلُ الهمَّ والمُنى وإخداعُ عيني كلما رُمتُ مَهْجعا

قال : ولما أنشد عمر بن أبي ربيعة ابن أبي عتيق قصيدته التي فيها يقول :

فأتتهـــا طِبـــةٌ عالِمَـةٌ   تَخلِطُ الجِدَّ مِراراً باللعبْ

تَرْفَعُ الصوْتَ إذا لانَتْ لها   وتُراخي عندَ سَوْراتِ الغَضبْ

قال ابن أبي عتيق : امرأتي طالق ان لم يكن النـــاس في طلب مثل هذه منذ قتل عثمان يجعلونها خليفة فلم يقدروا عليها وأنت تريدها قوادة ، قال : ولما هجا كثير بني ضمرة فقـال :

ويُحْشَرُ نُورُ المُسلمِينَ أمامَهُمْ   ويُحشَرُ في أَسْتاهِ ضَمْرَةَ نورُها

اشتدت بنو ضمرة عليه وعلى عزة ، وأرادوا قتله ، ووضعوا له العيون فمكث شهراً لا يصل اليها فالتقى جميل وكثير . فشكي أحدهما الى صاحبه ما يلقى ، فقال جميل : أنا رسولك الى عزة فأخبرني بما كان بينكما ، قال آخر ما لقيتها بالطلحة مع أتراب لها قال : فأتاهم جميل وهو ينشد ذردا له ففطنت عزة ، فقالت تحت الطلحة التمس ذوداً هنـــاك ، فانصرف جميل فأخبر كثيراً ، فلما كان في بعض الليل أتيا الطلحة وأقبلت عزة وصاحبة لها فتحدثا ملياً ، وجعل كثير يرى عزة تنظر الى جميل ، وكان جميلا ، وكثير دميا . فغضب كثير وغار عليها وقال لجميل : انطلق بنا قبل أن يصبح علينا الصبح . فانطلقا فمنذ ذلك يقول :

رأيتُ ابنةَ الشّبْليِّ عَزَّةَ أَصبحَتْ   كَمُحْتطِبٍ ما يَلْقَ بالليلِ يَحْطِبِ

وكانَتْ تُمنّينـــا وتَزْعَمُ أنّنا   كَبيضِ الأَنُوقِ في الصفَا المُتَغيّبِ

ثم قال كثير لجميل : متى عهدك ببثينة ؟ قـــال : في أول الصيف بوادي الدم ومعهـــا جواريها يغسلن ثياباً . فخرج كثير حتى أناخ بهم وهو يقول :

وقلتُ لها يا عَزَّ أرْسلَ صاحبي   على بُعْدِ دَارٍ والرسولُ مُوَكلُ

بأنْ تجعلي بيني وبينكِ موعِداً وإنْ تأمريني بالذي فيهِ أفعلُ

أما تَذْكُرِينَ العهْدَ يومَ لقيتكُم
بأسفلِ وادِي الدومِ والثّوبُ يُغسلُ

فعلمت بثينة ما أراد فصاحت اخسأ اخسأ فقال عمها : ما دهاك يا بثينة قالت : ان كلباً يأتينا من وراء هذا التل فيأكل ما يجد ثم يرجع ، فرجع كثير وقال لجميل : قد وعدتك التل فدونك ، فخرج جميل وكثير حتى انتهيا الى الدومات ، وقد جاءت بثينة فلم تزل معه حتى برق الصبح ، وكان كثير يقول : ما رأيت مجلساً قط أحسن منه . عمر بن شبة عن اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال : حدثني شيخ من خزاعة قال : ذكرنا ذا الرمة وعندنا عصمة ابن مالك الفزاري وهو يومئذ ابن عشرين ومائة سنة ، فقال اياي فاسألوا عنه كان من أظرف الناس خفيف العارضين آدم حلو المضحك اذا أنشد اختصر ، وأتاني يوماً فقال : ان مية منقرية ، وان بني منقر أخبث حي وأعلمه بأثر ، فهل عندك من ناقة نزورها عليها ؟ قلت : أي والله عندي اثنتان قال : فسرنا فخرجنا حتى أشرفنا على الحي وهم خلوف ، فعرف النساء ذا الرمة فعدلن بنا الى بيت مي وأنخنا عندهن فقلن لذي الرمة : أنشدنا يا أبا الحارث ، فقال أنشدهن فأنشدتهن قوله :

نَظرتُ إلى أظعانِ مَيٍّ كأنّها ذُرَى النّخْلِ أو أثْلٌ تَميدُ ذَوائبُه

فأُشعِلَتِ النّيرانُ والصّدْرُ كاتِمٌ بمغرَورَقٍ تَمّتْ عليهِ سواكِبُه

بكى وامِقٌ جاءَ الفِراقُ ولمْ تَجُلْ جوائلَها أسرارُهُ ومَعاتِبُه

فقالت ظريفة منهن إبكي اليوم ، فمررت فيها حتى انتهيت الى قوله :

إِذا سَرَحَتْ مِنْ حُبِّ مَيٍّ سوارحٌ ... على القلبِ آبتهُ جميعاً عوازِبه

فقالت الظريفة : قتلته قتلك الله فقالت : ما أصحه وهنيئا له فتنفس ذو الرمة تنفساً كادت حرارته تساقط لحمي ، ثم مررت فيها حتى انتهيت الى قوله :

وقدْ حَلَفتْ باللهِ مَيَّةُ ما الذِي ... أقولُ لهــا إلاّ الذِي أنا كاذِبُه

إذا فرَماني اللهُ مِن حيثُ لا أرى ... ولا زَالَ في أرْضي عَدُوٌّ أُحارِبُه

فالتفتت مي الى ذي الرمــة فقالت : ويحك خف عواقب الله . ثم أنشدت الى ان انتهيت الى قوله :

إذا نازَعتْكَ القوْلَ مَيَّةُ أو بَدَا ... لكَ الوجهُ منها أو نَضا الدِّرْعَ سالبُه

فيا لكَ منْ خَدٍّ أَسِيلٍ ومَنطِقٍ ... رَخيمٍ ومِنْ خَلْقٍ يُعَلِّلُ جاذِبُه

فقالت تلك الظريفة : أما القول فقد نازعتك والوجه فقد بدالك فمن لنا بان ينضو الدرع سالبه . فقالت لهـا مي : قاتلك الله ما انكر ما تجيئين به اليوم ، فتحادثنا ساعة ثم قالت تلك الظريفة : ما احوج هذين الى الخلوة فنهضت وسائر النساء فصرت الى بيت قريب منهما حيث أراهما ، فما ارتبت بشيء ولا رأيت أمراً كرهته ، فلبث ساعة ثم أتاني ومعه قارورة وثلاث قلائد : فقال : هذا طيب زودتناه مي ، وقلائد اتحفتك بها ابنة الجودي فكنا نختلف اليها حتى انقضى المربع ودعانا الصيف فرحلوا قبلنا ، وأتاني ذو الرمة فقال : قد ظعنت مي فلم يبق الا الديار والنظر الى الآثار ، فاخرج بنا الى فخرجت معه حتى اذا وقفنا عليها أنشأ يقول :

ألا فاسْلَمي يا دارَ ميٍّ على البلى ولا زالَ مُنْهلاً بجرعائكِ القَطْرُ

حتى أتى على آخرها ، ثم انهملت عيناه بعبرة : فقلت له ما هذا ؟ فقال : اني لجليد وان كان مني ما ترى فما رأيت أحداً أحسن شوقاً وصبابة وعزاء منه . وعن سليمان راوية ابي نواس قال : كنت مع ابي نواس أسير حتى انتهينا الى درب القراطيس ، فخرج من الدرب شيخ نصراني وخلفه غلام كانه غصن بان يتثنى كاحسن ما رأيت فقال : يا سليمان أما ترى الدرة خلف البعرة ثم قال : هل لك أن تأخذ مني رقعة فتوصلها اليه ؟ قلت : بلى ، فكتبها ودفعها الي فاوصلتها اليه ، فاذا أملح غلام وأخفه روحا فقال : من صاحب الرقعة ؟ قلت : أبو نواس : قال أين هو ؟ قلت على باب درب القراطيس قال : فليقف مكانه حتى أروح وكان في الرقعة :

تَمُرُّ فأستحْيِيكَ أنْ أتكلَّما ويثنيكَ زَهْوُ الحسنِ عن أنْ تُسلِّما

ويهتزُّ في ثوبيكَ كُلَّ عشيةٍ قَضيبٌ من الريحانِ أضحى مُنعّما

فحَسْبُكَ أنَّ الجسمَ قد شفَّهُ الهوى وأنَّ جفوني فيكَ قدْ ذَرَفَتْ دَما

أليْسَ عجيبا عنـدَ كلِّ مُوَحّدٍ غَزالٌ مسيحي يعذّبُ مُسْلِما

فلوْلا دخولُ النّارِ بعدَ تَنصرٍ عَبدْتُ مكانَ اللهِ عيسى بنَ مَريما

وحدثنا الجماز قال : كنت يوماً على باب عندي عدي الدراع فمر بي ابو نواس شبيها بالمجنون ، فاذا خلفه غلام كأنه مهر عربي فقلت له مالك ؟ فقـال :

إنَّ الرَّزِيّةَ لا رَزِيَّة مثلُها عوَزُ المكانِ وقدْ تهيا المرْكبُ

فعدلت به وبالغلام ، فأقاما سائر يومها . قال : وكان عبيد الله بن

يحيى يتعشق غلاماً من دار المتوكل يقال له . رشيق ، فلا يصل اليه حتى طال ذلك عليه ، وكان أبو الاخطل يخلفه في المركب وينبسط اليه فقال له أبو عبيد الله يوماً : يا أبا الاخطل من لي برشيق فقــال : الصفر الصغار والبيض الصحاح ، وجعل عبيد الله يلقى رشيقاً في الدار فيخلو به ويساره ويعطيه مائة دينار في كل لقية الى ان علم رشيق بما في نفس عبيد الله ، وكان يتعذر عليهما الاجتماع لقضاء الوطر واللذة ، فركب أمير المؤمنين يوماً ومعه أبو الاخطل فطلب عبيد الله وتعمد أبو الاخطل رشيقاً فرده اليه ، فلما ظفر به في منزله خاليا قضى حاجته منه وركب يريـــد أمير المؤمنين مسرعاً ، فوصل الى الموكب وقد تصبب عرقاً فقال أبو الأخطل :

لا خيرَ عندي في الخليـــل ينامُ عنْ سَهرِ الخليلِ
قولوا لأكفَرِ منْ رأيـــتُ لكلِّ معروفٍ جليلِ
هلْ تشكُرَنَّ لِيَ الفَدا ةَ تلطُّفي لكَ في الرَّسولِ
إذْ نحنُ في صيْدِ الجبا لِ وأنتَ في صيْدِ السُّهولِ

(ما قيل فيه من الشعر)

وتَمشَّيْتَ في الجميل فأسرعـــتَ وإنْ كنتَ لستَ تأتي جميلا
إنَّ مَنْ مَـدَّ للقيادةِ رِجْلاً لَحرِيٌّ بأنْ يكونَ نبيلا

آخر :

لَهوَاهُ لأُئتلافِ ومَلاهُ لاُختِـلافِ
ليسَ يَقرأُ مِنْ كِتابِ الـــلهِ إلاّ لِإيـلافِ

وقال آخر :

إنَّ الرَّقاشيَّ مِنْ تَكَرُّمِه بَلَغَهُ اللهُ مُنْتَهى هِمَمِه
يَبْلُغُ مِنْ بِرِّهِ ورأفتهِ حُمْلانُ أضيافِهِ على حُرَمِهِ

(ومن محاسن ذلك) حدثنا علي بن الحسين بن علي بن عثمان بن علي ابن الحسن قال : كانت ضمير جارية مولدة لميمونة بنت الحسن بن علي بن زيد ، فأدبتها وعلمتها الغناء فبرعت فيه ، وكانت من أحسن الناس وجهاً وبدناً ، وأبرعهم غناء وضرباً ، فأعطيت بها مولاتها عشرة آلاف دينار ، فلما أرادت أن تبيعها وأحضر المال بكت وقالت : يا سيدتي ربيتيني واتخذتيني ولداً ، ثم تريدين بيعي فاتغرب عنك ولا أرى وجهك قالت : أشهد الله ومن حضر أنك حرة لوجه الله ، فلما ماتت ميمونة خطبها آل أبي طالب وغيرهم فغلب عليها جعفر بن حسن بن حسين ، فتزوجها وأحبها حباً شديداً ، فقدم بها البصرة فقال علي بن الحسين وكان يجالسها ويسمع غناءها : فأردت الخروج الى الرضي بخراسان فودعت جعفرا وخرجت فاقمت بالاهواز أياماً أتهيأ للخروج على طريق فارس فورد علي كتاب جعفر أنه قد وقع بينه وبين ضمير شر ، وأنها قد أغلظت له حتى تناولها ضرباً ، وأنها على مفارقته وسألني القدوم لاصلح بينهما فقال علي بن الحسين وكانت لي حاجة بالرضي وكنت أرجو لذلك في وجهي منه ومن المأمون الغنى ، فلما قرأت كتابه لم أعط صبرا حتى انصرفت راجعاً الى البصرة فجئت الى جعفر فأوقعت به شتما وعذلا ثم ارسلت اليها : أقسمت عليك بحقي الا رجعت فخرجت مرهاء شعثة وسخة الثياب حتى جلست بينهما ، فاقبل جعفر يعطيني من نفسه لها كل ما أريد وهي ساكتة ثم قلت : يا جارية هات العود فاخذته فأصلحت منه حتى تغنت وهي تبكي ودموعها تكف .

أرْتجي خالقي وأعلَمُ حقـا　　أنهُ مـا يَشاء رَبي كفَاني

لا تلمْني وارْفُـقْ خليلي بشَأني　　إنهُ مـا عَناكَ يوْماً عَنـاني

قال علي بن الحسين : فوالله ما رأيت أحسن منها ولا أرق من غنائها بهذا الصوت فما برحت حتى اصطلحا وألهتني والله عن الغنى . فأقمت بالبصرة . وعن الكلبي قال : بينا عمر بن أبي ربيعة يطوف بالبيت في حال نسكه ، فاذا هو بشاب قد دنا من شابة ظاهرة الجمال ، فألقى اليها كلاما فقال له عمر : يا عدو الله في بلد الله الحرام وعند بيته تصنع هذا فقال : يا عماه انها ابنة عمي وأحب الناس الي ، واني عندهـا لكذلك ، وما كان بيني وبينها من سوء قط أكثر مما رأيت قال : ومن أنت ؟ قال : أنا فلان بن فلان قال أفلا تتزوجها ؟ قال : أبي علي أبوها قال : ولم ؟ قال : يقول : ليس لك مال فقال : انصرف والقني فلقيه بعد ذلك فدعا ببغلته فركبها ، ثم أتى عم الفتى في منزله فخرج اليه فرحا بمجيئه ورحب وقرب فقال : ما حاجتك يا أبا الخطاب ؟ قال : لم أرك منذ أيام فاشتقت اليك قال : فانزل فأنزله وألطفه فقال له عمر في بعض حديثه : إني رأيت ابن أخيك فأعجبني تحركه ومـا رأيت من جماله وشبابه قال له : أجل ! ما يغيب عنك أفضل مما رأيت قال : فهل لك من ولد ؟ قال : لا الا فلانة قال : فما يمنعك أن تزوجه إياها ؟ قال : أنه لا مال له قال : فان لم يكن له مال فلك مال قال : فاني اضن به عنه قال : لكني لا أضن به عنه ، فزوجه واحتكم قال : مائة دينار قال : نعم فدفعها عنه ، وتزوجها الفتى ، وانصرف عمر الى منزله فقامت إليه جارية من جواريه فأخذت رداءه وألقى نفسه على فراشها وجعل يتقلب ، فأتته بطعام فلم يتعرض له فقالت : أظنك والله قد وجدت بعض ما كان يعرض لك من حكم النساء فـلا تكتمها فقال هات الدواة فكتب :

تقولُ وليدَتي لمَّا رَأَتني ... طَرِبْتُ وكنتُ قدْ أَقصرتُ حينا

أراكَ اليومَ قدْ أَحدثتَ شوقاً ... وهاجَ لكَ الهوى داءً دفينا

وكنتَ زعمتَ أنكَ ذو عزاءٍ ... إذا ما شئتَ فارقتَ القرينا

بِعَيْشِكَ هلْ أتاكَ لها رسولٌ ... يَسُرُّكَ أمْ لَقِيتَ لها خَدِينا

فقلتُ شكا إليَّ أخٌ مُحِبٌّ ... كبعضِ زمانِنا إذْ تعلمينا

وذو القلبِ المُصابِ ولوْ تعزَّى ... مشوقٌ حينَ يَلقى العاشقينا

فقصَّ عليَّ ما يَلقى بهندٍ ... وأشبهَ ذاكَ ما كُنَّا لقينا

فكمْ منْ خُلَّةٍ أعرضتُ عنها ... وكنتُ بودِّها دهراً ضنينا

أردتُ فراقَها فصبرتُ عنها ... ولوْ جُنَّ الفؤادُ بها جُنونا

قال : وقال عمر بن ابي ربيعة بينا انا خارج محرما اذ أتتني جارية كأنها دمية في صفاء اللجين في ثوب قصب كقضيب على كثيب فسلمت علي وقالت : أنت عمر بن أبي ربيعة فتى قريش وشاعرها ؟ قلت : أنا والله ذاك قالت : فهل لك ان اريك احسن الناس وجهاً ؟ قلت : ومن لي بذلك قالت : أنا والله لك بذلك على شريطة قلت : وما هي ؟ قالت : أعصبك وأربط عينيك وأقودك ليلا قلت : لك ذاك قال : فاستخرجت معجراً من قصب عجرتني به وقادتني حتى أتت مضربا ، فلما توسطته فتحت المعجارة عن عيني فاذا أنا بمضرب ديباج أبيض مزرر بحمرة مفروش بوشي كوفي وفي المضرب ستارة مضروبة من الديباج الأحمر عليها تماثيل ذهب ومن ورائها وجه لم أحسب أن الشمس وقعت على مثله حسناً وجمالا ، فقامت كالخجلة ، وقعدت قبالتي ، وسلمت علي تخيل لي أن الشمس تطلع

من جبينها وتغرب في شقائق خدهـــا قالت : أنت عمر بن أبي ربيعة فتى قريش وشاعرها ؟ قلت أنا ذلك يا منتهى الجمال قالت أنت القائل .

بيْنما يَنعَتْنَني أبْصرْنَنـي دون قِيدِ المِيلِ يعْدُو بي الأغَرْ
قالت الكُـبرَى أما تعْرِفْنَ ذا قالت الوُسطَى بَلَى هذا عُمَرْ
قالتِ الصُّغْرَى وقدْ تَيَّمْتُها قدْ عَرَفْناهُ وهلْ يَخفَى القمَرْ

قلت : أنا والله قائلها يا سيدتي قالت : ومن هؤلاء قلت يا سيدتي والله مـــا هو عن قصد مني ولا في جارية بعينها ، ولكني رجل شاعر أحب الغزل وأقول في النساء قالت : يا عدو الله يا فاضح الحرائر أنت قد فشا شعرك بالحجاز ، وأنشده الخليفة والامراء ، ولم يكن في جـــارية بعينها يا جواري أخرجنه فخرجت الوصائف فاخرجنني ودفعنني الى الجـــارية فعجرتني وقـــادتني الى مضربي فبت بليلة كانت أطول من سنة ، فلما اصبحت بقيت هائما لا أعقل ما أصنع ، فما زلت أرقب الوقت ، فلما كان وقت المساء جاءتني الجارية وسلمت علي وقالت : يا عمر هل رأيت ذلك الوجه قلت : أي والله قالت : فتحب أن أريكه ثانيـة ؟ قلت : اذا تكرمت فتكونين أعظم الناس علي منة ، فقالت : على الشريطة فاستخرجت المعجر وعجرتني وقادتني فلما توسطت المضرب فتحت العصابة عن وجهي ، فاذا انا بمضرب ديباج أحمر مدنر ببياض مفروش بفرش أرمني فقعدت على نمرقة من تلك النمارق فاذا أنا بالشمس الضاحية قد أقبلت من وراء الستر تتمايل من غير سكر فقعدت كالحجـــلة فسلمت علي ، وقالت : أنت عمر بن ابي ربيعة فتى قريش وشاعرها ؟ قلت : أنا ذاك ، قالت أنت القائل :

وناهِدَةُ الثَّدْيَيْنِ قلتُ لها اتكي على الرَّمْلِ في دَيْمُومةٍ لمْ توسَّدِ
فقالتْ على اسْمِ اللهِ أمْرُكَ طاعةٌ وإنْ كنْتُ قد كُلِّفْتُ ما لمْ أعوَّدِ

فما زِلْتُ في ليْلٍ طويلٍ مُلَثّماً ... لذيذَ رُضابِ المِسْكِ كالمُتَشَهِّدِ
فلمّا دَنا الإصْباحُ قالَتْ فَضَحْتني ... فقمْ غيرَ مَطْرُودٍ وإنْ شِئْتَ فازْدَدِ
فما ازْدَدْتُ منها واتّشحْتُ بِمرْطِها ... وقلتُ لِعَينيَّ اسْفحَا الدّمعَ مِنْ غَدِ
فقامتْ تُعفّى بالرّداء مكانَها ... وتَطْلُبُ شذْراً مِنْ جُمانٍ مُبدَّدِ

قلت : أنا قائلها قالت : فمن الناهدة الثديين ؟ قلت : يا سيدتي قد سبق في الليلة الاولى والله ما هو مني قصد ، ولا في جارية بعينها ، ولكني رجل شاعر أحب الغزل وأقول في النساء قالت : يا عدو الله انت قد فشا شعرك بالحجاز ورواه الخليفة وتزعم أنه لم يكن في جارية بعينها يا جواري ادفعنه فوثبت الجواري فاخرجنني ودفعنني الى الجارية فعجزتني وقادتني الى مضربي فبت في ليلة كانت أطول من الليلة الاولى ، فلما اصبحت أمرت بخلوق فضرب لي وبقيت ارقب الوقت هائماً ، فلما كان وقت المساء جاءتني الجارية فسلمت علي وقالت : يا عمر هل رأيت ذلك الوجه ؟ قلت : أي والله قالت : أفتحب ان أريكه الثالثة قلت : اذا تكونين أعظم الناس علي منة قالت : على الشريطة ؟ قلت : نعم فاستخرجت المعجر وعجرتني به وقادتني حتى أتت بي المضرب ، فلما توسطته فتحت العصابة عن عيني فاذا أنا في مضرب ديباج أخضر مدنو بجمرة مفروش بخز أحمر واذا أنا بالشمس الضاحية قد أقبلت من وراء الستر كحور الجنان فسلمت علي وقالت : انت عمر بن ابي ربيعة فتى قريش وشاعرها ؟ قلت : أنا ذاك ، قالت : انت القائل :

نَعبَ الغُرابُ ببيْنِ ذَاتِ الدُّمْلُجِ ... ليتَ الغُرابَ ببَيْنِها لمْ يَشْحَجِ
ما زِلتُ أتبعهمْ وأتبعُ عِيسَهمْ ... حتّى دُفِعْتُ إلى رَبيبةِ هَوْدَجِ

قالتْ وعيشِ أخي وحُرْمَةِ والدي لأُنبِّهنَّ الحيَّ إنْ لمْ تخرُجِ
فلثمْتُ فاها آخذاً بقُرُونِها شُربَ النّزيفِ ببرْدِ ماءِ الحشْرَجِ
فتناوَلَت كفّي لتَعْرِفَ مَسَّها بمُخضّبِ الأطرافِ غيرِ مشنّجِ

قلت : أنا قائلها ، قالت : يا عدو الله انت الذي فضحتها ونفسك وجهي من وجهك حرام ان عدت الي يا جواري أخرجنه ! فوثب الي الوصائف وأخرجنني ودفعنني الى الجارية فحجرتني وقادتني ، وقد كنت عند خروجي من مضربي ضربت يدي بالخلوق وأسدلت عليها ردائي ، فلما صرت الى باب مضربها أخرجت يدي ووضعتها على جانب المضرب وضعا بينا ، فلما أصبحت صحت بغلماني وعبيدي ولي ألف عبد من أتاني بخبر المضرب الذي ضرب فيه بكذا وكذا فهو حر لوجه الله ، فلما كان في وقت المساء أتتني وليدة سوداء ، فقالت : قد عرفت المضرب ، وهو لرملة أخت عبد الملك بن مروان فأعتقتها وأمرت لها بمائتي دينار ، وأمرت بمضربي فقلع وضرب بحذاء مضربها وكتب بالخبر الى عبد الملك بن مروان ، فكتب اليها بالرجل ، فركبت هودجها وركبت فرسي ، فزاحمتها في بعض الطريق فأشرفت علي من هودجها ، فقالت : اليك عني أيها الرجل ! قلت : خاتم أو قميص أذكرك به ، فقالت لبعض جواريها : ألقي اليه قميصا من قمصي فأخذته وأنا أقول :

فلا وأبيكَ ماصوتُ الغواني ولا شُربُ التي هي كالفُصوصِ
أرَدْتُ برِحلتي وأريدُ حظّاً ولا أكلَ الدَّجاجِ ولا الخبيصِ
قميصٌ ما يُفارقني حياتي أنيسٌ في المُقامِ وفي الشخُوصِ

وجعلت أنزل بنزولها وأركب بركوبها حتى كنا من الشام على ثلاث

مراحل : فاستقبلها عبد الملك في خاصته فدخل اليها ، ثم قال : يا رملة ألم أنهك ان تطوفي بالبيت الا ليلا يحفك الجواري ، ويحف الجواري الخدم ، ويحف الخدم الوكلاء ، لئلا يراك عمر بن ابي ربيعة ، قالت : والله وحياة امير المؤمنين ما رآني ساعة قط فخرج من عندها فبصر بمضربي ، فقال : لمن المضرب قيل لعمر بن ابي ربيعة ، قال : علي بـه فأتيته بلا رداء ولا حذاء فدخلت عليه وسلمت عليه فقال : يا عمر مـا حملك على الخروج من الحجاز من غير إذني ، قلت : شوقا اليك يا امير المؤمنين وصبابـة الى رؤيتك فأطرق ملياً ينكت في الارض بيده ، ثم رفع رأسه فقال : يا عمر هل لك في واحدة ؟ قلت : وما هي يا امير المؤمنين قال : رملة ازوجكها ، قلت : يا امير المؤمنين وان هذا لكائن ، قال : أي ورب السماء ، ثم قال قد زوجتك فادخل اليها من غير أن تعلم فدخلت عليها فقالت : من أنت هبلتك امك فقلت : يا سيدتي انـا المعذب في الثلاث فارتحلت وأنا عديلها فأنشأت أقول :

لَعَمْرِي لقدْ نِلْتُ الذي كنتُ أرْتَجي
وأصبحتُ لا أخشَى الذي كنتُ أحذَرُ
فليسَ كمِثلي اليومَ كِسرَى وهُرمُزٌ
ولا المَلِكُ النُّعمانُ مثلي وقيصَرُ

فلم أزل معها بأحسن عيش وغبطة .

٤٣ ـ محاسن الديب

الاصمعي قال : اخبرني رجل من بني أسد أنـه خرج في طلب أبل قد

ضلت فبينا هو يسير في بلاء وتعب ، وقد امسى في عشية باردة اذ رفعت له اعلام قال : فقصدت بيتاً منهـا فاذا انا بامرأة جميلة ذات جزالة فسلمت فردت علي السلام ثم قالت : أدخل فدخلت فبسطت لي ومهدت واذا في حجرها صبي أطيب ما يكون من الولدان . فبينا هي تقبله اذ اقبل رجل امام الابل دميم المنظر ضئيل الجسم كأنه بعرة دمامة واحتقارا ، فلما بصربه الصبي هش اليه وعدا في تلقائه فاحتمله وجعل يقبله ويفديه . فقلت : في نفسي أظنه عبداً لهـا ، فجاءني ووقف بباب الخيمة وسلم فرددت عليه السلام ، فقال : من ضيفكم هذا ؟ فاخبرته فجلس الى جانبها وجعل يداعبها فطفقت أنظر اليها تارة واليـه أخرى أتعجب من اختلافهما كأنها الشمس حسناء ، وكأنه القرد قبحاً ، ففطن لنظري ، وقال : يا أخا بني أسد أترى عجباً ؟ قال تقول أحسن الناس وجها . وأقبح الناس وجها فليت شعري كيف جمع بينهما ؟ أخبرك كيف كان ذلك ، قلت : ما أحوجني إلى ذلك ، قال : كنت سابع إخوتي كلهم لو رأيتني معهم ظننتني عبداً لهم ، وكان أبي وإخوتي كلهم أصحاب إبل وخيل ، وكنت من بينهم مطروحـاً لكل عمـل دني للعبودية تارة ولرعي الابل أخرى ، فبينا أنا ذات يوم تعب مكتئب اذ ضل لنا بعير فتوجه إخوتي كلهم في بغائه فلم يقدروا عليه ، فأتوا أبي وقالوا : ابعث فلاناً ينشد لنا هذا البعير ، فدعاني أبي وقال : اخرج فانشد هذا البعير ، فقلت : والله ما أنصفتني ولا بنوك أمـا إذا الابل درت ألبانهـا وطارت ركوبها فأنتم جماعة أهل البيت أربابها واذا ندت ضلالها فأنا باغيها ، فقال : قم يا لكع فاني أراه آخر يومك فغدوت مقهوراً خلق الثياب حتى أتيت بلاداً لا أنيس بها فطفقت يومي ذلك أجول في القفر ، فلما أمسيت رفعت لي أبيات فقصدت أعظم بيت منهـا فاذا امرأة جميلة مخيلة للسؤدد والجزالة ، فبدأتني بالتحية وقـالت : انزل عن الفرس وأرح نفسك فأتتني بعشاء فتعشيت ، وأقبلت هـذه تسخر مني وتقول : مـا رأيت كالعشية أطيب ريحاً منك ولا أنظف ثوبـاً ولا

أجمـــل وجهاً ، فقلت : يا هـــذه دعيني وما أنا فيه فاني عنك في شغل شاغل ، فأبت علي ، وقالت : هل لك أن تلج عـــلى السجف اذا نام الناس فأغراني والله الشيطان ، فلما شبعت من القرى وجاء أبوها واخوتها فضجعوا أمام الخيمة قمت ووكزته برجلي ، قالت : ومن أنت ؟ قلت : الضيف ، قالت : لا حياك الله اخرج عليك لعنة الله ، فعلمت أني لست في شيء من أمرها فوليت راجعاً ، فواثبني كلب لهم كأنـــه السبع لا يطاق ، فأراد أكلي فأنشب أنيابـــه في مدرعة صوف كانت علي وجعل يمزقني فردني القهقرى وتعذر علي الخلاص ، فأهويت انـــا والكلب من قبل عقبي في بئر أحسن الله الى انـ ـه لا مـاء فيهـا ، فلما سمعت المرأة الواغية أتت بحبل فـأدلته وقالت : ارتق لعنـك الله ، فوالله لولا انـــه يقتص أثري غدا لوددت أنها قبرك فأعتنقت الحبل ، فلما كدت ان اتناول يدها قضى ان تهور ما تحت قدميها ، فاذا انا ، وهي والكلب في قراره البئر بئر أيـما بئر ؟ انمـــا هي حفرة لا طي لهـا ولا مرقاة كأشد بلية بنـــا عضا ، الكلب ينبح من نـاحية ، وهي تدعي بالويـل والثبور من ناحية ، وأنا منقبع قد برد جلدي على القتل من ناحية ، فلمـا أصبحت امها فقدتها فلمـــا لم ترهـــا اتت اباها فقالت : يا شيخ أتعلم ان ابنتك ليس لها أثر يحس ؟ وكان أبوها عالما بالآثار تابعاً لها ، فلما وقف على شفير البئر ولى راجعـــا فقـــال لولده : يا بني أتعلمون ان اختـكم وضيفـــكم وكلبكم في البئر ؟ فبادروا كالسباع ، فمن بين آخذ حجرا وآخذ سيفاً أو عصا ، وهم يومئذ يريدون ان يجعلوا البئر قبري وقبرها ، فلما وقفوا على شفير البئر قال ابوهم : ان قتلتم هذا الرجل طولبتم بدمه وان تركتموه افتضحتم وقد رأيت ان ازوجها إياه ، فوالله ما يقدح لها في نسب ولا في حسب ، ثم قال لي : افيك خير ؟ فلما شممت روح الحياة وثاب الي عقلي قلت : وهل الخير كله الا في ، فهات احتكم ؟ فقال : مائة بكرة وبكرة ، وجارية وعبد ، فقلت لك ذلك وان شئت فازدد ، فأخرجت اولا ، والكلب

ثانياً ، واخرجت ثالثاً فأتيت ابي ، فقال : لا أفلحت فأين البعير ؟ قلت : اربع عليك أيها الشيخ ! فانه كان من القصة كيت وكيت . قال : أفعل والله ولا أخذ لك ، فدعا بالابل فعد منها مائة بكرة وبكرة وسقناها مع جارية وعبد وأخذت منه هذه غرة نفسها قال : والله كذلك ، وجعلت تصدف عن حديث زوجها صدوف المهرة العربية سمعت لجامها ، وربما قالت لا أطاب الله خبرك .

(ضده مساوي الديب)

قال : وقيل لخراش الأعرابي حدثنا ببعض هناتك ، قال : خرجت في بغاء ذود لي فدفعت في عشية شاتية الى أخبية كثيرة ، فضافوا وحيوا ورحبوا ، فلما أردت النوم أقاموا فتاة لهم من موضع مبيتها ، وجعلوني مكانها لئلا أتأذى بالغنم ، واني لمضطجع اذا أنا بيد انسان يجامشني ويريد في الظلمة مؤاتاتي فقعدت ، فاذا أنا برجل يمد يده ومعه علبة فيها أرنب مشوية ، فأخذتها وجعلتها في شيء كان معي ، ثم مد يده ثانياً فناولته يدي فأقبضني على غرمول كمثل الوتد ، فلم أنفر منه ولم أره وحشة وجردت ما عندي ، وتناولت يده فأقبضته على مثل ما أقبضني عليه ففطن ، ورمى بملحفة خز كانت عليه ووثب مذعوراً ، فنفرت الابل وهاجت الغنم ، وكدت أغشى لما بي من الضحك وأخفيت ما بي وكتمته ، فلما أصبحت ركبت راحلتي ، ومعي الملحفة ، والعلبة ، والأرنب . فلما امتد الضحى اذا أنا بابل وأخذت نحوها ، فاذا شاب حسن الهيئة فسلمت عليه فرد السلام ثم قال : ان كان معك ما نأكل فصب من هذا الوطب فأخرجت العلبة ، فلما رآها عرفها وقال : انك هو ، قلت : وما هو قال : صاحب البارحة ، قلت : نعم ان كنت اياه ، قال ؟ الحمد لله الذي أتى بك لو لم تأت لظننت

اني أوسوس ، وذلك اني لصاحبة الستر عاشق ، وتعلم ما فعلت وفعلت البارحة ، ولا تطيقت له حتى ابتلاني الله بك البارحة ، وجعلت أقول حين أقبضتني عليه أتراها تحولت رجلا ، واني افي شك من امري حتى أتاني الله بك ، فأكلت انا وهو الأرنب وشربنا من اللبن وصرنا اصدقاء

الأصمعي قال : أتى خالد بن عبد الله أعرابي فأضافه واحسن اليه وبذل له صحن الدار ، فلما كان في بعض الليل اشرف عليه يتعاهد منه ما كان يتعاهد من ضيفه ، فاذا هو قد دب على جارية وهو على بطنها فأعرض عنه ، فما لبث الأعرابي ان فرغ وقام يمسح فيشلته ، فضربته عقرب ، فصاح واستغاث ، وأشرف خالد عليه وهو يقول :

ودارِي إِذَا نامَ سُكَّانُها ... تُقيمُ الحُدُودَ بها العقْرَبُ
إِذا غَفلَ النَّاسُ عن دِينِهِمْ ... فإِنَّ عقَارِبَنا تَغضَبُ

قال : وكان اعرابي ضيفاً لقوم فنظر الى جارية جميلة فدب اليها ، فاذا عجوز في صحن الدار تصلي فعاد الى فراشه ، ثم عاودها فنبح الكلب ، ثم عاد اليها ، فاذا القمر قد طلع فأنشأ يقول :

لمْ يَخْلُقِ اللهُ خَلْقاً كُنْتُ أَكْرَهُهُ ... إِلاَّ العَجوزَ وعيْنَ الكَلْبِ والْقَمَرِ
هُذا يَصيحُ وهـذا يُستَضاءُ بهِ ... وهـذهِ شَيخَةٌ قَوَّامَةُ السَّحَرِ

وقال : وشرب سعيد بن حميد البصري عند راشد فدب على غلامه ، فكتب اليه سعيد :

ما سَمِعْنا مِنْ قَبْلَها بأديبٍ ... بارِعِ الظَّرفِ ماجِدٍ قمْقامِ
ضَلَّ عَنْهُ وهْوَ المُهذَّبُ عِلْماً ... فَتَكاتُ الكُئُوسِ بالأحْلامِ

أينَ ماجاءَ مِنْ حديثِ رسولِ الـ … لهِ مَوْلايَ سيِّدِ الْحُكّامِ
ما على مُنْقِلٍ مِنَ النَّوْمِ والسكْـ … رانِ عَيْبٌ فيما أتى مِنْ أثامِ
ثُمَّ أينَ الّذي بهِ حكمَ المأ … مونُ في الظَّرْفِ منهُ والإسْلامِ
أيُّما ماجدٍ أرادَ سُروراً … باجتماعٍ مِنْ مَعْشَرِ النُّدّامِ
فعلَيْهِ طيُّ البساطِ بما قدْ … مَنَّهُ السُّكْرُ مِنْ قبيحٍ وذامِ
حُلْتَ بَيْني وبيْنَ عَقْلي بأرْطا … لكَ والمُتْرَعاتِ مِنْ كُلِّ جامِ
ثُمَّ وَكَّلْتَ في العُسوفِ رَشيقاً … فسقاني بطَرْفِهِ والمُدامِ
ثُمَّ باكرْتني بِعتْبِكَ واللّوْ … مِ لقدْ حِدْتَ عَنْ سَبيلِ الكِرامِ
وتغضَّبْتَ أنّني قُذْتُ عمْراً … ثُمَّ ثنّيْتُ بَعْدَهُ بِغَرامِ
هَلْ رأيْتَ الإلهَ يأخُذُ مجنو … ناً بسُكْرٍ أوْ حالِماً في مَنامِ
لَنْ تَراني مُعاشِراً لَكَ ما عشْـ … تَ وَلَوْ دُمْتَ عائشاً ألفَ عامِ
أوْ تُرى تائباً وتَستغفرَ اللّـ … هَ لِما كانَ مِنْ شنيعِ الكَلامِ

فاجابه راشد فقال :

يا أبا جعْفرٍ سَليلَ المعالي … ونجيبَ الاخوالِ والأعْمامِ
إنْ يكُنْ قدْ أتاكَ عنّي مَزْحٌ … لمْ يكُنْ عَنْ حقيقةٍ في الكَلامِ
أوْ أكُنْ فيهِ كالّذي كانَ يغْدُو … بمَلامٍ عليْكَ في الُّوّامِ
إنّني عالِمٌ بأنّكَ لمْ تأ … تِ قَبيحاً ولا ارْتكابَ الأثامِ

هُوَ ذَنْبُ المُدامِ لا ذَنْبُ خِلٍّ ... لَمْ يَزَلْ حافِظاً لِعَهْدِ النِّدامِ

ثُمَّ ذَنْبُ الْعُيونِ يا بْنَ حُميدٍ ... فلَهُ الذَّنْبُ بَعْدَ إِسْتِ غرامِ

قَعَدا في طَريقِ أيرِكَ حَتّى ... عَرَّضاهُ لِلظَّنِّ والاتِّهامِ

فَتَغَمَّدْ أخاكَ بِالصَّفْحِ فالصَّفْحِ دَليلُ عَلى سَجايا الكِرامِ

إِنَّني تائِب وأَسْتَغفِرُ اللّٰهَ ... لِما كانَ مِنْ شَنيعِ الْكَلامِ

ما قيل في ذلك من الشعر :

فما أَعْيُنٌ عشْرٌ عَلى ساقِ نَرْجِسِ

تُضاحِكُ عيْنَ الشمْسِ بِالْمُقلِ الصُفْرِ

بِأَحْسَنَ مِمَّنْ زارَني بَعْدَ هَجْعَةٍ

يَميسُ هُوَيْنا في الظَّلامِ عَلى ذُعْرِ

قال : ودب رجل على قينة في مجلس فغنت :

ماذا يُشَوِّشُ طُرَّتي ... يا قَوْمُ في وَقتِ السَّحَرْ

ماذا يُعالِجُ تِكَّتي ... وَيْلاهُ عَذَبَني السَّهَرْ

وقال علي بن حمزة :

مُتَوَرِّدُ الخَدَّيْنِ مِنْ خَجَلِ ... مُتَخاذِلُ الأَعْضاءِ مِنْ كَسَلِ

خاضَ الدُّجا والشَّوْقُ يَحمِلُهُ ... وأتاكَ يَمشي غيرَ مُنتعِلِ

ما راعني إلاّ تَدافُعهُ ... كالغصنِ بينَ الصَّدْرِ والكَفَلِ

وقال عمر بن ابي ربيعة المخزومي :

قالتْ وأبثثتُها سِرّي وبُحتُ بهِ   قدْ كُنتَ عندي تحبُّ السّترَ فاستَترِ
ألسْتَ تُبْصِرُ مَنْ حولي فقُلْتُ لها   غطّي هواكِ وما ألقى على بَصَري

٤٤ ـ محاسن الباه

حكي عن عالج جارية مكشوح انها حدثت مولاتها انها كانت تغتسل كل يوم فسألتها عن ذلك ، فقالت : يا هذه انه يجب على المرأة ما يجب على الرجل بعد احتلامه ، قالت : أو تحتلمين ? قالت : إنه لا تأتي علي ليلة لا اجامع فيها الا واحتلم ، قالت : فكيف يكون ذلك ? قالت : أرى كأن رجلا جامعني ، ولقد رأيت ليلة كأني مررت بدكان أبي مالك الطحان وبغل له واقف قد أدلى ورماني تحته واولجه فاحتلمت ، ثم انتبهت وانا أجد معكة في مراق بطني ولذة في سويداء قلبي وكان هذا البغل اذا أدلى حك الارض برأس أيره وضرب به في بطنه فترى الغبار يتطاير عن يمينه وشماله . قال : وكانت مهدية بنت جبير التغلبية تقول : ما في بطن الرجل بضعة أحب الى المرأة من بضعة تناط بعقد الحالبين ومنفرج الرجلين حدثني جهم قال : قلت لأمرأة من كلب ما أحب الاشياء من الرجال الى النساء قالت : ما يكثر الاعداد ، ويزيد في الاولاد حربة في غلاف تناط بحقوي رجل جاف ، اذا غافس أوهى ، وإذا جامع أنجى قال . وقال ابو ثمامة لامرأة من زبيد وهي تبكي عند قبر من الميت قالت : كان يجمع بين حاجبي والساق ويهزني هز الصارم الاعناق ، ووالله لولا ما ذكرته لك ما استهلت بالدموع عيناي وقد كذبتك امرأة تبكي على زوجها لغير ما أعلمتك . قال

وركب الرشيد حماراً مصريا وطاف على جواريه ، فقالت له واحدة : يا مولاي ما أكثر ما تركب هذا الحمار ، قال : لانه يسب طيفور ، قالت : فمن يسب طيفور يركب ، قال : نعم قالت ففي حرأم طيفور ، قال : فنزل ووقعها وأنشد في مثله :

نَظرْتُ إليها حينَ مرّتْ كأنَّها على ظَهْرِ عادِيٍّ فتَاةٌ مِنَ الجِنِّ
ولي نَظرٌ لوْ كانَ يُحبِلُ ناظرٌ بنَظْرَتهِ أُنثى لقدْ حَبلتْ منّي

ضده في مساوئ العنين

قال بعضهم : تزوج العجاج امرأة يقال لها : الدهناء بنت مسحل فلم يقدر عليها ، فشكت ذلك الى أهلها فسألوه فراقها فأبى وقال لابيها : تطلب لابنتك الباه ، قال : نعم عسى أن ترزق ولداً ، فان مات كان فرطا وان عاش كان قرة عين فقدموه الى السلطان فاجله شهراً ثم قال :

قدْ ظنّتِ الدّهنا وظَنّ مِسْحَلُ أنّ الأميرَ بالقَضاء يُعْجِلُ
عَنْ كَسَلاَتي والحِصانُ يَكْسَلُ عنِ السِّفادِ وهو طِرْفٌ هَيكلُ

ثم أقبل على امرأته فضمها الى صدره فقالت :

تنَحَّ لنْ تَمْلِكَني بضَمٍّ ولا بتَقبيلٍ ولاَ بشَمٍّ
إلاّ بزَعزاعٍ يُسَلّي هَمّي يَسْقُطُ منهُ فتَخي في كُمّي
يَطيرُ منهُ حَزَني وغَمّي

ابن ابي الدنيا أن أعرابياً أخبره أن امرأة منهم زفت الى رجل فعجز

عنها فتذاكر الحي امر الضعفاء من الازواج عن الباه وامرأة الاعرابي تسمع فتكلمت بكلام ليس في الارض أعف منه ، ولا أدل على عجز الرجل عن النساء فقالت متمثلة :

تَبيتُ المَطايا حائدَاتٍ عنِ الهُدَى
إذا ما المَطايا لمْ تَجِدْ مَنْ يُقيمُها

الرقاشي قال : حدثني أبو عبيدة قال : سمعت ناساً من الحجاز يقولون : تزوج رجل منا امرأة فعجز عنها الا أنه اذا لامسها ابتأر فيها نقضي ان حملت ، وما مكثت الا ان رأس ولدها ، فجلس في المجلس فقال له قائل : لقد جئت من بلل قليل ، قال : جئت من بلل لو أصاب مغيض أمك لكان كما قال الشاعر :

رَطْبُ الطِّباعِ إذا حَرَكْتَ جَوهرَهُ وَجَدْتَ أعضاءَهُ غَرْقَى منْ البَلَلِ
ولمْ أُهجِّنْهُ إلاّ أنّهُ رجلٌ قَلَّتْ سَلاَمَتُهُ منْ جانبِ الكَفَلِ

الهلالي قال : رأيت وافر بن عصام يساير المهدي ، فحدثه بحديث فضحك ، فقلت له : حدثني ما حدثت به المهدي قال سألني ما عندك للنساء ؟ فقلت : ما لهن عندي الا حديث ابن حرم ، قال : وما حديثه ؟ قلت : عمر حتى بلغ الثمانين ، فتزوج ابنة عم له ، فلما أهديت اليه قعد بين شقيها ، فاكسل وأراق على بطنها ، فأقبل عليها كالمعتذر ، فقال : هذا خير من الزناء ، قالت : كل ذلك لا خير فيه . قال : وشكت امرأة زوجها ، وأخبرت عن عجزه انه اذا سقط عليها انطبق والنساء يكرهن وقوع الرجل على صدورهن فقالت : زوجي عياياء طباقاء وكل داء له داء وقيل في ذلك :

جزَاكَ اللهُ شرًّا مِنْ رَفيقٍ ... إذا بُلِّغْتَ مِنْ رَكْبِ النِّساء
رَماكَ اللهُ مِنْ عِرقٍ بأفعى ... ولا عافاكَ مِنْ جَهْدِ البلاَء
أجُبْناً في الكَرِيهةِ حينَ تَلْقى ... و نَعظاً حينَ تغبُرُ في الخلاءِ

٤٥ ـ محاسن النيروز والمهرجان

قال الكسروي : كان اول من ابدع النيروز ، وأسس منازل الملوك ، وشيد معالم السلطان ، واستخرج الفضه والذهب والمعدن ، واتخذ من الحديد آلات ، وذلل الخيل وسائر الدواب واستخرج الدر ، وجلب المسك والعنبر وسائر الطيب ، وبنى القصور ، واتخذ المصانع ، واجرى الانهار كيا خسرو ابن ابرويز جهان وتفسيره حافظ الدنيا بن ارفخشد بن سام بن نوح عليه السلام ، وكان الاصل فيه انه في النيروز ملك الدنيا وعمر اقاليم إيران شهر ، وهي ارض بابل ، فيكون النيروز في اول ما اجتمع ملكه واستوت اسبابه فصارت سنة ، وكان في ملكه ألف سنة وخمسين سنة ، ثم قتله البيوراسف ، وملك بعده ألف سنة الى أفريدون بن أثفيان وفيه يقول حبيب :

وَكأنّهُ الضّحّاكُ في فتَكَاتهِ ... بالعَالَمِينَ وأنْتَ أفرِيدُونُ

فطلب البيوراسف وملك بعده ألف سنة وخمسين سنة واسره بأرض المغرب وكبله وسجنه بجبل دنباوند ، واستوفى عدة ما كتب الله له من عمره ، وانفق لأفريدون سجن البيوراسف يوم النصف من مهرماه ومهرروز فسمى ذلك اليوم المهرجان ، فالنيروز لجم والمهرجان لأفريدون ، والنيروز أقدم من المهرجان بألفي وخمسين سنة ، وقسم جم ايام الشهر ، وجعل الخمسة

الأيام الأولى للأشراف وبعدها خمسة أيام نيروز الملك يهب فيها ويصل ، ثم بعدها خمسة ايام لخدم الملك ، وخمسة ايام لخواص الملك ، وخمسة لجنده ، وبعدها خمسة ايام للرعاع فذلك ثلاثون يوماً ، وابتدع المهرجان افريدون لما اسر البيوراسف روز مهر ، وكان الملك اذا لبس زينته ولزم مجلسه في هذين اليومين أتاه رجل رضي الاسم مختبر باليمن طلق الوجه ذلق اللسان ، فيقوم قبالة الملك ، ويقول ائذن لي بالدخول فيسأله من أنت ومن ابن جئت وابن تريد ومن سار بك ومع من قدمت وما الذي معك؟ فيقول : جئت من عند الايمنين ، وأريد الاسعدين ، وسار بي كل منصور ، واسمي خجسته اقبلت معي السنة الجديدة ، وأوردت الى الملك بشارة وسلاماً ورسالة فيقول الملك : ائذنوا له فيقول له الملك : ادخل ويضع بين يديه كوباً من فضة قد جمع في نواحيه أرغفة قد خبزت من أنواع الحبوب من البر والشعير والدخن والذرة والحمص والعدس والارز والسمسم والباقلي واللوبيا ، وجمع من كل صنف من هذه الحبوب سبع حبات فجعل في جوانب الخوان ووضع في وسطه سبعة من قضبان الشجر التي يتفاءل بها وباسمها ويتبرك بالنظر اليها كالخلاف والزيتون والسفرجل والرمان ، منها ما يقطع على عقدة ، ومنها على عقدتين ومنها على ثلاثة ، ويجعل كل قضيب باسم كورة من الكور ، ويكتب في مواضع ابزود وابزائد وابزون وبروار وفراخى وفراهيه تأويله زاد ويزيد وزيادة ورزق وفرح وسعة — ويوضع سبع سكرجات بيض ودراهم بيض من ضرب سنته ودينار جديد وضغث من أسبند ، ويتناول ذلك كله ، ويدعو له بالخلود ودوام الملك والسعادة والعز ، ولا يؤامر يومه في شيء اشفاقاً من أن يبدو منه ما يكره فجرى على سنته ، وكان اول ما يقدم اليه صينية ذهب أو فضة عليها سكر أبيض وجوز هندي مقشر رطب وجامات فضة أو ذهب ، ويبتدىء باللبن الحليب الطري منه قد أنقع فيه تمر طري ، فيتناول بالنارجيل تميرات ويتحف من أحب منه ويذوق ما أحب من الحلوى ، وكان يرفع في كل يوم من أيام النيروز باز أبيض ، وكان ممن يتيمن بابتدائه

في هذا اليوم لقمة من اللبن الصرف الطري والجبن الطري ، وكان جميع ملوك فارس يتبركون بذلك وكان يسرق له في كل يوم نيروز ماء في جرة من حديد أو فضة ويقول : استرق هذا الاسعدين ويتحمل الايمنين ، وجعل في عنق الجرة قلادة من يواقيت خضر منظمة في سلك الذهب ممدود فيها خرز من زبرجد أخضر ، ولم يكن يسرق ذلك الماء الا الابكار من أسافل دارات الارحاء وصنائع الغنى ، فكان متى اجتمع النيروز في يوم السبت أمر الملك لرأس الجالوت بأربعة آلاف درهم ، ولم يعرف له سبب أكثر من ان السنة جرت منهم بذلك فصارت كالجزية ، فكان يبني قبل النيروز بخمسة وعشرين يوماً بي صحن دار الملك اثنتا عشرة اصطوانة من لبن ، تزرع اصطوانة منها براً ، واصطوانة شعيراً ، وأخرى أرزاً ، وأخرى عدساً ، وأخرى باقلى ، وأخرى دخنا ، وأخرى ذرة ، وأخرى لوبيا ، وأخرى حمصاً ، وأخرى سمسماً ، وأخرى ماشاً ، ولم يكن يحصد ذلك الا بغناء وترنم ولهو ، وكان يوم السادس من يوم النيروز ، واذا حصد بثر في المجلس ، ولم يكسر الى روز مهر من ماه فرور دين ، وانما كانوا يزرعون هذه الحبوب للتفاؤل بها ، ويقال : أجودها نباتاً وأشدها استواء دليل على جودة نبات ما زرع منها في تلك السنة ، فكان الملك يتبرك بالنظر الى نبات الشعير خاصة وكان مؤدب الرماة يناول الملك يوم النيروز قوساً وخمس نشابات ، ويناول الملك قيمه على دار المملكة أترجه ، فكان فيما يغني بين يدي الملك ، غناء المحاطبة ، وأغاني الربيع ، وأغاني يذكر فيها ابناء الجبابرة وتوصف الانواء ، وأغاني أفرين ، والخسرواني ، والماذراستاني ، والفهلبد وكان أكثر ما يغني العجم الفهلبد مع أيام كسرى أبرويز ، وكان من أهل مرو ، وكان من أغانيه مديح الملك وذكر أيامه ومجالسه وفتوحه ، وذلك بمنزلة الشعر في كلام العرب يصوغ له الالحان ، ولا يمضي يوم الا وله فيه شعر جديد وضرب بديع ، وكان يذكر الاغاني التي يستعطف بها الملك ويستميحه لمرازبته وقواده ويستشفع لمذنب . وان حدثت حادثة

أو ورد خبر كرهوا انهائه اليه قال فيه شعراً وصاغ له لحنا كما كان فعل حين نفق مركوبه شبديز ولم يجسروا على انهاء ذلك فغنى بها وذكر أنه ممدود في آريه ماد قوائمه لا يعتلف ولا يتحرك فقال الملك : هذا قد نفق اذاً قال : أنت قلت ذلك أيها الملك وكان يضطر بأشعاره أن يتكلم بالذي يكره عما له أن يستقبلوه به .

(العلة في صب الماء) ذكروا أن العلة في صب الماء : أنه كان أول من تكلم في المهد قبل المسيح زو بن طهماسب ، وكان مات أبوه على قحط شديد قد شمل الاقاليم ، فتكلم ودعا الله تبارك وتعالى ، فسقي الناس الغيث ، وأخصبت أرضهم ، وعاشت مواشيهم ، فجعلوا صب الماء فيه سنة . وقد حكي أيضاً عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين صلوات الله عليه أنه قال في ذلك : ان ناساً من بني اسرائيل أصابهم الطاعون فخرجوا من مدينتهم هاربين الى أرض العراق ، فبلغ كسرى خبرهم فأمر أن يبني لهم حظيرة يجعلون فيها لترجع أنفسهم اليهم ، فلما صاروا في الحظيرة ماتوا وكانوا أربعة آلاف نفس ، ثم ان الله تبارك وتعالى أوحى الى نبي ذلك الزمان : ان رأيت محاربه بلاد كذا فحاربهم ببني فلان فقال : يا رب كيف احاربهم بهم وقد ماتوا : فأوحى الله اليه : اني أحييهم لتحارب بهم وتظفر بعدوك ، فأمطر الله عز وجل ليلة صب الماء فأصبحوا أحياء فهم الذين قال الله تعالى فيهم «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» قال : هؤلاء قوم أصابهم محنة من الازل قحطوا زماناً فهزلوا وأجدب بلادهم فغيثوا في هذا اليوم برشة من مطر فعاشوا وأخصبت بلادهم فجعله الفرس سنة .

(صفة الايام) قال كسرى : يوم الريح للنوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للهو والشرب ، وقال غيره : يوم السبت يوم مكر وخديعة ، والاحد يوم غرس وبناء ، ويوم الاثنين يوم سفر وطلب رزق ، والثلاثاء يوم حجامة ، والاربعاء يوم ضنك ونحس ، والخميس يوم الحج ، والجمعة

يوم مسجد ونساء وكساء .

(في البرد) سئل بعض الحكماء عن البرد أيه أشد . فقال : اذا أصبحت السماء نقية ، والارض ندية ، والريح شامية .

٤٦ ــ محاسن الهدايا

قال : وكتب الناس في الهدايا فأكثروا من الكلام المنثور والشعر الموزون وكل يكتب ويقول بمقدار عقله وعلمه حتى قالوا : انها قرابة وصلة كالرحم الماسة والقرابة القريبة وكلحمة النسب ، وأكثروا من الشفيع لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تهادوا وتحابوا) ، وقيل : الهدية تفتح الباب المصمت ، وتسل سخيمة القلب . وروى عن عائشة أنها قالت : اللاطفة عطفة وتزرع في القلوب المحبة . قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها ما هو خير منها . وقال عليه الصلاة والسلام (لو أهدى إلى ذراع لقبلت ولو دعيت إلى كراع لأجبت) . وقال عليه الصلاة والسلام (الهدية رزق من الله عز وجل فمن أهدى إليه شيء فليقبله) وقال صلى الله عليه وسلم (نعم الشيء الهدية أمام الحاجة ما أرضي الغضبان ولا أستعطف ولا أستميل الهاجر ولا توقي المحذور بمثل الهدية والبر) وقال الله عز وجل « وإنّي مُرْسِلَةٌ إلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمانُ قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَما آتانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أنْتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ » وروى أن عاملا لعلي رضى الله عنه قدم من بعض الاطراف فأهدى إلى الحسن والحسين سلام الله عليهما ولم يهد إلى ابن الحنفية فقال متمثلا :

وَمَا شَرُّ الثَّلاثَةِ أُمَّ عَمْرٍو   بِصَاحِبِكِ الَّذِي لاَ تَصْبَحِينا

فأهدى العامل إليه كما اهدى الى اخويه . وروي عن أمير المؤمنين علي

عليه السلام أن قوماً من الدهاقين أهدوا إليه جامات فضة فيها الاخبصة فقال : ما هذا ؟ قالوا : يوم نيروز ، فقال : نيروزنا كل يوم فأكل الخبيص ، وأطعم جلساءه ، وقسم الجامات بين المسلمين ، وحسبها لهم في خراجهم . وقيل : إن جلساء المهدي إليه شركاؤه في الهدية ، والهدية تجلب المودة وتزرع المحبة ، وتنفي الضغينة ، وتركها يورث الوحشة ويدعو إلى القطيعة ، والهدية تصير البعيد قريباً ، والعدو صديقاً ؛ والبغيض ولياً . والثقيل خفيفاً . والعبد حراً ، والحر عبداً ، وفيها قول الشاعر .

مَامِنْ صَدِيقٍ وَإِنْ أَبْدَى مَوَدَّتَهُ يَوْماً بِأَنْجَحَ فِي الْحَاجَاتِ مِنْ طَبَقِ

إِذَا تَقَنَّعَ بِالْمَنْدِيلِ مُنْطَلِقاً لَمْ يَخْشَ نَبْوَةَ بَوَّابٍ وَلاَ غَلَقِ

لاَ تُكْثِرَنَّ فَإِنَّ النَّاسَ مُذْ خُلِقُوا لِرَغْبَةٍ كُلُّ مَا يُعْطُونَ أَوْ فَرَقِ

وقال آخر :

إِذَا أَرَدْتَ قَضَاءَ الْحَاجِ مِنْ أَحَدٍ قَدِّمْ لِنَجْوَاكَ مَا أَحْبَبْتَ مِنْ سَبَبِ

إِنَّ الْهَدَايَا لَهَا حَظٌّ إِذَا وَرَدَتْ

أَحْظَى مِنَ الاِبْنِ عِنْدَ الْوَالِدِ الْحَدِبِ

وقد قيل : كل يهدي على قدره . وذكروا ان سليمان بن داود عليهما السلام بينا هو يسير بالريح إذ أتى على عش قنبرة . فيها فراخ لها فأمر الريح فعدلت عن العش ، فلما نزل وافق يومه ذلك النيروز ، فجاءت تلك القنبرة حتى رفرفت على رأس سليمان وألقت في حجره جرادة فقيل له في ذلك فقال : كل يهدي على قدره : وكان مما تهديه ملوك الامم إلى ملوك فارس طرائف ما في بلدهم ، فمن الهند الفيلة والسيوف والمسك والجلود ، ومن تبت والصين المسك والحرير والسك والاواني ، ومن السند الطواويس

والبيغا ومن الروم الديباج والبسط ، وكان القواد والمرازبة والاساورة يهدون النشاب والاعمدة المصمتة من الذهب والفضة ، والوزراء والكتاب والخاصة من قراباتهم جامات الذهب والفضة المرصعة بالجوهر وجامات الفضة الملوحة بالذهب ، والعظماء والاشراف البزاة والعقبان والصقور والشواهين والفهود والسروج وآلاتها ، وربما أهدى الرجل الشريف سوطاً فقبله ، وكانت الحكماء يهدون الحكمة ، والشعراء الشعر ، واصحاب الجوهر الجوهر ، وأصحاب نتاج الدواب الفرس الفاره والشهري النادر والحمار المصري والبغال الهماليج ، والظرفاء قرب الحرير الصيني مملوءة ماورد ، والمقاتلة القسي والرماح والنشاب ، والصياقلة والزرادون نصول السيوف والدروع والجواشن والبيض والاسنة ، وكانت نسوة الملك تهدي إحداهن الجارية الناهدة والوصيفة الرائقة والاخرى الدرة النفيسة والجوهرة المثمنة وفص خاتم وما لطف وخف ، وأصحاب البز الثوب المرتفع من الخز والوشي والديباج وغير ذلك ، والصيارفة نقر الذهب والفضة وجامات الفضة مملوءة دنانير ، وأوساط الناس دنانير ودراهم من ضرب سنتهم مودعة أترجة أو سفرجلة أو تفاحة ، والكاتب واقف يكتب كل مهد وجائزة كل من يجيزه الملك على هديته ليودع ذلك ديوان النيروز .

ومن الهدايا التي لم يسمع السامعون بمثلها هدية ابرويز إلى ملك الروم بعقب محاربة بهرام جوبين وقد شارف الروم ، فأنفذ رسولا يستنجده وبعث اليه مائة غلام من ابناء الأتراك مختارين في صورهم ونفوسهم في آذانهم أقرطة الذهب معلق فيها حب الدر على مراكب بسروج الذهب منظمة باليواقيت والزمرد ، وبعث معه بمائدة من عنبر فتحها ثلاثة أذرع مكللة المستدار بالدر لها ثلاث قوائم من ذهب : احداها ساعد أسد مع كفه ، والاخرى ساق وعل مع ظلفه ، والثالثة كف عقاب في كف الاسد ياقوتة خضراء ، وبين ظلفي الوعل ياقوتة حمراء ، وفي كف العقاب قبجة من اللازورد عيناها ياقوتتان حمراوان تتوقدان حمرة ، وفي وسط

المائدة جام من جزع يماني فاخر فتحه شبر في شبر مملوء يواقيت حمرا وسفط ذهب فيه مائة درة كل درة مثقال ومائة لؤلؤة كل لؤلؤة مثقال ومائة خاتم من ذهب مرصع بالجوهر مشبك الاعلى حشوه مسك وعنبر ، ووصل رسل أبرويز الى ملك الروم بهذه الهدية فأنجده وأرسل اليه عشرين ألف فارس بالسلاح الشاك ، وبعث اليه بألفي ألف دينـار لارزاق جنده وألف ثوب منسوج وعشرين جـارية من بنات ملوك الصقالبة بأقبية الديباج المطير في آذانهم أقرطة الذهب المزينة بالدر والياقوت وعلى رؤسهن أكلة الجوهر ، وأنفذ اليه عشرين مركباً على كل مركب صليب تحت كل صليب ألف فارس وألف برذون وألف شهري وألف بغلـة وألف نجيب بسروج مـذهبة وأكف مذهبة ولجم من ذهـب مصبوب وبرادع مذهبة وجلال وبراقع ديباج منسوج بالذهب واللؤلؤ وأوقر البغال من السندس والاستبرق والذهب واللؤلؤ ، وبعث اليه مساحة جريب أرض من ذهب فيه نخـل من ذهب سعفه الزمرد وطلعـه اللؤلؤ وشماريخه الياقوت الاحمر وكربه الجزع ، وبعث اليـه ألف ألف لؤلؤة كل لؤلؤة ألف دينار ، وبعث اليـه ألف ألف درهم مثاقيله ألف ألف دينار خسرواني وأتى بـه واعتذر اليه من التقصير ، فقابله ملك الروم عامه المقبل يوم النيروز بفارس من ذهب على شهري من فضة عينا الشهري جزع أبيض محدق بسواد وناصيته وعرفه وذنبه شعر اسود بيد الفارس صولجان من ذهب والى جانبه ميدان من فضة في وسط الميدان كرة عقيق احمر يحمل الميدان ثوران من فضة والشهري يبول الماء فاذا بال انحط الصولجان على الكرة فمر بها الى أقصى الميدان فتحرك بحركاتها الثوران والميدان ويركض الفارس على عجل تحت حوافر الشهري . فامـا أهـل الاسلام فـلم يسمع بمثل هديـة حسان النبطي الى هشام بن عبد الملك ، فانه أهدى اليه وإلى أمهات أولاده هدايا كثيرة من الكساء والعطر والجوهر وغيرها فاستكثرها هشام وقال : بيت المال أحق بهذا ، ثم أمر فنودي عليها فبلغت مائة ألف دينار ، فبعث حسان اثمانها وقال :

يا أمير المؤمنين قد طابت الآن هذه مائة ألف دينار تحمل الى بيت المال، فاقبل هديتي فقبلها ونادى على مناديه حسان سيد موالي أمير المؤمنين قد طابت الآن هذه واستملح المأمون من أبي سلمة ذكر هدية لطيفة قال : اهـــدي الى أمير المؤمنين خواناً من جزع ميلا في ميل فقال المأمون : او قبضت الهدية ؟ قيل : نعم قال : أفهي في داري أم داري فيها ؟ قال: بل هي في منديل فدعي بهديته فاذا خوان من جزع عليه ميل من ذهب قد صنع من مائة مثقال بطول الخوان وعرضه فاستملحه وقبله . واهدت اسماء بنت داود الى اسماء بنت المنصور مـائة مركن من فضة فيهـا انواع اللخالخ والريحـان المطيب ، ومـائة جفنـة مطيبة ، وانواع من الأطعمة والاشربة ، وعشراً من الوصائف في قد واحد فقومت هديتها فبلغت خمسين ألف دينار . وبعث الحسن بن وهب الى المتوكل بجام من ذهب فيه الفا مثقال من العنبر وكتب اليه :

يَا إِمَـامَ الهُدَى سُعِـدْتَ مِنَ الدَّهرِ بِركْـنٍ مِنَ الإِلَهِ عَزيزِ

وبظلٍّ مِـنَ النَّعيمِ مَدِيدٍ وبِحِرْزٍ مِـنَ اللَّيالي حَرِيزِ

لا تَزَلْ ألفَ حِجَّةٍ مِهْرَجانٍ أنتَ تُفْضِي بهِ إلى النَّـيْرُوزِ

ونعيمٍ ألذَّ مِنَ نَظَرِ المَعشوقِ مِنْ بَعـدِ نبوةٍ ونُشوزِ

قال خالد المهلبي : أهديت الى المتوكل في يوم نيروز ثوب وشي منسوج بالذهب ومشمة عنبر عليها فصوص جوهر مشبك بالذهب ودرعا مضاعفـــة وخشبة بخور نحو القامة وثوباً بغدادياً يقطع ثوبا فأعجبه حسنه ثم دعا بـــه فلبسه ، وقال : يا مهلبي انما لبسته لأسرك به فقلت : يا أمير المؤمنين لو كنت سوقة لوجب على الفتيان تعلم الفتوة منك فكيف وأنت سيد الناس ، وأحسن من جميع ما تقدم ذكره قول عبدالله العباسي والى الحرمين فانـــه قال : هذا يوم يهدى فيه الى السادة والعظماء ، والواجب أن أهدي إلى

سيدي الأكبر ، ثم دعا بعشرة آلاف دينار فقسمها على أهل الحرمين ، فكانت فكرته في هذا أحسن من فعله .

(التلطف في الهدايا) كتب سعيد بن حميد إلى بعضهم : النفس لك والمال منك غير أني كرهت أن أخلي هذا اليوم من سنة فأكون من المقصرين ، أو أدعي أن في ملكي ما يفي بحقك فأكون من الكاذبين . وقد وجهت اليك بالسفرجل لجلالته ، والسكر لحلاوته ، والدرهم لنفاقه ، والدينار لعزه ، فلا زلت جليلاً في العيون ، مهيباً في القلوب ، حلواً لاخوانك كحلاوة السكر ، عزيزاً عند الملوك ، لا تحسن أفنيتهم إلا بك ، ولا زلت نافقاً كنفاق الدرهم . وأهدى أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدي وكتب اليه : الامراء أعزك الله تسهل سبيل الملاطفة في البر ، فأهديت هدية من لا يحتشم إلى من لا يغتنم مالا ، فلا أكثره تبجحاً ولا أقله ترفعاً .

(هدايا النيروز) قال : كتب الحسن بن وهب إلى المتوكل في يوم نيروز بهذه الرقعة : أسعدك الله يا أمير المؤمنين بكر الدهور ، وتكامل السرور ، وبارك لك في أقبال الزمان ، وبسط بيمن خلافتك الآمال ، وخصك بالمزيد ، وأبهجك ، بكل عيد ، وشد بك أزر التوحيد ووصل لك بشاشة أزهار الربيع المونق ، بطيب أيام الخريف المغدق ، وقرب لك التمتع بالمهرجان والنيروز ، تداوم بهجة ايلول وتموز ، وبمواقع تمكين لا يجاوزه الأمل ، وغبطة اليها نهاية ضارب المثل ، وعمر ببلائك الاسلام . وفسح لك في القدرة والمدة ، وأمتع برأفتك وعدلك الأمة ، وسربلك العافية ، ورداك السلامة ، ودرعك العز والكرامة ، وجعل الشهور لك بالاقبال متصدية . والأزمنة اليك راغبة متشوقة ، والقلوب نحوك سامية ، تلاحظك عشقاً وتدندف نحوك طربا وشوقاً ، وكتب في آخره :

فدَاكَ الزّمانُ وأهلُ الزّمانِ إمامَ الهُدَى بكَ مُستبشرينا

قدَ أَلقَوْا إِليكَ مقاليدَهُمْ جميعاً مُطيعينَ مُستوسِقينا
ولا زلتَ زيناً لأعيادِنا وللدِّينِ كَهفاً وحِصناً حَصينا
يَعِزُّ بدَوْلتِكَ الصَّالحونَ وَيَشقى بكَ الشِّركُ والمُشرِكونا
فيا رُبَّ مُشكِلةٍ أبرَقتْ فجَلَّلتَها السَّيفَ حَقّاً يَقينا
بصِدقِ عَزيمةِ مُستَبصِرٍ وَضَربٍ يَقُدُّ الطُّلى والمُتونا
وَسُمْتَ النَّصارى بشَيْطانِها وذَلَّلتَ مِنْها الأَغَرَّ البَطينا
وكَمْ فِعْلَةٍ لَكَ في المُشرِكينَ أَقَرَّتْ عُيوناً وأبكَتْ عُيونا

وكتب آخر :

المِهْرَجانُ لَنا يَومٌ نُسَرُّ بهِ يَومٌ تُعظِّمُهُ الأشرافُ والعَجَمُ
وأنتَ فيهِ لَنا بَدرٌ يُضيءُ كما أنَّ السَّماءَ بِبَدرِ اللَّيلِ تَبتَسِمُ

وكتب آخر :

عيدٌ جديدٌ وأنتَ جدَّتُهُ يا مَنْ بهِ لِلزَّمانِ تَجديدُ
لا زالَ طولُ الزَّمانِ يَرجِعُهُ وظِلُّ مُلكٍ عَلَيكَ مَمدودُ

وقيل للمازني : أي هؤلاء أظرف في شعره الذي يقول :

جُعِلتُ فِداكَ لِلنَّيْروزِ حقٌّ فأنتَ عليَّ أعظَمُ مِنهُ حقّا
ولَوْ أهدَيتُ فيهِ جَميعَ مِلكي لَكانَ جَليلُهُ لكَ مُستَدَقّا
فأهدَيتُ الثَّناءَ بِنَظمِ شِعرٍ وكُنتَ لِذاكَ مِنّي مُستَحِقّا

أم الذي يقول :

دَخَلْتُ السُّوقَ أَبْتاعُ وأَسْتَطْرِفُ ما أَهدِي
فَما أُسْتَطْرَفْتُ للإهْدا ءِ إلاَّ طُرَفَ الحَمْدِ
إذا نَحْنُ مَدَحْناكَ رَعَيْنا حُرْمَةَ المَجْدِ

أم الذي يقول :

وكَمْ مِنْ مُرْسِلٍ لَكَ قَدْ أَتاني بِمَا يُهْدِي الخَلِيلُ إلى الخَلِيلِ
فأَظْهَرْتُ السُّرورَ وقُلْتُ أَهْلاً وسَهْلاً بِالْهَدِيَّةِ والرَّسولِ

فقال : أشعرهم جميعهم ، وأظرفهم الذي يقول :

فَوَاللهِ لا أَنفَكُّ أُهْدِي شَوارِداً إليكَ يُحَمَّلْنَ الثَّناءَ المُبَجَّلا
أَلَذَّ مِنَ السَّلْوَى وأَطْيَبَ نَفْحَةً مِنَ المِسْكِ مَفْتوتاً وأَيْسَرَ مَحْمَلا

وبعث سعيد بن حميد الى أحمد بن أبي طاهر قارورة ما ورد وكتب اليه

وزائِرَةٍ حُورِيَّةٍ فارِسِيَّةٍ كَنَشْرِ حَبيبٍ جادَ يَوْماً عَنِ الصَّدِّ
تَرُدُّ رَبيعاً في مَصِيفٍ بِنَفْحَةٍ إذا فَقَدَتْ وَرْداً تَنوبُ عَنِ الوَرْدِ
حَكَى نَشْرُها مِنْهُ خَلائِقَ نَشْرِهِ
كَنَشْرِ نَسيمِ الرَّوْضِ في جَنَّةِ الخُلْدِ
وَشَبَّهْتُها في صَفْوِها بِصَفائِهِ
لإِخْوانِهِ في القُرْبِ مِنْهُ وفي البُعْدِ

وأهْدَتْ لَنا مِنْــهُ النَّسيمَ نَسيمَةً

وإنْ كانَ إنْ حالَت يَدومُ على عَهْدِ

وعن اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال : دار كلام بين الامين وبين ابراهيم بن المهدي قال : فوجد عليه الامين فهجره ، فوجه اليه ابراهيم بوصيفة مغنية مع عبد هندي ، فأبى الأمين أن يقبلها فكتب اليه :

هَتَكْتَ الضَميرَ بِرَدِّ اللّطَفْ وكَشَفْتَ هَجْرَكَ لي فانْكَشَفْ

فإنْ كُنْتَ تَحْقِدُ شيْئاً مَضَى فَهَبْ لِلْخِلافَةِ ما قَدْ سَلَفْ

وجُدْ لي بِعَفْوِكَ عَنْ زَلَّتي فَبالفَضْلِ تأْخُذُ أهْلَ الشَّرَفْ

فرضي عنه ودعاه للمنادمة .

(هدايا الفصد) قال ابن حمدون النديم : افتصد المأمون ، فأهدى اليه ابراهيم بن المهدي جارية معها عود ورقعة فيها :

عفَوْتَ وكانَ الْعَفْــوُ مِنْـكَ سَجيَّةً

كَما كانَ مَعْقوداً بِمَفْرِقكَ المُلْكُ

فإنْ أنتَ أتمَمْتَ الرِّضى فَهوَ المُنى

وإنْ أنتَ جازَيْتَ المُسيءَ فَذا الْهُلْكُ

فقال المأمون : خرف الشيخ يوم مثل هذا يذكر الثواب والآخرة فلم يقبل الوصيفة واغتم ابراهيم وكتب اليه مع الوصيفة :

لا والذي تَسْجُدُ الجِباهُ لَهُ ما لي بِما دُونَ ثَوْبِها خَبَرُ

ولا بِفيها ولاَ هَمَمْتُ بِهـا ما كانَ إلاَّ الحَديثُ والنَّظَرُ

فقال المأمون : نعم الآن أقبلها فقبلها . قال أبو القاسم بن أبي داود: كنت عند أحمد بن محمد العلوي وقـد افتصد ، فخرج بعض الخدم ومعه طبق من فضة عليه تفاح طيب مكتوب حواليه بالذهب :

سُرَّ الغَداةَ بِوَجْهِكَ اللَّعِبُ وجَرَى بِيُمْنِ فِصادِكَ الطرَبُ

وتَداعَت العيدانُ في زَجَلٍ وتَناوَلَتْ راحاتِها النُّخَبُ

فاشرَبْ بهذا الجامِ يامَلِكي شُرْباً حَثيثاً إنَّـهُ عَجَبُ

واُجعَلْ لِمَنْ قدْخَفَّ في لَطَفٍ مِنْ زَوْرُهُ يُخشَى ويُرْتَقَبُ

فقال للخادم : اخرجها إلى الستارة ، فخرجت وخلا ليلته بها . وقيل : افتصد المعتصم وأهدت اليه شمائل صينية عقيق عليها قدح أسبل عليها منديل مطيب مكتوب عليه بالعنبر في كل ربع منه بيت شعر :

خَضَبَ الخليفةُ كَفَّهُ مِنْ فَصْدِهِ بِدَمٍ يُحاكي عَبْرَةَ المُشْتـاقِ

تاهَ الفِصـادُ فما يُقـامُ لتيهِـهِ إذْ صارَ مُفْتَصِداً أبو إسحـاقِ

وتوافتِ العِيدانُ عندَ حُضورِه قُبُّ البُطون ذَوابِلُ الأعْناقِ

مَلِكٌ إذا خَطَرَ الشَّرابُ ببالهِ لبِسَ السُّرُورُ غلائلَ الإشراقِ

فلما قرأه أمر بإحضار اسحاق بن ابراهيم الموصلي ، وأمره أن يجعل له لحنا ، وأمر مسروراً باخراجهـا من وراء الستارة ، ثم لم يزل اسحاق يردد هذه الأبيات حتى أحكمتها شمائل وغنت ، فكأن سقط الدر يتناثر من فيهـا ، وأمر لاسحاق بمال ، وللجارية بخمس وصائف وخمسة آلاف دينار . المبرد قـال : أهدى اليزيدي الى الرشيد يوم فصد جام بلور

وشمامات غالية ، وكتب اليـه : يا أمير المؤمنين تفاءلت في الشرب في الجام بجمام النفس ، ودوام الانس ، والغالية للغلو في السرور ، ولازدياد من الخير والحبور وقلت :

دمُ الفَصْدِ مِنْ يدِكَ العاليَه ... يُداعِي لِجسْمِكَ بالعافِيَه
كَساالدَّهرَثوباًمِنَ الأُرْجُوانِ ... بديعَ الطِّرَازَيْنِ والحاشيه
وعَصْفَرَ صَفْحَةَ وَجه الرَّبيعِ ... بصَبْغٍ مِنْ أسْرارِهِ الجارِيه
فكمْ رَوْضةٍ نَشَرَتْ وَشيَها ... وزَهْرَةِ روْضٍ غَدَتْ زَاهِيَه
إمامٌ أسالَ دَمَ المُكْرَماتِ ... فشَجَّجَ أقْتالَهَا الحامِيَه
فلازالَ في عيشةٍ راضِيه ... ودامتْ لهُ النِّعْمةُ الكافِيه

قال اليزيدي : افتصد المأمون فأهدت اليه رباح أترجة عنبر عليه مكتوب بماء الذهب :

تَعالَجَ مَن هَوِيتَ بفَصْدِ عِرْقٍ ... فأضحَى السُّقْمُ في خِلَعِ الخُضوعِ
وجاءَتْ تُحْفَةُ الأحبابِ تَسعَى ... بوَرْدٍ فائضٍ فَيضَ الدُّموعِ

فقال المأمون لليزيدي : ويحك ما تقول فيمن كتب هذين البيتين ؟ قال : يكافأ بالدنيا وما استدق منها ، فأمر لها بمال كثير ووصلني ببعضه. قال : وافتصد عبدالله بن طاهر فأهدى له أبو دلف جميع مـا أصاب في السوق من الورد وكتب اليه :

تَضاحَكَ الوَردُ في وَجهي فقلتُ لهُ ... لِمْ ذا فقالَ أبو العَبَّاسِ مُفْتَصِدُ
فقُمْتُ أطْلُبُ ما أهدِيهِ مِنْ طُرَفٍ ... لِلفَصْدِ في السُّوقِ حتّى خانني الجَلَدُ

يوْمُ الفِصـادِ لهُ أُزرٌ مُطيَّبـةٌ ... مَحْجوبةٌ لاَ يَراها الجِرْدُ والزَّرَدُ
فاشرَبْ على الوَرْدِ مَسْرُوراً بطَلعَتهِ ... يابنَ الكِرامَ فأنتَ السيِّدُ النَّجِدُ

قال عمرو بن بانة : اعتل المعتصم ، فأشار عليه بختيشوع بالفصـــد وأنا عنده ، فاخرجت اليه هدايا الفصد ، وكان فيما أخرج طبق صندل مكتوب عليه بجزع كما يدور عليه شمامات مسك وعنبر فأمر بقراءة ما عليه فاذا هو :

فُصِدَ الإمامُ لِعلّةٍ في جِسمِـهِ ... فشفَـى الإلهُ السُّقْمَ بالفَصْـدِ
وجَرى إلى الطَّشْتِ السِّقامُ مُبادِراً ... وجَرَى الشِّفاءُ إليـهِ بالسَّعْدِ
يامالِكاً مَلكَ العِبادَ بجُـودِه ... إسْلَمْ سَلِمْتَ بعيْشةٍ رَغْـدِ

فقال يا عمرو : من يلومني على حب هذه الجارية ، والله ما أراها الا تزايدت في عيني ، وخليق أن تنجب فان لها همة ، فولدت له غلامـــاً وكانت آثر جواريه عنده واحظاهن لديه . وأخبرنا ابراهيم القارىء قال : كنت عند المأمون فاحتاج إلى الفصد فقال له الاطباء : البلد بارد فقال: لا بد لي منه ، فصدوه فلما كان وقت الظهر حضروا فراموا فجر العرق، فاذا هو قد التحم ، فشدوا الرباط وفيهم متحا يدق فما ظهر الدم ، فقال لهم المأمون عقرتموني نحّوا الرباط وعلى رأسه بختيشوع وابن ماساويه فقال : ما تقولون ؟ قالوا : ما ندري ما نقول ؟ قال : فاشاروا هناك أن جلالة الخليفة ربما أدهشت الحاذق بالصناعة والمتقـــدم في الرياسة ، فاعتزلوا ناحيـــة وابطئوا عليه فقال لاسود كان على رأسه : أدن فمص الجرح ، ففعل ، فثار الدم فقال : أدع هؤلاء الحاكة ، فجاءوا وشهـــدوا خروج الدم ، قال : أين كنتم ؟ قال ابن ماسويه : لو فعل جالينوس ما زاد عليه . قال : وافتصد أحمد بن عيسى بالري وهو أميرها فكتب اليه جعفر الشيباني :

فَصَدْتَ بأرْضِ الرَّيِّ طابَ لكَ الفَصْدُ
وفارَقَ نجْمَ النَّحْسِ طالِعُكَ السَّعْدُ
فأعقبَكَ الحُسْنى التي لا مَدَى لها ولا زَالَ بُرْدَيكَ الجلالَةُ والحَمْدُ
تَوَرَّدَتِ الدُّنيا بفَصْدِكَ مِثلَ ما
بفَصْدِكَ يا بنَ المُصطفى ضَحِكَ الوَرْدُ
فلا أبصَرَتْ عيْناكَ ما عِشْتَ شانياً ومِنْ كُلِّ ما تَهواهُ لا خانَكَ العَهْدُ

وفي مثله :

يافاصِداً مِنْ يَدٍ جلَّتْ أيادِيها ونالَ منهُ الذي يَرْجوهُ راجِيها
يَدُ النَّدَى هِي فارْفُقْ لا تُرِقْ دَمَها فإنَّ آمالَ طُلاَّبِ النَّدَى فيها

قال : وكتب الحمدوني الى الفضل بن جعفر وقد افتصد :

ألاَ يا طبيبَ الفَصْد هـلْ أنتَ عالِمٌ
بما صَنَعَتْ كفاكَ في كَفِّ ذِي المَجْدِ
أسَلْتَ دماً مِنْ ساعِدٍ يَنْثَني بها
حَياءً نَدًى فاقصِدْ بذَرْعِكَ في الفَصْدِ
فدَوَايتَ كَفّاً تعلمُ النَّاسُ أنها دَواءٌ مِنَ الأمحالِ في الزَّمنِ النَّكْدِ
ولَمَّا أتانا المُخبِرُونَ بفَصْدِهِ أرَدْتُ بأنْ اهدِي على قَدْرِ ما عندِي
وشاوَرتُ فاستصحبتُ آلي وجيرَتي فلم أرَ أمري مِنْ ثَناءٍ ومِنْ حَمْدِ

وقال آخر :

نُؤَنِّقُ مِنْ ثَنائِكَ في الهَدَايا ... غَدَاةَ أَرَدْتَ فَصْدَ البَاسِليقِ
فلَمْ أَرَ كالدُّعاءِ أَتَمَّ نَفعاً ... وأَجمَلَ في مكافاةِ الصَّديقِ
وأَكثَرْتُ الدُّعاءَ وقلتُ رَبي ... يَقِيكَ شُرُورَ آفاتِ العُرُوقِ

وقال آخر :

عَلى طيبِ أَيّامِ التَّمتُّعِ بالوَرْدِ
فَصدْتَ فَأَصبحتَ السلامَةَ في الفَصْدِ
ولا زِلتَ لا زالَتْ مِنَ اللهِ أَنْعُمٌ ... عليكَ قريرَ العَيْنِ مُغتبطَ الحَسْدِ
لقدْ رُمتُ جَهْدِي طُرْفةً وهَدِيَّةً ... إِليكَ فكانَ الشُّكْرُ أَكثرَ ما عِندِي

وقال آخر :

أَيُّها الفاصِدُ العَليلُ الصَّحيحُ ... بأَبي ذلكَ الجِراحُ الجَرِيحُ
إنَّ مَنْ عَلّقَ الدِّراعَ مِنَ النَّهْـ ... ـدِ إلى الجِيدِ ذاكَ شيءٌ مَليحُ
أَيُّها الفاصِدُ المُهَنّا لهُ الوَرْدُ ... وفي وجنتَيْهِ وَرْدٌ يَلوحُ

وقال آخر :

أَيُّها السيِّدُ الذي فَصَدَ العِرْقَ ... وأَرْخى دوني ذُيولَ السُّرُورِ
كَمْ تَمَنَّيتُ أَنْ أَكونَ طبيباً ... ومُنى الصَّبِّ تُرَّهاتُ الغُرُورِ

وقال آخر :

أجمِلْ جُعِلْتُ فِدَاكَ بالجَلْدِ ... وامنُنْ عليَّ بأجمَلِ الرَّدِّ
لو عايَنَتْ عيناكَ مُضْطَرَبي ... وتفرُّدِي بالمدِّ والشَّدِّ
وتخشُّعي عندَ الطَّبيبِ كأنهُ ... مَولى يُرِيدُ عقوبةَ العَبْدِ
كالنَّارِ مِبْضَعُهُ يُقَلِّبُهُ ... ويُدِيرُ مُقْلَةَ حازمٍ جَلْدِ
حتّى أعتَزَمْتُ على مُحاجَزَةٍ ... وصَدَدْتُ عنهُ أَيَّمَا صَدِّ
ما كانَ مِنْ أَلَمٍ شَعرْتُ بهِ ... إلاَّ كموْقِعِ شَرْطَةِ الجِلْدِ
إذْ سالَ مُنبَعِثاً سَوابِقُهُ ... كالنَّارِ خارِجةً مِنَ الزَّنْدِ
فسَلِمْتُ والرَّحْمنُ سَلَّمني ... ذو المَنِّ والآلاءِ والحَمْدِ
ما بعْدَ طَبَّاخي لِمفتخِرٍ ... فَخْرٌ لِمَنْ قبلي ومَنْ بعدِي
نَصَبَ القُدُورَ بنفْسهِ كَرَماً ... لِنُصِيبَ شَهوَتَنا على عَمْدِ
فأجادَ صَنْعَتَها وعَجَّلَها ... مِنْ غيرِ ما تَعَبٍ ولا جَهْدِ
ونَبيذُنا صافٍ ومَجْلِسُنا ... في الطِّيبِ يَحكِي جَنَّةَ الخُلْدِ
فهَلُمَّ واحضَرْ غيرَ مُحتَشِمٍ ... واجعَلْ غَدَاءَكَ سيِّدِي عندي
لا تَجمَعَنَّ عليَّ مُحتَسِباً ... ضَعْفَ العَليلِ ووَحشَةَ الفَرْدِ

٤٧ – محاسن الوصائف المغنيات

قال الأصمعي : بعث الي هرون الرشيد وهو بالرقة فحملت اليه ؛ فأنزلني

الفضل بن الربيع ، ثم أدخلني عليه وقت الغروب ، فاستدناني وقال : يا عبد الملك وجهت اليك بسبب جاريتين اهديتا الي وقد اخذتا طرفا من الادب احببت ان تبرز ما عندهما وتسير على الصواب فيهما ، ثم امر باحضارهما فحضرت جاريتان ما رأيت مثلهما قط فقلت لاحداهما : ما عندك من العلم ؟ قالت : ما أمر الله في كتابه ثم ما ينظر فيه الناس من الأشعار والاخبار ، فسألتها عن حروف القرآن ، فأجابتني كأنها تقرأ في كتاب الله ثم سألتها عن الاشعار والاخبار والنحو والعروض ، فما قصرت عن جوابي في كل فن أخذت فيه فقلت لها : فانشدينا شيئاً فأنشدت :

يا غِيَاثَ البلادِ في كلِّ مَحْلِ   ما يُرِيدُ العِبادُ إلاّ رِضاكَ

لاَ ومنْ شرَّفَ الإمامَ وأعْلى   ما أطاعَ الإلٰهَ عَبْدٌ عَصاكَ

فقلت : يا امير المؤمنين ما رأيت امرأة في نسك رجل مثلها ، وخبرت الأخرى فوجدتها دونها ، فأمر ان تصنع تلك الجارية لتحمل اليه في تلك الليلة ثم قال لي : يا عبدالملك انا ضجر وأحب أن تسمعني حديثا مما سمعت من أعاجيب الزمان نفرج به فقلت : يا أمير المؤمنين كان لي صاحب في بدو بني فلان ، وكنت أغشاه وأتحدث معه وقد أتت عليه ست وتسعون سنة وهو أصح الناس ذهنا وأقواهم بدنا ، فغبت عنه ثم أتيته فوجدته ناحل البدن كاسف البال ، فسألته عن سبب تغيره فقال : قصدت بعض القرابة فألفيت عندهم جارية قد طلت بالورس بدنها وفي عنقها طبل تنشد عليه :

مَحاسِنُها سِهامٌ لِلمَنَايا   مُرَيَّشةٌ بأنواعِ الخُطُوبِ

تَرَى رَيْبَ المَنونِ بهِنَّ سَهماً   تُصيبُ بنَصْلهِ مُهَجَ القُلوبِ

فقلت :

فَفي شَفَتي مِنْ مَوْضعِ الطَّبْلِ تَرْتعي

كما قدْ أَبَحْتِ الطَّبْلَ في جيدِكِ الحَسَنْ

فَهَبْنِي عُوداً جوْفهُ تحْتَ متْنهِ يُمَتِّعني ما بينَ نَحْرِكِ والذَّقنْ

فلما سمعت شعري رمت بالطبل في وجهي ودخلت الخيمة ، فوقفت حتى حميت الشمس على مفرقي ولم تخرج ، فانصرفت قريح القلب ، فهذا التغير من عشقي لهـا ، فضحك الرشيد حتى استلقى وقال : ويلك يا عبد الملك ابن ست وتسعين يعشق ! فقلت : قد كان هذا ، فقال : يـا عباس اعط عبدالملك مائة ألف درهم ورده الى مدينة السلام ، فانصرفت ثم أتاني خادم فقال : أنا رسول ابنتك - يعني الجارية - تقول لك : ان امير المؤمنين قد امر لها بمال وهذا نصيبك ، فـدفع الي ألف دينار ولم تزل تواصلني بالبر الواصل حتى كانت فتنة محمد وانقطع خبرهـا وأمر الفضل لي بعشرة آلاف درهم . علي بن الجهم لما أفضت الخلافـة الى المتوكل أهدى اليه الناس على أقدارهم ، فأهدى اليه ابن طاهر جارية أديبة تسمى قبيحة تقول الشعر وتلحنه ، وتحسن من كل علم أحسنه ، فحلت من قلب المتوكل محلا جليلا ، فدخلت يوماً للمنادمة ، وخرج المتوكل وهو يضحك وقال : يا علي دخلت فرأيت قبيحة كتبت على خدها بالمسك جعفر فما رأيت أحسن منه فقل فيه شيئا ، فسبقتني محبوبة وأخذت عودها فغنت :

وكاتِبة بالمِسْكِ في الخدِّ جعْفرا بنفْسي خطُّ المِسك مِنْ حيثُ أثّرا

لئِنْ أوْدَعتْ سطراً مِنَ المِسْكِ خدَّهـا

لقدْ أوْدَعتْ قلبي مِـنَ الوَجدِ أسْطُرا

فيا مَنْ لمَمْلوكٍ يَظَلُّ مَليكُهُ مُطيعاً له فيما أسرَّ وأجهَرا
ويا مَنْ لعيْنيْ مَنْ رَأى مثلَ جَعْفرٍ سَقى اللهُ صَوْبَ المُسْكِراتِ لجَعْفَرا

قال : فنقلت خواطري حتى كأني ما أحسن حرفا من الشعر وقلت للمتوكل : أقل فقد والله غرب عني ذهني ، فلم يزل يعيرني به ، ثم دخلت عليه للمنادمة بعد ذلك فقال : يا علي أعلمت أني قد غاضبت محبوبة وأمرتها بلزوم مقصورتها ، ومنعت أهل القصر من كلامها ، فقلت : يا سيدي إن غاضبتها اليوم فصالحها غدا ، فدخلت عليه من الغد فقال : ويحك يا علي رأيت البارحة في النوم كأني صالحت محبوبة ، فقالت جاريته ، شاطر يا سيدي لقد سمعت الآن في مقصورتها هينمة فقال : ننظر ما هي ، فقام حافيا حتى وصلنا مقصورتها فاذا هي تغني :

أدُورُ في القَصْرِ كيْ أرَى أحداً أشكو اليهِ فلا يُكَلِّمُني
فمَنْ شَفيعٌ لنا إلى مَلِكٍ قدْ زارَني في الكَرا يُعاتِبُني
حتّى إذا ما الصّباحُ عادَ لنا عادَ إلى هَجرِهِ ففارَقني

فصفق المتوكل طربا ، فلما سمعته خرجت تقبل رجليه وتمرغ خدها في التراب حتى أخذ بيدها راضيا عنها . حدث أبو علي بن الاسكري المصري واسكر هي القرية التي ولد فيها موسى عليه السلام ـ قال : كنت من جلاس تميم بن تميم وممن يخف عليه فأتى من بغداد بجارية رائعة فائقة الغناء فدعا بجلسائه وقدمت الستارة فغنت :

وبَدالهُ مِنْ بعدِ ما اندَمَلَ الهوَى بَرْقٌ تألّقَ مَوهِناً لمَعانُه
يَبْدُو كحاشيةِ الرِّداءِ ودونَهُ صَعْبُ الذُّرى مُتَمَنِّعٌ أرْكانُه

وَبَدَا لِيَنْظُرَ كيفَ لاحَ ولمْ يَطِقْ نَظَراً إِليــهِ وَهَدَّهُ هَيَجانُــه
فالنَّارُ ما اشتَمَلَتْ عليهِ ضُلُوعُهُ والماءُ ما سَحَّتْ بهِ أَجفانُــه

قال : فأحسنت ما شاءت فطرب تميم ومن حضر ثم غنت :

سيَسْلِيكَ مِما دُونَ دَوْلةِ مفضل أوائلُهُ محمودةٌ وأواخِــرُه
ثني اللهُ عِطفَيهِ وألفَ شخصَهُ على البِرّ مُذْ شُدَّتْ عليهِ مآزِرُه

فطرب تميم ومن حضر ثم غنت :

أستَوْدِعُ اللهَ في بَغدَاد لي قَمَرَا بالكرخِ من فلكِ الأَزْرار مَطْلَعهُ

فأفرط تميم في الطرب جدا وقال لها : تمني ما شئت فلك مناك ، قالت : أتمنى أيها الأمير عافيته وسلامته ، فقال : والله لا بد ان تتمني ، فقالت على الوفاء أتمنى ان أغني هذه النوبة ببغداد ، فتغير وجه تميم ، وتكدر المجلس وقمنا فلحقني بعض خدمه فردني ، فلما وقفت بين يديه قال : ويحك أرأيت ما امتحنا به ولا بدلنا من الوفاء ولم أثق في هذا بغيرك فتأهب لحملها الى بغداد فاذا غنت هناك فاصرفها فقلت : سمعا وطاعة ، ثم أصحبها جارية سوداء تخدمها وتعادلها ، وأمر بناقة لي فحمل عليها هودج وأدخلت فيه ، وسرنا مع القافلة الى مكة فقضينا حجنا ثم لما وردنا القادسية أتتني السوداء فقالت : تقول لك سيدتي أين نحن ؟ فقلت لها : نحــن الآن بالقادسية فاخبرتها فسمعت صوتا قد ارتفع ناشدا :

لَمّــا رَأَينــا القادِسِيةَ حيثُ مُجْتَمَعُ الرِّفاقِ
وَشَمَمْتُ مِنْ أرضِ الحجا زِ نَسيمَ أنفاسِ العراقِ
أيقنْتُ لي ولِمَــنْ أُحِـ بُّ بجمعِ شَمْلٍ واتّفاقِ

وَضَحِكْتَ مِن فَرَحِ اللّقا ء كما بَكيتُ مِنَ الفِراقِ

فصاح الناس من أقطار القافلة : أعيذي بالله فلم يسمع لها كلمة ، فلما نزلنا الناصرية على خمس أميال من بغداد في بساتين متصلة تبيت الناس فيها ثم يبكرون بغداد ، فلما قرب الصباح اذ السوداء قد أتتني مذعورة فقالت : إن سيدتي ليست بحاضرة ، فلم أجدها ، ولا وجدت لها ببغداد خبرا ، فقضيت حوائجي وانصرفت الى تيم وأخبرته خبرها ، فلم يزل واجا عليها . واخبار القينات كثيرة فنقتصر منها على هذا القدر .

٤٨ ـ محاسن الجواري مطلقا

قيل ، كان يقال : من أراد قلة المؤنة ، وخفة النفقة ، وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة فعليه بالاماء دون الحرائر . وكان مسلمة بن مسلمة يقول : عجبت لمن استمتع بالسراري كيف يتزوج المهائر ؟ وقال :السرور باتخاذ السراري ، وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ الاماء أمهات أولادهم حتى نشأ فيهم علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم وفاق أهل المدينة فقها وعلماً وورعا ، فرغب الناس في اتخاذ السراري ، قال : وليس من خلفاء بني العباس من أبناء الحرائر الا ثلاثة : السفاح والمنصور والأمين ، والباقون كلهم أبناء الجواري ، وقد علت الجواري لأنهن يجمعن عز العرب ودهاء العجم .

(ضده)

إذا لمْ يكُنْ في مَنْزِلِ المرءِ حُرّةٌ رَأى خَلَلاً فيما توَلّى الوَلائد

فلا يَتّخِذْ منهنّ حُرٌّ قَعيدَةً فهُنّ لَعَمْرُ اللهِ شرُّ القعائد

وكان يقال : الجواري كخبز السوق ، والحرائر كخبز الدور . ومن أمثال العرب : لا تمازح أمة ، ولا تبك على أكمة ، وقال بعضهم : لا تفترش من تداولتها أيدي النخاسين ، ووقع ثمنها في الموازين ، وقال : لا خير في بنات الكفر ، وقد نودي عليهن في الأسواق ، ومرت عليهن أيدي الفساق .

٤٩ ـ محاسن الموت

في الحديث المرفوع (الموت راحة) ، وقال بعض السلف : ما من مؤمن إلا والموت خير له من الحياة ، لأنه إن كان محسنا فالله يقول « وما عِندَ اللهِ خيرٌ لِلأبرارِ » وإن كان مسيئاً فالله تعالى جده يقول أيضاً « ولا يَحسبَنَّ الذينَ كَفَرُوا أنَّما نُملي لهمْ خَيرٌ لأنفُسِهِمْ إنما نُملي لهم لِيَزْدادوا إثماً » وقال ميمون بن مهران : أتيت عمر بن عبد العزيز فكثر بكاؤه ومسألته الله الموت فقلت : يا أمير المؤمنين تسأل ربك الموت ، وقد صنع الله على يدك خيرا كثيرا أحييت سننا ، وأمت بدعا ، وفعلت ، وصنعت ، ولبقائك رحمة للمؤمنين ، فقال : الا أكون كالعبد الصالح حين أقر الله عينه وجمع له امره قال « رَبِّ قد آتيتَني مِنَ المُلكِ وعَلَّمتَني من تأويلِ الأحاديثِ » إلى قوله « وألحقني بالصّالحين » فما دار عليه اسبوع حتى مات رحمه الله ، قالت الفلاسفة : لا يستكمل الانسان حد الانسانية إلا بالموت ، لأن حد الانسانية إنه حي ناطق ميت وقال بعض السلف الصالح : اذا مات استراح ، والطالح إذا مات استريح منه قال الشاعر :

وما المَوْتُ إلاّ راحةٌ غيرَ أنهُ ... أبَرُّ بنا مِنْ كُلِّ بَرٍّ وأرأفُ

وقال آخر :

جَزَا اللهُ عنّا المْوتَ خيراً فإنهُ ... أبرّ بنا مِنْ كُلّ برّ وأرأفُ
يُعجِّل تخليصَ النفوسِ مِنَ الأذى ... ويُدْني مِنَ الدّارِ التي هي أشرَفُ

وقال منصور الفقيه :

قدْقلتُ إنْ مَدَحوا الحياةَ فأسرَفوا ... في الموْتِ ألفُ فَضيلةٍ لا تُعْرفُ
مِنها أمانُ بَقائه بلقائـهِ ... وفِراقُ كُلّ مُعاشِرٍ لا يُنْصِفُ

وقال أحمد بن أبي بكر الكاتب :

منْ كانَ يرْجو أنْ يَعيش فإنني ... أصبحتُ أرْجو أنْ أموتَ فاعتقا
في الموتِ ألفُ فضيلةٍ لوْ أنّها ... عُرفتْ لكانَ سبيلهُ أنْ يُعشَقا

وقال لنكك البصري :

نحنُ واللهِ في زمانٍ غشومٍ ... لو رأيناهُ في المنامِ فزِعنا
أصبحَ النّاسُ فيهِ مِنْ سوءِ حالٍ ... حقّ مَنْ ماتَ منهُمْ أنْ يُهنّـا

(ضـده)

في الحديث المرفوع (أكثر واذكرها ذم اللذات – يعني الموت –)
قال الشاعر :

يا موْتُ ما أجفاكَ مِنْ نازلٍ ... تنْزِلُ بالمرء عـلى رغْمـهِ
تستَلِبُ العَذْراءَ مِنْ خِدرِهـا ... وتأخُذُ الواحِـدَ مِنْ أمّـهِ

وقال :

وَكلُّ ذي غَيْبةٍ له إِيابٌ   وغائبُ الموْتِ لا يَئوبُ

وقال بعضهم : الناس في الدنيا أغراض تنتضل فيها سهام المنايا ، وقال ابن المعتز : الموت كسهم مرسل اليك ، وعمرك بقدر سفره نحوك ، وقال بعضهم : الموت أشد مما قبله ، وأهون مما بعده ، ونظر الحسن رضي الله عنه الى ميت يدفن فقال : إن شيئا أوله هذا الحقيق أن يخاف آخره ، وإن شيئاً هذا آخره لحقيق أن يزهد في أوله ، وسئل بعض الفلاسفة عن الموت فقال : مفازة من ركبها ضل خبره ، وعفى أثره . والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمـــآب.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد القهار . منشيء الخلق أطواراً بعد أطوار . وعلمهم من حكمه وآدابه ما به يتوصل الى تجلية الفكر عن الأغيار . وحلاهم في الآخرة بمشاهدته سبحانه كل شيء عنده بمقدار . والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي المختار . وعلى آله وأصحابه وآل بيته الخيرة الأبرار .

أما بعد فقد تم بعون الله طبع هذا الكتاب الذي ينعش النفوس ويؤدبها ويزكي الطباع ويهذبها . فهو كما يصف الواصفون نديم نفيس ، وجليس أنيس ، وسمير كل أمير ، بل أمير كل سمير * ألا وهو كتاب المحاسن والأضداد لمؤلفه العلامة النحرير . والشيخ الكبير . ذو التصانيف العديدة . والرسائل المفيدة . الشيخ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري إمام أهل الأدب رحمه الله ، وذلك بمطبعة الساحل الجنوبي الشياح ـ لبنان

وقد قام بنفقة طبعه الحاج ابراهيم زين عاصي

صاحب مكتبة العرفان الكبرى

بيروت ـ شارع سوريا

جزى الله الجميع خير

الجزاء

—

تم طبع هذا الكتاب

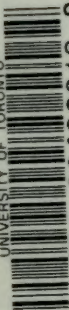
على

مطبعة الساحل الجنوبي

الشياح - لبنان

الفهرس

* * *


UNIVERSITY OF TORONTO
3 1761 00463018 2